

المدخل إلى الأنثروبولوجيا

«علم الإنسان»

تأليف

نخبة من اساتذة الانثروبولوجيا

كلية الآداب

جامعة الاسكندرية وجامعة المنصورة

١٩٩٧

مركز سروات للابحاث

٣٠ شارع د. مصطفى مشرفة (سوتير سابقا)

أمام كلية الحقوق - اسكندرية



تأليف

نخبة من اساتذة الانثروبولوجيا

كلية الآداب

جامعة الاسكندرية وجامعة المنصورة

١٩٩٧

مركز سروات للابحاث

٣٠ شارع د. مصطفى مشرفة (سوتير سابقا)

أمام كلية الحقوق - اسكندرية

مقدمـــه *

* بقلم الاستاذ الدكتور أحمد أبو زيد

مقدمـــه *

الفصول التي يضمها هذا الكتاب الذى يسعدنى تقديمه للقراء ، صدرت عن عدد من الأساتذة أعضاء هيئات التدريس المتخصصين أساسًا فى الانثروبولوجيا ، والذين يحملون رسالة هذا العلم إلى القارىء المثقف العام من ناحية وإلى العلماء والباحثين المتخصصين من ناحية ثانية ، وإلى الطلاب والدارسين فى مختلف جامعات مصر والعالم العربى من ناحية ثالثة ، وتغطى هذه الفصول فى مجملها فروع الانثروبولوجيا الثلاثة الرئيسية ، وهى الانثربولوجيا الفيزيقية والانثروبولوجيا الاجتماعية والانثروبولوجيا الثقافية ، وعددا من التفرعات الهامة التى تفرعت عن هذه الفروع الثلاثة الكبرى .

وربما كان أهم ما يميز هذا الكتاب هو أنه على الرغم من تعدد الكتّاب والمؤلفين وفروع التخصص وبالتالى اختلاف وتنوع الميادين والمجالات التى تتناولها هذه الفصول فإن الكتاب يمثل اتجاها عامًا واحدا ، يصدر عن نظرية أنثروبولوجية واحدة وعن موقف منهجي موحد . فالنظرية العامة التى توجه كل هذه الفصول هى النظرية البنائية الوظيفية والمنهج الذى ارتبط بها ، وهذه النظرية وذلك المنهج يؤلفان الاتجاه الأساسى الذي تتميز به ما يُعرف الآن باسم «مدرسة الإسكندرية» في الانثربولوجيا ، ولقد انتشر تأثير هذه «المدرسة» خارج الحدود المكانية للجامعة والمدينة وخضع له كثير من الأنثربولوجيين فى مصر والعالم العربى بفضل جهود أساتذة هذه المدرسة وكتاباتهم واتصالاتهم المباشرة بالدارسين والباحثين فى تلك الاقطار ، بحيث أصبح كل من يتبع هذه النظرية ويطبق مناهج البحث وأساليبه وقواعده المرتبطة بها يعتبر من اتباع هذه المدرسة ، حتى وإن لم يدرس بطريقة مباشرة على أيدى أحد الأساتذة الذين يعملون بجامعة الاسكندرية ذاتها . فمدرسة الاسكندرية فى الانثروبولوجيا تمثل اذن اتجاها فكريا محددا

---

* مقدمه هذا الكتاب بقلم الاستاذ الدكتور أحمد أبوزيد .

ومتميزا ، يفرض على أصحابه موقفا نظريا شديد الوضوح ويتمثل فى دراسة كل الانساق والنظم التى تؤلف البناء الاجتماعى للمجتمع موضوع الدراسة وتفاعل هذه الأنساق والنظم بعضها مع بعض ، كما يحتم تطبيق مناهج معينة واتباع أساليب وقواعد فى البحث الميدانى تحكمها تقاليد تتعلق فى أغلبها باتباع أحكام قاسية تتصل بطبيعة المجتمعات التى تجرى فيها الدراسة الميدانية (مجتمعات تقليدية صغيرة الحجم في الاغلب) وبالفترة الزمنية التى ينبغى قضاؤها فى هذه المجتمعات (سنة كاملة على الأقل) .

ولقد أنشىء قسم الانثربولوجيا بجامعة الاسكندرية عام ١٩٧٤ ، ولقد ساعدني فى انشائه عدد محدود من شباب الدارسين الذين أصبحوا الآ يشغلون مناصب الاستاذية فى هذا القسم وتخرج على أيديهم أعداد كبيرة من العاملين فى مجال الانثربولوجيا سواء في الجامعات او مراكز البحوث ، ولقد كان هذا القسم – ولا يزال – هو القسم المتخصص الوحيد فى مصر والعالم العربى بل والشرق الاوسط ، وان كانت الانثربولوجيا ذاتها –.أو بعضها فروعها – تدرس فى كل الجامعات بغير استثناء فى أقسام الاجتماع المختلفة بل وفى أقسام أخرى غيرها ، والواقع ان الانثربولوجيا كانت تدرس فى جامعة الاسكندرية ذاته قبل عام ١٩٧٤ فى قسم الدراسات الفلسفية والاجتماعية وتولى تدريسها المرحوم الاستاذ الدكتور على أحمد عيسى ، وأنا شخصيا لسنوات طويلة تصل الى حوالى ربع قرن حتى أتيح لى أخيرا فى عام ١٩٧٤ إنشاء قسم الانثربولوجيا الذى يتولى الإشراف على إصدار هذا الكتاب .

وترجع نشأة الانثربولوجيا ذاتها الى القرن التاسع عشر ، وارتبطت هذه النشأة بالأوضاع السائدة فى أوربا وبخاصة فى انجلترا فى ذلك الحين، بل انها كانت الى حد كبير نتاجا لتلك الاوضاع . فالقرن التاسع شر هو عصر التفكير التطورى فى كل العلوم والدراسات الانسانية نتيجة للتطورات والتغيرات الهائلة التى حدثت فى كثير من نواحى الحياة : تطور الحياة الاقتصادية وتحولها من الزراعة الى التصنيع ، وظهور ما يسمى بالثورة الصناعية وما ترتب عليها من

قيام طبقة العمال بمطالبها وما ارتبط بذلك من صراع طبقى ، وتطور النظرة إلى المجتمع الانسانى ككل نتيجة للكشوف الجغرافية والحركات الاستعمارية التى فتحت افريقيا بالذات واتصال الاوربيين بالتالى بثقافات ومجتمعات مختلفة كانت تمثل نماذج أو مراحل متأخرة فى سلم الرقى والتطور والتقدم بحيث اهتم هؤلاء العلماء بتصنيف الشعوب الى متوحشة ومتبربرة ومتقدمة أو متمدينة ، حسب درجة قربها أو ابتعادها عن النمو الاوربى السائد في ذلك الحين ، وكان لابد من ان يصطبغ تفكير داروين نفسه بهذا البناء الفكرى السائد وأن يفكر بالتالى فى تطور الأواع وظهور الجنس البشرى وعلاقته بالكائنات الأدنى منه، ولذا فإن داروين نفسه كان نتاج عصره بقدر ما كان عاملا مؤثرا فى ذلك العصر بكتابه عن «أصل الأنواع» . وكما كتب داروين عن أصل الأنواع أهتم غيره بالبحث عن أصل اللغة وأصل الدين وأصل القانون وأصل العائلة وغير ذلك، وهى كلها كتابات تؤلف الجانب الأكبر من التراث الانثروبولوجى الذى نعتز به ونعتبره الاساس الذي لابد من الاحاطة به ، ليس فقط لأهميته التاريخية، بل لأه كان القاعدة الصلبة التى تم فوقها تشييد كل البناء الانثروبولوجى الضخم بمختلف اتجاهاته ومذاهبه ونظرياته ومناهجه .

كانت الظروف التى سادت القرن التاسع عشر هى السبب المباشر فى اهتمام الانثربولوجيا بدراسة الانسان (البدائى) ، أو حتى الاقتصار على دراسة هذا الانسان ومجتمعه وثقافته . وساعد على ذلك المعلومات التى توفرت حينذاك عن المجتمعات والثقافات (البدائية) بفضل كتابات الرحالة والمكتشفين الجغرافيين والمبشرين بل وأيضا رجال الادارة الاوربيين فى تلك المستعمرات . ولكن هذه الظروف والاوضاع تغيرت بعد أن نالت تلك الشعوب والمجتمعات (البدائية) استقلالها وكذلك نتيجة لازدياد الاحتكاك الثقافى بالحضارة الغربية ، وما تلا ذلك من تنفيذ الكثير من مشروعات التنمية الاقتصادية والاجتماعية وظهور عدد من الانثربولوجيين الوطنيين الذين تولوا هم أنفسهم دراسة مجتمعاتهم وثقافاتهم من زاوية جديدة وبأهداف جديدة ايضا تتمثل فى التخطيط لتنمية تلك

المجتمعات وتحقيق التقدم . بل ان الانثربولوجيين الغربيين انفسهم تأثروا بالاوضاع الجديدة ، ووجهوا جانبا كبيرا من اهتمامهم لدراسة ثقافات ونظم المجتمع الغربي نفسه مستخدمين فى ذلك اساليب وطرائق ومناهج البحث الانثروبولوجي . وكان هذا تغيرا في المجال فرضته نفس الظروف السياسية والاقتصادية الجديدة .

ولقد حدث انكسار كبير فى الاتجاه التطورى مع بداية القرن العشرين حين نبذ الانثربولوجيون ذلك المنهج التطورى لتهافته ولما يداخله من تخمين ، ولجأوا إلى محاكاة المنهج المتبع فى العلوم الطبيعية والقائم على جميع المعلومات عن طريق الملاحظة المباشرة والمعايشة لتلك الشعوب والجماعات ورصدها وتحليل المعلومات من موقف موضوعي بحت . وهذا معناه ان الانثروبولوجيين ظلوا مخلصين للتقليد القديم وهو دراسة المجتمعات البدائية وان كانت المداخل التطورية تحولت الى مداخل بنائية وظيفية تقوم على تتبع التفاعل القائم بالفعل بين أنساق ونظم المجتمع موضوع الدراسة وأثناء الفترة المحددة المحدودة ، التى يتم فيها اجراء الدراسة . وتتابعت الدراسات الميدانية فى كثرة بالغة بحيث غطت معظم الجماعات القبلية المعروفة والتى كانت تُنسب تقليديا الى العالم (البدائى) ، بل أنها ايضا تجاوزت ذلك الى دراسات ميدانية لعدد كبير من المجتمعات المحلية التقليدية والغربية المتقدمة . وكان العلماء ولا يزالون يعتبرون هذه الدراسات لتلك الجماعات الصغيرة المحدودة العدد والبسيطة التكوين فى الاغلب هى مجرد مقدمه ضرورية لفهم المجتمع الانسانى فى عمومه ، وخطوة اساسية لتفسيرونهم الكثير من أنماط السلوك السائدة فى المجتمع الغربى نفسه . واذا كان كبلنج Kipling يقول : «إن ما نتعلمه من الدجل الأصفر أو الأسود سوف يساعدنا كثيرا فى فهم الرجل الابيض» ، فان أستاذاً من. أكبر علماء الأنثروبولوجيا فى القرن العشرين وهو أستاذنا المرحوم ايفانزير يتشارد ، يقول فى كتابه عن «الأنثربولوجيا الاجتماعية» الذى نقلته منذ حوالى أربعين سنة إلى اللغة العربية والذى لا يزال يعتبر أفضل مدخل الى هذا العلم: «إن ما نعرفه عن

مجتمع معين بالذات قد يفيد فى التعرف على مجتمع آخر ، وبالتالى على كل المجتمعات الاخرى ، سواء فى تلك المجتمعات التاريخية أو المجتمعات المعاصرة ، وأن الانثربولوجيا تتيح لنا أن نرى الجنس البشرى ككل ، ذلك أننا حين نعتاد على الطريقة التى ننظر بها الى الثقافات والمجتمعات الانسانية ، نستطيع ان ننتقل بسهولة من الجزئى إلى العام ثم بالعكس . كما انه عن طريق فهم الثقافات والمجتمعات الأخرى يمكن للمرء ان يرى ثقافته هو ومجتمعه هو من كل الزوايا ، وان يفهمها فهما افضل ، فالانثربولوجيا تساعدنا اذن على الوصول الى فهم افضل وأعمق للانسان فى كل زمان ومكان» .

وهذه العبارة البسيطة تلخص فى حقيقة الامر جوهر الانثربولوجيا كعلم والهدف من دراسته بل وايضا الهدف من الدراسات والبحوث الميدانية التى يتم فيها التركيز على تحليل وفهم مجتمع محلى صغير او ثقافة فرعية ، فوراء مثل هذه الدراسات والبحوث الجزئية يكمن الهدف الأسمى وهو فهم المجتمع الانسانى ككل، بل وفهم الانسان ذاته فى كل ابعاده وأعماقه ، وليس هذا بالشيء القليل.

ولم يكن هدفي من هذه المقدمه القصيرة ان أعطى القارىء صورة كاملة او تفصيلية عن الانثربولوجيا وتاريخها ومناهجها ومدارسها وفروعها ، فسوف يجد القارىء جانبا من هذا كله فى فصول الكتاب ، ولكن كان هدفى هو تحية هذا المجهود الطيب الذى يشارك فى اخراجه هذه المجموعة الجادة من اساتذة الانثربولوجيا فى عدد من جامعات مصر ، ولكنهم جميعا ينتمون الى مدرسة الاسكندرية التى كان لى شرف البدء فى تكوينها والتى أرى بعض نتاجها الطيب فى هذا الكتاب الذى أثق كل الثقة انه سوف يسد فجوة واسعة وعميقة في معرفتنا بهذا العلم .

والله ولى التوفيق

أحمد أبو زيد

سبتمبر ١٩٩٦

الفصل الاول
مدخل الي الانثروبولوجيا *

* عن كتاب المدخل لعلم الانسـان للاستاذ الدكتور / عبدالله عبدالغنى غانم ، رئيس قسم الانثروبولوجيا واخرين .

الفصل الاول
مدخل الي الانثروبولوجيا *

تعريف الانثروبولوجيا :

.. قبل ان نعرف الانثروبولوجيا من حيث نشأتها ومجالها وخصائصها لابد من العودة بالخيال الى تلك المرحلة الأولى من مراحل العلاقة بين الانسان والطبيعة. مع التأكيد على الاعتماد فى هذا الاسترداد التاريخى على حقائق دينية وعلمية فى المقام الاول ، والبعد عن تصورات الكتاب الذين اعتمدوا على الاساطير والخرافات فى محاولاتهم لاعادة تصوير حياة الانسان الاول . فالواقع يؤكد ان الحياة الاولى جمعت الانسان مع الحيوان جنبا الى جنب، ولا نستطيع فى تلك المرحلة ان نفرق بين حياة الانسان والحيوان الا من حيث التكريم الذي خص الله سبحانه وتعالى به الانسان على ما عداه من سائر المخلوقات . قال تعالى : «ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر» [١] . ومن حيث التقويم فى الصورة والهيئة قال تعالى «ولقد خلقنا الانسان فى أحسن تقويم» إلى غير ذلك من الآيات الكريمة التى توضح تلك الفروق . ولا شك ان الانسان والحيوان عاشا على الطبيعة كل منهما يقلد الآخر فى طريقة حصوله على الغذاء وطريقة تناوله، ثم فى مقاومة الظروف الطبيعية أو حتى فى محاولة التكيف معها ، ومن ذلك التقليد مثلا ما فعله قابيل عندما أراد أن يدفن جثة أخيه هابيل مقلدا الغراب قال تعالى «فبعث الله غرابا يبحث فى الارض ليريه كيف يوارى سوءة أخيه» [٢] .

---

* عن كتاب المدخل لعلم الانسان للاستاذ الدكتور / عبدالله عبدالغنى غانم واخرون .

(١) سورة الاسراء ، آية رقم (٧٠)   (٢) سورة المائدة آية (٣١) .

غير ان الانسان الذى اختصه الله بالعقل والوعى والقدرة على فهم الامور استطاع ان يعدل فى مواقفه وسلوكه بما يتلائم مع حاجاته وبما يحقق له اقل قدر ممكن من الحياة التى تميزه عن الحيوان فعندما اكتشف الانسان ان الاغصان لا تحتمل وزنه ولا تضمن له عدم مهاجمة الحيوان له وافتراسه ، نزل عنها واستبدلها بالكهوف ، وعندما وجد ان الوحوش تهاجمه ليلا ونهارا بدأ يفكر فى ايجاد ما يحقق له الحماية ويضمن له البقاء فكانت العصى والسهام الرماح وسيلته الى ذلك . وعندما وجد ان أكل اللحوم بنفس الطريقة التى تأكلها بها الحيوانات لا تلائمه ، بدأ يستخدم النار من اجل اعداد الطعام ، وعندما وجد ان عورته مكشوفه وادرك ان فى ذلك اساءة له بدأ يسترها بأوراق الشجر ، وهكذا استطاع الانسان ان يميز نفسه عن الحيوان بطرق واساليب مختلفة ومتعددة .

ولم يأت ذلك بطبيعة الحال فى فترة وجيزة وانما ظل لانسان يطور نفسه عن طريق العقل حتى أصبح لا يمت للحيوان بصلة الا من نواح بيولوجية .

ولقد اعتمد الدارسون لثقافات المجتمعات الانسانية على الحفريات والآثار ليستخلصوا منها شواهد يعيدون بواسطتها تصوير حياة تلك المجتمعات وقد كان ذلك ممكنا الى درجة كبيرة بالنسبة للمجتمعات ذات الحضارات القديمة والتى توفرت عنها وثائق مادية تسهم فى أمكان اعادة تصوير الحياة الاجتماعية والثقافية. ولكن معظم المجتمعات الانسانية - وخاصة فى الفترات التاريخية البعيدة لم نتوفر عنها مثل تلك الوثائق ، ولذا لجأ أولئك الى الاعتماد على شواهد غير مباشرة لتحقيق ذلك الهدف . ومن تلك الشواهد : المصنوعات ، ولسنا هنا بصدد اثبات صحة تلك الوسيلة من عدمها . لكننا فقط نذكر بأنها الوسيلة الوحيدة التى يمكن بواسطتها اعطاء صورة أو صور متعددة عن حياة المجتمعات الانسانية عبر مراحل تاريخية مختلفة . ولا زلنا حتى الآن نسمع بالكشف عن آثار قديمة فى مناطق مختلفة من العالم ، ومن بينها المملكة العربية السعودية . ويعكف علماء الآثار والحفريات على دراستها

وتحديد تاريخها وبواسطتها يمكننا ان نتعرف على نمط الحياة فى تلك الفترة التاريخية .

ولم يتوان الانسان عن البحث والتنقيب والكشف والاختراع ، ذلك لان العقل المميز الواعى لم يتوقف عن التفكير والمتابعة وربط الاسباب بالمسببات، وعلى الرغم من تقدم الانسان الهائل فى مجالات مختلفة الا انه لم يحاول الكشف عن نفسه الا فى فترة متأخرة نسبيا ، ويبدو أنه انشغل بما حوله ونسى نفسه، لكنه عندما لاحظ المشكلات التى يعانى منها الانسان بصفة عامة . ادرك انه فى حاجة الى دراسة النفس الانسانية أو على الاصح «دراسة الانسان نفسه».

ولم يتوان الباحثون فى الفلسفة وعلم النفس عن تقديم الجهود التى لا نستطيع نكرانها ، وهم يحاولون الكشف عن كنه الانسان من أجل توفير الحياة المستقرة له والتى فى ظلها يستطيع الاستمرار والبقاء والعطاء من اجل الانسان فى كل مكان وزمان . ولكنهم ركزوا على جوانب وأهملوا أخرى أو أن علم النفس اعتمد فى منهجه وأسلوبه على الفرد وأهمل المجتمع مثلا . ولذا كان لابد من وجود علم يهتم بالفرد والمجتمع على حد سواد . ويدرس الانسان من كل الجوانب. فكان علم الانثروبولوجيا الذى حقق ذلك الهدف . أو هو اقرب الى تحقيقه . وان كان الانثروبولوجيون القدامى قد ركزوا اهتمامهم فى دراسة المجتمعات والثقافات البدائية واتخذوا من سكان استراليا الاصليين مجالا ونموذجا لدراستهم [1] ، فان المحدثين منهم وخاصة أولئك الذين يهتمون بالثقافات العديدة والمختلفة قد ركزوا كل اهتمامهم بالمجتمعات المعاصرة ، على اعتبار ان

---

(١) لمزيد من الايضاح انظر : لوسى ميـر . مقدمة فى الانثروبولوجيا العامة . ترجمة د. شاكر مصطفى سليم دائرة الشؤون الثقافية والنشر : الطبعة الرابعة : الطبعة الرابعة ١٩٨٣ ، الفشل الاول والثانى ، وانظر ايضا :
Broce, G. history of Anthropology Mennecpiolis U.S.A. 1973. p. 162.

الجانب الاكبر من الثقافات البدائية قد اختفى أو ابيد تقريبا كما هو الحال بالنسبة للهنود الامريكيين . أو لأن الثقافات البدائية قد تغيرت جذريا بسبب المد الحضارى الحديث ، وأصبح هؤلاء يهتمون بأساليب الحياة المختلفة فى المجتمعات الحديثة ، ومن ضمن تلك الاساليب نشأة الفرد ، وكيف يعيش مع الآخرين ؟ وكيف يفكر؟ وماذا يفعل؟ وماذا يحب وماذا يكره ؟ وما هو سلوكه الى غير ذلك من الأمور المرتبطة بحياة الانسان اليومية . وبما ان الامر كذلك فيبدو ان الانثروبولوجيين أخذوا تعريف هذا العلم مأخذ الجد ، ولم يحاولوا الخروج عليه فى الشكل والمضمون . فكلمة انثروبولوجى تتكون من كلمتين اغريقيتين دمجتا معا لتعنى (علم الانسان) فكلمة (Anthropos) معناها الانسان (Logos) معناها العلم فأصبحت كلمة (Anthropology) تعنى علم الانسان او دراسة الانسان . ومن هنا انطلق الباحثون فى دراسة المجتمع الانسانى بالتركيز على الانسان فى كل مكان .. وفي حين لا يزال الالتباس قائما لدى الكثيرين الا ان الرؤية واضحة لدى الانثروبولوجيين فهم يعرفون كيف يبدأون ... دراساتهم وما هى المناهج المناسبة التى يستخدمونها ، وما الموضوعات التى يمكن ان يولوها عنايتهم واهتماماتهم والتى يرون أنها تفتح الافاق أمامهم للدراسة والبحث العلمى الجاد . ولم تعد الانثروبولوجيا ذلك المفهوم السائد لدى البعض - خاصة بدراسة المجتمعات البدائية - أو بدراسة وحدات اجتماعية محددة . أو ينحصر اهتمامها بالوصف او المقارنة وحدها بل تجاوزت ذلك الى ما هو اشمل وأعم فأصبحت اليوم تشمل المدينة والقرية جنبا الى جنب . ولم ينشأ ذلك من فراغ او بمحض الصدفة أو المقارنة وحدها بل تجاوزت ذلك الى ما هو اشمل وأعم فأصبحت اليوم تشمل المدينة والقرية جنبا الى جنب . ولم ينشأ ذلك من فراغ او بمحض الصدفة وانما اعتمد على اساس منطقى ومنهجى ظل الرواد فى هذا الميدان يسعون لتطويره وتوسيع دائرته بما يتناسب مع طموحاتهم واهدافهم التى تنحصر فى خدمة قضايا ومشكلات الانسانية عن طريق معرفة الارتباط والتداخل بين قضايا المجتمع

وظواهره ثم تقديم صورة كاملة عن هذا وذاك ثم تقديم الاراء والمقترحات التى يمكن ان تسهم بفعالية فى علاج المشكلات الاجتماعية ورسم السياسة الاجتماعية المثلي .

نشأة الانثوبولوجيا :

لا أحد يستطيع أن يقول ان دراسة الانسان وثقافته حكرا على العصر الحديث ، بل يمكن القول وبموضوعية انه لم يخل تاريخ الانسان من اهتمامات مختلفة بدراسة الانسان والثقافة فى الماضي ، بصرف النشر عن نوعية الانسان والثقافة ، ولقد كان الاهتمام بمثل ذلك فى العصور الماضية يتمثل فى اهتمام أولئك بالاساطير والحكايات ذات العلاقة بالدين ، ومن ضمن تلك الشواهد اساطير خلق الانسان ، أو محاولات الانسان البدائى فى تحقيق بعض الانجازات الثقافية كاكتشاف النار مثلا ، أو انتاج بعض الادوات التى تساعد فى الصيد أو اعداد الطعام وانتاجه . الى غير ذلك من الامور التى تبرز بعض الاهتمامات بالانسان والثقافة .

أما بعض الشعوب القديمة التى ساد فيها التعليم والتي يطلق عليها (الشعوب المتعلمة) فقد قدمت لنا تراثا شعبيا يتمثل فى قصص الاغريق واساطيرهم عن اصل النار وأصل الزراعة ، ومن أبرز المفكرين الاغريق «هيرودوت» الذى عاش فى القرن الخامس قبل الميلاد حيث قدم بعض الفروض حول «لغة الانسان» [١] . وتمثل مؤلفات «هيرودوت» .. بالاضافة الى ما تبعها من مؤلفات قديمة المحاولات الاولية التى تختص بدراسة الانسان والثقافة من حيث الشكل على الاقل.

---

(١) رالف بيلز وهارى هويجر ، مقدمة فى الانثروبولوجيا العامة ، «الجزء الاول» ترجمة / محمد الجورى والسيد الحسين - دار نهضة مصر للطبع والنشر ، القاهرة ، ١٩٧٦ ، ص ٢٧.

ومنذ القرن الخامس عشر الميلادى - وهو عصر الاكتشافات الكبرى بدأت تتراكم كميات كبيرة من المعلومات عن الانسان ، وتجمع ذلك الكم عن طريق الرحالة والمبشرين والجنود والتجار ، وامتزج فى ذلك الكم القليل من الحقائق والكثير من الحكايات، مما يمكن القول معه بأن ثقافة الانسان تعرضت لكثير من التشويه والتحريف تبعا لتأثر الرواه بميولهم الثقافية ، بحيث ينظر كل منهم الى ثقافات الشعوب الاخرى من منظار ثقافة مجتمعه ويتعصب لها ، وعلى الرغم من ذلك فان المادة التى جمعت خلال تلك الفترة اعتبرت الركيزة الاولى التى نهض عليها علم الانثوبولوجيا الحديث .

وخلال النصف الاول من القرن التاسع عشر ، بدأ عدد من الدارسين يعكفون على دراسة البقايا العظيمة التى عثر عليها فى عدد من. الجهات فى اوروبا ، معتمدين في ذلك على التقدم الذى احرزته الدراسات الجيولوجية وعلم الآثار والحفريات ، وكان لتلك الدراسات الفضل فى تحديد «عمر الارض» والتى رجحت ان الحياة على الارض تعود الى فترات تاريخية ابعد من تلك التى تصورها القدماء ، وقد كان «بوشيه دى بيرت» الفرنسى أول من قال بوجود الانسان فى أوربا منذ العصر الجليدى حيث عثر فى عام ١٨٣٠م على ادوات حجرية فى وادى سوم ، وعكف على دراستها ونشر نتائجها فى الفترة بين عام ١٨٤٧/١٨٦٤م . وفى عام ١٨٦٥م نشر «جون لوك» دراسة أوضح فيها ولأول مرة الفرق بين ثقافة الانسان فى العصر الحجرى القديم وثقافته فى العصر الحجرى الحديث وفى المانيا وخلال نفس العام ١٨٦٥م اكتشفت بعض البقايا العظمية للانسان الى جانب بعض من عناصر الثقافة المادية ، وكانت اول دليل مباشر على وجد الانسان القديم فى المانيا وهو ما عرف باسم انسان «نياندرتال» نسبة الى القرية التى عثر عليها فيها .. وقد أكدت تلك الاكتشافات الثقافية والعظيمة

(١) رالف بيلز وهارى هويجر . مقدمة فى الانثروبولوجيا العامة ، مرجع سابق ص ٢٨ .

وجود الانسان فى أوروبا منذ عصر سحيق ، وكانت ايضا بمثابة ركيزة اخرى نحو قيام علم الانسان الحديث .

وقد أدى التراكم التدريجى للمعلومات عن الانسان وثقافته الى نتيجتين :

(١) بذل جهود علمية لتصنيف الانسان ، وتحديد موقعه فى المملكة الحيوانية وتحديد سلالته وبيان تاريخ تطوره .

(٢) قيام علم مقارن لدراسة الثقافة الانسانية .

وفى الفترة ما بين عام ١٨٦٥/ ١٨٩٠م تطور مجال الدراسات المقارنة.. للثقافات نتيجة زيادة المعلومات عن مختلف شعوب الارض ونتيجة لتطور علم الآثار الذى ساهم فى تطور علم الانسان ، وكان من ابرز علماء تلك الفترة «ادوارد تايلور» الذى نشر مؤلفه الهام فى هذا المجال «الثقافة البدائية» عام ١٨٧١م فى بريطانيا . ثم «لويس مورجان» الذى نشر كتابه بعنوان «المجتمع القديم» عام ١٨٧٧م فى الولايات المتحدة الامريكية . وتلاهما كل من «هنرى مين» و «باخوفين» الاول فى بريطانيا والثانى فى المانيا حيث كتبا عن تطور النظم السياسية والقانون . ويبدو ان الهدف الذى سعى اليه هؤلاء وغيرهم من علماء القرن التاسع عشر فى مؤلفاتهم ودراساتهم ينحصر فى محاولة اكتشاف القوانين السيكولوجية التى ينطوى عليها التاريخ البشرى والتى تحدد مساره كما هو واضح من كتاب Tylor الثقافة البدائية وكتاب Morgan المجتمع القديم.

ومع مطلع القرن العشرين بدأت تتضح ملامح الدراسات الانثروبولوجية الحديثة الفيزيقية والثقافية على السواء ، حيث اصبحت الانثروبولوجيا تخصصا اكاديميا معترفا به واصبحت مادتها تجمع عن طريق الباحثين المدربين ميدانيا وقد اتسع ميدان الانثروبولوجيا اتساعا كبيرا واسهمت اسهاما بارزا في اثراء العلوم الاجتماعية بصفة عامة ، ويمكن تلخيص هذا الاسهام فى القول بأنها اسهمت فى

توضيح مفهوم السلالة أو العنصر مما كان يسوده من خلط بين مفهوم اللغة والقومية والثقافة فى الماضي ، كما أوضحت مفهوم الثقافة الذى أصبح اليوم محور الفكر المعاصر [١] .

ويمكن القول بأ الانثروبولوجيا لم تبدأ فى معناها الحقيقى الا فى منتصف القرن التاسع عشر مرتبط بالحركة الاستعمارية ، وخاصة الاستعمار البريطانى حيث بدأ الباحثون الانثروبولوجيون بدراسة الشعوب المستعمرة للتعرف على طبائعها وخصائصها والاستفادة من نتائج تلك الدراسات أما فى احكام السيطرة الاستعمارية عليها بمعرفة موطن ضعف المجتمع ثم رسم سياسة التعامل معه واما فى تعديل بعض الاوضاع لتصبح ملائمة لطبائع الشعوب وبالتالى استمرار الاستعمار ، ويبدو أن الفضل فى اتساع الامبراطورية البريطانية يعود ولو فى جزء محدود الى البحوث والدراسات الانثروبولوجية بطريقة أو بأخرى .

مجالات الانثروبولوجيا :

بدأت المحاولات الفعلية للاستفادة من الانثروبولوجيا بعد الحرب العالمية الأولي حيث ارتبط اول استخدام عملى لها ، «ادارة شئون المستعمرات» حيث نجد ادارات للمستعمرات البريطانية والفرنسية والهولندية ، تستخدم وعلى نطاق واسع الدراسات الانثروبولوجيا كما استخدمت الحكومة الامريكية هذا النوع من الدراسات فيما يتعلق بتقديم الخدمات المطلوبة للهنود الحمر وكذا فى المناطق التابعة لها فى المحيط الهادى ، وذلك وفقا لخصائص وثقافة تلك المجتمعات . وفى الوقت الحاضر نجد ان نتائج الدراسات الانثروبولوجية بدأت تفيد فى مجالات أخري كالصناعة وخاصة العلاقة بين الادارة والعمال ، وفى مجالات

---

(١) انظر فى ذلك :

Pelto, P. Anthroopological ressarch, New York 1970, p. 18.

العمل المختلفة ، كما انها مفيدة الى درجة كبيرة فى مشروعات الاسكان والتوطين وكذا تنمية المجتمع المحلى والتنمية الاقتصادية . كما انه يمكن الاستفادة من اساتذة الانثروبولوجيا والباحثين فى دراسة جوانب مختلفة كالمشروعات الصحية ، وعمليات التكيف فى المجتمعات التى تتجه نحو التصنيع وخاصة تلك المجتمعات التى تعمد على عمالة بدوية وريفية .

.. وعلى الرغم من اتساع النطاق التطبيقى للانثروبولوجيا - وهو ما حاولنا اختصاره هنا - الا أن أغلب المتخصصين فيها لا يزالون يقتصرون على عملهم الاكاديمى فى الجامعات او فى معاهد البحوث اذ لا يجدون لهم أماكن فى مجالات العمل الوظيفى الا نادرا لاعتقاد البعض ان الانثروبولوجيين لا يستطيعون القيام بأعمال الوظائف العامة نتيجة لان المفهوم التقليدى للانثروبولوجيا لا يزال غامضا فى اذهان الكثير من الناس علي الرغم من التطور الهائل الذى شهدته الانثروبولوجيا من حيث المنهج والتطبيق والمجال فى الآونة الأخيرة والذى يجعل المتخصصين فى هذا العلم ذوى كفاءة جيدة فى القيام بأعمال ووظائف مختلفة .

علاقتها بالعلوم الاخري :

ولا أحد يستطيع ان يدعى ان الانثروبولوجيا هى العلم الوحيد الذى يدرس (الانسان) فعلم الاجتماع وعلم النفس والبيولوجيا ايضا علوم تهتم بدراسة الانسان، ولكن وجه الاختلاف بين هذه وتلك يكمن في ان الانثروبولوجيين خطوا خطوات ابعد من تلك التى تتضح فى علم الاجتماع او علم النفس مثلا . وهى انهم فى دراسة الانسان يتعاملون معه كعنصر ثقافى حى) ومن خلال نظرة شاملة فالانثروبولوجيا تبحث دائما أصل السلوك الانسانى الشامل دون التركيز على السلوك الفردى . هذا بالاضافة الى تميزها بالمنهج والادوات . وفى الوقت الذى يبحث علم

الاجتمـــاع عن العموميات او يعتنى بدراسة العموميـــات Generaiceation نجد ان الانثروبولوجيا تعتنى بحالات Particular Case ومن ناحيـــة ثانيـة فانــــه يمكن القـول بأنه ان كـــان علـــم النفس يدرس الجـوانب الداخليـــة للانســان كـالشعور ويدرس علم الاقـتصـاد مـا يمكـن تسـميتـه (بالسلوك الاقـتصـادي) ويدرس علـــم الاجـتمـاع السلوك الانسانى فى المجتمع ، وتدرس البيـولوجيـا وظائف الاعـضـاء ، ويدرس علم السياسة الانشطة ذات الطابع السياسى ، الا ان هذه العلوم تنطلق من تعميم علي أساس ما سميتـه بوحدة الطبيعة الانسانية Uman Unity لكن هذه الطبيعة الانسانية التى كانت الاساس فى تقنيات عديدة فى العلوم المختلفة المرتبطة بالانسـان وسلوكه ، هى فى الحقيـقة شيء غامض . فنحن لا نعرف أنفسنا حق المعرفـة ، لكننا نتحدث عن شيء اسمه الطبيعة الانسانية ونؤكد عليها بما نذهب اليه من تعميمات عن سلوك الانسان . ولعل ذلك له عـلاقة بالحقيـقـة التى تقـــول بوجـــوب عـموميـــة النظريـــة ، وضرورة اختبارها علـى مسـتويات اجتمـاعيـة مختلفة حتى تكتسب المزيد من التأييد والثابـــت . وبذلك يمكـــن ان نقول بأ الانثروبولوجيـــا يمكن ان تسهـم فى علوم جديدة بما يمكن ان تقدمه فى مستويات مختلفة اجتماعية وثقافية وجغرافية ايضا عـــن (طبيعة الانسان).

كما ان هناك جوانب تغفلها معظم العلوم والتى ترتبط بتخصصاتها وفى نفس الوقت لا تشكل زءا فى دراستها ، فمثلا الطب العلاجى ، لا يعير الطب الشعبى اهتماما ، ولا يعطى للسحر وأساليبه أية أهمية ، كما ان علم النفس لا يقدم تفسيرا واضحا عندما يسقط الفرد مريضا ويعتقد انه تعرض لعملية السحر، فى حين أن ذلك يعتبر طرفه يضحك منها البعض . كما ان دارسي القانون يهتمون فى دراساتهم بالقوانين المرتبطة بحياة المجتمع ويسعون للمحافظة على النظام ومقاومة الجريمة ، ولكنهم لا يقدمون لنا تفسير عندما تتحول الجريمة نفسها الى هيكل نظامى له قوانينه الخاصة . ولكن الانثروبولوجيا وحدها تعتنى

بذلك كله ، ولذا فانها تحتل موقعا وسطا بين مختلف العلوم ، فهى بالاضافة الى تخصصها فانها تتناول الجوانب التى تغفلها معظم العلوم المتخصصة . وهى ايضا تمد الباحثين في الفروع المختلفة بالكثير من الحقائق التى يمكن ان تكون اساسا للمقارنة وموضعا لاختبار صحة وعمومية ما يتوصلون اليه من قوانين [1].

والنظرة الشمولية هى ميزة خاصة للانثروبولوجيا عن غيرها من العلوم التى تعنى بدراسة الانسان . وهى مرتبطة بالمنظور الوظيفى فى الدراسات الانثروبولوجية الذى يرتكز على الاعتماد المتبادل بين الظواهر الاجتماعية وينظر الى المجتمع كوحدة تتكامل داخلها الاجزاء والتى تتبادل التأثير فيما بينها ، فاذا كان الاقتصاد يمكن ان يدرس على حدة عملية الانتاج او عملية التوزيع، فان الانروبولوجى يتناول نفس الموضوع بالدراسة ولكن ليس على أساس ان عملية الانتاج عملية جزئية فى نظام اكبر هو النظام الاقتصادى بعملياته المختلفة من انتاج واستهلاك وتوزيع تبادل وغيرها فقط ، ولكنه يربط بين تلك العملية والمجتمع بنظمه المختلفة كالنظام السياسى والاقتصادى والقرابى وغيرها على أساس ان هناك تأثيرات متبادلة بين هذه النظم وعملية الانتاج . ومعني ذلك ان الانثروبولوجيا عندما تدرس أى نشاط انسانى أنها تسلك اتجاها مختلفا عن غيرها من العلوم ، أذ ان لها مفهومها المحدد الذى مؤداه : أنه لا يمكن فهم سلوك أو ظاهرة فهما صحيحا بعيدا عن الكل الذى يتضمن ذلك السلوك أو الظاهرة . وعلى هذا فان الانثروبولوجيا تقدم تفسيرا متكاملا للسلوك و الظاهرة، وتستعين من أجل ذلك بكثير من التخصصات التى لا تنتمى اليها ، حيث تلاحظ ان الباحث الانثروبولوجى يستعين فى سبيل تحقيق هذا الهدف ببيانات من علوم أخرى كعلم النفس والاقتصاد والفسيولوجيا والايكولوجيا

---

(١) انظر الفصل السادس عشر الانثروبولوجيا التطبيقية من كتاب (لوسى مير) ص ٣١٧ وما بعدها ، مرجع سابق .

وغيرها من العلوم الاخرى . كما ان المنهج وطيرقة الدراسة وادواتها تعتبر من أهم ما يميز الانثروبولوجيا عن غيرها من العلوم . فالدراسات الانثروبولوجية بطريقة خاصة فى البحث الذى يميزها بلا جدال عن غيرها من التخصصات والفروع الاخرى بما فى ذلك علم الاجتماع الذى يقترب منها كثيرا بالمقارنة بغيره من الفروع وهذه الطرق ترتكز أساسا علي البحث الحقلى .

وكذلك استخدام المنهج المقارن ، فاذا كانت العلوم الطبيعية يتوافر لها امكانية اعادة التجربة العملية ويتوافر لها امكانية اعادة التجربة ، والحصول على الظروف المناسبة لها معمليا . فأن الانثروبولوجيين قد ابتدعوا الطرق الحقلية لتحل محل التجارب المعملية اذا جاز هذا التعبير .

فعندما يريد الباحث الانثروبولوجى بحث نظرية معينة فانه يبحث عن بعض المجتمعات التى تتوفر فيها العوامل اللازمة لاختيار هذه النظرية كما يستعين الباحث الانثروبولوجى فى نفس الوقت بالكتابات السابقة فى هذا الموضوع وما تم التوصل اليه وهنا فان الباحث الانثروبولوجى يلتزم طرقا معينة فى البحث تقتضى الاقامة بمنطقة البحث واستخدام الملاحظة بالمشاركة .

واذا كنا قد اشرنا الى اهتمام الانثروبوولجيا بتسجيل التشابه والاختلاف وقلنا نها تمد العلوم المختلفة بمعيار لاختبار نظرياتها من خلال ما تصل اليه من قوانين ومع ما توفره من بيانات ومعلومات .

ولذلك فان الانثروبولوجين عمدوا الى دراسة ومقارنة الظاهرة فى اكبر عدد ممكن من المجتمعات البشرية سواء المجتمعات القديمة او الحديثة ثم قارنوا بين ما توصلوا اليه من حقائق من خلال هذه الدراسات عندما ارادوا التوصل الى خصائص الجنس البشرى الفزيقية ، وهذا هو ما يفعله دارسو الثقافة ايضا فى محاولتهم التعرف على سمات السلوك الانسانى .

اقسام الانثروبولوجيا وفروعها :

وكما لاحظنا فى السابق من تنوع الاهداف والمجالات لعلم الانثروبولوجيا حيث انه علم متميز بين العلوم الانسانية يمكن ان تستخدم نتائج دراساته وابحاثه فى ايجاد الحلول لكثير من قضايا المجتمع ومشكلاته ، كما يمكن ان تساهم تلك النتائج في تنمية المجتمع وتطويره عن طريق الاستفادة منها فى رسم السياسة الاجتماعية بصفة عامة ، وجدير بعلم يمتلك تلك الصفات المميزة ان تتعد فروعه واقسامه تبعا للحاجة اليها فى مجالات مختلفة ، ونظرا لما للانثروبولوجيا من أهمية فقد اتجهت الجامعات الكبرى فى كل من بريطانيا واوربا وكذا الولايات المتحدة الامريكية ومصر الى انشاء اقسام متخصصة فى الانثروبولوجيا ووفرت لها كل الامكانات المطلوبة المادية والبشرية التى تؤهلها للقيام بالمهام التى أسست من أجلها .. ومن خلال التطور الذى شهدته وتعدد المجالات التى أشرنا اليها فأنه يمكن القول بأن هناك اتفاقا على تقسيم الانثروبولوجيا فى الوقت الحاضر الى قسمين رئيسيين هما :

(١) الانثروبولوجيا الثقافية والاجتماعية .

(٢) الانثروبولوجيا الفزيقية .

ويتدرج تحت كل فرع من هذين الفرعين الكبيرين الكثير من الفروع الاخرى ذات الصبغة المحددة والتخصصات الدقيقة ، وحيث ان الكتاب الثانى من هذه السلسلة سيخصص بكامله لموضوع الانثروبولوجيا الثقافية والاجتماعية مع الاشارة بتوسع محدود الى الفرع الثانى ، على أمل ان يخصص لهذا الفرع فى المستقبل القريب كتابا ثالثا . لذا فانه يمكن عرض الاقسام والفروع هنا بطريقة مختصرة تفيد المبتدئين فى الدراسات الانثروبولوجيا وتفتح لهم الطريق نحو المزيد من القراءات والاطلاع فى هذا المجال الحيوى الهام .. وطالما ان هدف هذا الكتاب كذلك فأنه يمكن ان نعرض للقسم الاول على النحو التالى :

الانثروبولوجيا الثقافية والاجتماعية هى التى تهتم بصفة اساسية بدراسة تاريخ واصول الثقافات والمجتمعات الانسانية من حيث نموها وتطورها ، كما تدرس البناء الثقافى للمجتمعات وادائه الوظيفى فى كل مكان وزمان حيث ان الانثروبولوجيا الثقافية تهتم بالثقافة ذاتها فى الماضى والحاضر وم خلال الثقافة يستطيع الانثروبولوجيون الكشف عن التأثير المتبادل بين البيئة الطبيعية والانسان من خلال تفاعلات المجتمعات مع بعضها البعض . ومن خلال محاولات الناس الحياة والعمل فى آن واحد . ويمكن ان تكون دراسة الانثروبولوجيا الثقافية والاجتماعية ذات جانبين [1]:

الأول ك الدراسة المتزامنة أى دراسة المجتمعات والثقافات عند نقطة معينة من تاريخها ، والثانى : الدراسة التتبعية والتاريخية أى دراسة المجتمعات والثقافات عبر التاريخ . وعلم الاثار هو العلم الذى يضطلع بالقيام بهذا النوع من الدراسات من خلال تركيزه على الثقافات والمجتمعات القديمة وكذا بدايات الحضارة الحديثة . حيث يحاول علماء الاثار اعادة رسم صورة الاشكال الثقافية القديمة قم تتبع نموها وتطورها عبر الزمان [2] . ولا يغيب عن الذيهن ان الجانب الكبير من معرفتنا عن تاريخ المجتمعات القديمة يعتمد على تلك الوثائق التى كتبها افراد عاصروا احداث تاريخية وكتبوا عنها . ومن خلال تلك الاحداث التاريخية .. يمكن ترتيبها حسب السياق التاريخى ، ثم ربطها ببعض للتعرف على طبيعة المجتمعات التى كتبت عنها تلك الوثائق . كما يمكن لعالم الاثار اعادة رسم صورة الثقافات القديمة مستعينا بالاثار المادية الى جانب الوثائق التاريخية ، فقد يعثر عالم الاثار على بعض الكهوف والملاجىء أو على بعض

(1) Emestne, Fried: Vasilika Avillage in madern Greece. by Rinchart and winston. In. New York. 1982, pp/ 21 - 80.

(٢) رالف بلنز . مقدمة فى الانثروبولوجيا العامة ، مرجع سابق .

الادوات والاسلحة للانسان القديم ، أو على بعض الرسوم او النقوش أو على اطلال المنازل والمعابد ، ومن. خلال كل ذلك يتمكن من وصف جوانب الثقافة القديمة وربطها بالبيئة الطبيعية لذلك الانسان ، ولا شك ان السابق التاريخى الذى عن طريقه يعيد عالم الاثار رسم صور الثقافات القديمة - غير المكتوبة - لا يرقى الى نفس الدرجة من التى نستطيع الوصول اليها من خلال دراسة آثار الشعوب والمجتمعات المتعلمة التى تركت لنا اثارها وتاريخها مكتوبا. ومن خلال ما تقدم يمكن ان نعرف اين ومتى ظهرت الثقافة لاول مرة . كما نتوصل الى قدر من المعرفة بتطور الثقافات البشرية ، ومن خلال ذلك يمكننا من معرفة تعاقب الانماط الثقافية المختلفة مثل مجتمعات الالتقاط فالصيد فالمجتمعات الزراعية. كما امكننا ان نعرف ان تطور الثقافة لم يسر على نمط واحد أو بسرعة واحدة فى كل المجتمعات الانسانية ، فعلى الرغم من ان جميع الثقافات التى نعلمها الان قد تعرضت لتغيرات هائلة منذ ظهور الانسان البدائى منذ نحو (مليون سنة) الا ان هذه التغيرات كانت تسير بخطوات سريعة عند بعض المجمعات فى حين لم تكن كذلك لدى مجتمعات أخرى .

وعندما يقدم لنا علم الآثار كل ذلك فان مهمته تنتهى حيث تبدأ مهمة الانثولوجيا Ethnology وهى ذلك الفرع الذى يهتم بتصنيف الناس على اساس خصائصهم الثقافية والسلامية الى جانب الاهتمام بتحركات الفارد ، وانتشار السمات الثقافية ، ثم الدراسة المقارنة لتلك الثقافات وبحث المشكلات النظرية التى يمكن ان تنشأ من خلال تحليل العادات الانسانية وعلى هذا الاساس فان الاثنولوجيا تهتم بالثقافة نفسها دون البناء كما تهتم بالتفسير الى جانب الوصف [1] . وعلى ذلك فان الانثولوجى يهتم بدراسة ووصف الثقافة فى كل

---

(١) محمد عاطف غيث ، قاموس علم الاجتماع ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٩ ، ص ١٦٤ .

مكان من العالم ليس فى المجتمعات القديمة فقط بل حتى فى القرى والمدن الحديثة، ويجب ان ندرك ان ثقافة الانسان تختلف من مجتمع لآخر بنفس الاختلاف بين فترة تاريخية وأخرى . فلكل مجتمع او لكل منطقة ثقافة خاصة بها فعادات اوروبا مثلا تختلف عن عادات شعوب آسيا ، وكذلا تختلف عادات شعوب افريقيا عن عادات امريكا وهكذا ... وتهتم الانثولوجيا اهتماما كبيرا بتفسير أوجه التشابه والاختلاف بين الثقافات الانسانية .

وقد يتناول الباحث ذلك تاريخيا فيحاول ان يلتمس فى تاريخ شعب معين وخاصة فى حالة اتصاله او عدم اتصاله بشعوب اخرى . اسباب أوجه التشابه والاختلاف ، وقد يعمد الى المقارنة المنهجية المنظمة بين الثقافات رغبة فى الوصول الى تحديد بناء تلك الثقافات وكيفية ادائها لوظائفها .

وقد تقوده تلك الدراسات الى تفسير لاوجه التشابه الواسعة الانتشار والى أوجه الاختلاف النوعية ، وكذلك فأن الدراسات المسحية المقارنة للثقافات الانسانية ماضيها وحاضرها تساعد على تفسير العمليات التى تغيرت بموجبها الحضارات البشرية فى الشكل ، وكذلك القيام بتحليل لبناء المجتمعات البشرية وادائها لوظايفها .

وان كل مثل هذا النوع من الدراسات يتدرج تحت الانثروبولوجيا الاجتماعية وليس الثقافية [1] .

ويمكن ان نجيب على هذا التساؤل بالقول : أول من استخدم مصطلح الانثروبولوجيا الاجتماعيه هو «جيمس فريزر» فى محضرة القاها فى جامعة «ليفربول» فى مايو عام ١٩٠٨ ، وهو بهذا ميزها عن المفهوم القديم الاثنولوجيا Ethrology وكان عنوان محاضرته مجال الانثروبولوجيا الاجتماعية The Scope of Social Anthropology .

(١) رالف بيلز . مقدمة فى الانثروبولوجيا العامة مرجع سابق ص ٢٤

حيث حدد «فريزر» مجال دراسة الانثروبولوجيا الاجتماعية فى محاولة الكشف عن «القوانين العامة» التى تحكم الظواهر الاجتماعية بحيث تفسر ماضى الانسان وتجعل من الممكن تحديد ملامح مستقبله استنادا الى القوانين الاجتماعية العامة التى تنظم تاريخ الانسان ، ذلك ان الطبيعة البشرية تتسم بأنها واحدة وان اختلف الزمان والمكان .

ويرى «فريزر» أن الانثروبولوجيا الاجتماعية دراسة من نوع خاص . لانها دراسة تقوم على التجربة والفرض . تجربة حقلية تستند الى فروض نظرية موجهة وعلى المشاهدة العملية المظنمة » ولذا كانت الدراسة الحقلية Field work عبارة عن محاولة تطبيق المنهج الاستقرائي inductive Method وهو منهج فى اصله مرتبط بصلب مناهج العلوم الطبيعية [١] .

والدراسات الانثروبولوجية المعاصرة لم تعد تقتصر على المناهج التقليدية التى كان الاوائل يستخدمونها . بل يستخدم الباحثون الان مختلف المناهج التى تقوم على التجربة وتخضع للمشاهدة المباشرة . كما تتم دراسة النظم والانساق الاجتماعية استنادا الى الملاحظة والتحليل والمقارنة . وولعلهم فى ذلك يسيرون وفق تعريف «راد كليف براون» الذى عرف الانثروبولوجيا بأنها : «دراسة طبيعية المجتمع الانسانى دراسة منهجية منظمة تعتمد على مقارنة الاشكال المختلفة للمجتمعات الانسانية بالتركيز على الاشكال الاولية «المجتمع البدائى» [٢] .

ولكن ينبغى ان نكون على حذر من الوقوع فى الخطأ الشائع حول مفهوم معنى المجتمع البدائى ؛ فليس المقصود به المعنى «التاريخى» اذ أن النظم

---

(١) قبارى محمد اسماعيل ، الانثروبولوجيا العامة . منشأة المعارف ، الاسكندرية غير مبين سنة النشر ، ص ١٢ ، ص ١٣..

(٢) المرجع السابق ، ص ١٤ .

البدائية لا تعنى تلك المراحل الاولية . فليس من المنطق ان نقارن معنى البدائية المحلية والتى غالبا ما نقصد بها «التقليدية» بالبدائية التى كانت فى تاريخ الانسان الحضرى الذى انقرض منذ فجر التايخ ولعل هذا الخطأ الشائع مصدره ما نتج عن المذهب الداروينى والتيارات التطورية التى التحمت بالدراسات الانثروبولوجية . اذ قارن الدارسون بين الثقافة فى مجتمعات افريقية واسترالية وثقافة المجتمع الاوربى والامريكى . ولذا نظروا الى تلك الثقافة على انها «اشكال أثرية» وان تلك المجتمعات عبارة عن «متاحف» وتلك نظرة خاطئة حيث ان الانسان لاذى نطلق عليه اليوم صفة «البدائى» والذى يعيش فى مجتمعات مختلفة الان يمثل مرتبة عالية من التطور مقارنة بالانسان الحضرى القديم . كما ان للمجتمعات البدائية الحالية تاريخها وثقافتها التى ترجع الى الاف السنين .

ومنذ حوالى ربع قرن تقريبا بدأ علماء الانثروبولوجيا الاجتماعية يوجهون اهتماماتهم نحو دراسة الدور الذى يوديه الفرد فى المجتمع ونحو موضوع ارتباط نمو الشخصية بالتراث الثقافى فى محاولة للتوصل الى اجابات : ما هو دور الفرد فى بعض العمليات الثقافية؟ وما هى الوسائل التى تحاول المجتمعات الانسانية من خلالها تشكيل الشخصية الفردية؟ وما هى انواع السلوك المقبولة فى المجمع والمرفوضة وفقا للثقافة السائدة؟ وإلى أى مدى يمكن للفرد الابتعاد عن السلوك الثقافى المقبول وما الموقف ازاء ذلك ؟

ومن خلال هذه الدراسات استطعنا ان نتزود بمعلومات اكثر تحديدا عن عمليات نمو الثقافة واتساع نطاقها كما امكن التوصل الى نظريات تساعد فى فهم الشخصية من حيث طبيعتها ونموها . مما يساعد على التوصل الى طرق افضل لتعليم الصغار وانتهاج اساليب الضبط الاجتماعى الملائمة . وللانثروبولوجيا الاجتماعية مهمة تختص بدراستها وهى (السلوك الاجتماعى) الذى يتشكل على هيئة نظم اجتماعية كالاسرة والتنظيم السياسى والقرابى على انها تركز على العلاقة بين هذه النظم سواء فى المجتمعات المعاصرة أو القديمة أو

التى يتوفر لدينا منها معلومات تاريخية . ونظرا لاتساع نطاق الدور او المهمة كما ذكرت التى يختص بها هذا الفرع فقد قسمت مجالاتها الى فروع مستقلة سميت بمجال اهتمام كل منها مثل :

(١) الانثروبولوجيا الاقتصادية .

(٢) الانثروبولوجيا التطبيقية .

(٣) الانثروبولوجيا السيكلوجية.

(٤) الانثروبولوجيا الطبية .

(٥) انثروبولوجيا التنمية .

وقبل ان نشير الى بعض هذه الفروع بقدر ما نراه ضروريا للتعرف على الانثروبولوجيا وفروعها نود ان نلقى بعض الضوء على العلاقة بين الانثروبولوجيا الثقافية والاجتماعية .. فهناك من يعرف الانثروبولوجيا الثقافية بأنها «الفرع الذى يدرس الانسان ككائن ثقافى ينتمى الى نمط ثقافى خاص متميز» فهى اذن تركز على الصيغة الكلية للسمات الثقافية والعلاقة المتبادلة بين تلك السمات [1].

ويمكننا التعرف بسهولة على الفرق بين هذين الفرعين ، اذا علمنا ان منشأ الانثروبولوجيا الاجتماعية كان على يد الباحثين البرطيانيين ، الذين بدأوا فى اجراء الدراسات والبحوث - كما ذكرت سابقا - على بعض الاقطار التى كانت مستعمرة بهم وخاصة فى افريقيا حيث هناك المجتمعات من معايشة تلك المجتمعات الصغيرة ودراسة العلاقات الاجتماعية التى تسود فيها .

وكذا التعرف طبيعية النظم السائدة فيها ، كالسياسة والاجتماعية والقرابية وغيرها ، ولذا فقد ساد الاتجاه البنائى وكان الطابع المميز للدراسات والبحوث البريطانية .

---

(١) محمد عاطف غيث ، قاموس علم الاجتماع ، مرجع سابق ، ص ٩٩ .

فى حين ان الاتجاه الانثروبولوجى الثقافى كان الطابع المميز للدراسات والبحوث الانثروبولوجية فى امريكا وذلك لان مجتمعات قبائل الهنود الحمر فى امريكا كانت تنتشر على مساحات شاسعة فى السهول والبرارى الامريكية مما جعل دراسة تلك المجتمعات بنفس الطريقة في افريقيا امرا بالغ الصعوبة نتيجة الانتشار المكانى للهنود الحمر وعدم قدرة الباحث على الاحاطة بكل انماط العلاقات الاجتماعية هناك من جهة ولتداخل الثقافات بين تلك المجتمعات المتناثرة من جهة ثانية ، ولذا انصرف الباحثن عن دراسة العلاقات الاجتماعية. كما فعل البريطانيون واتجهوا نحو دراسة الثقافة المتمثلة فى اللغة والدين والعرف والعادات والتقاليد والجوانب المادية الثقافية للهنود الحمر . وهكذا نلاحظ ان الفصل بين النوعية نشأ لظروف طبيعية خلقت فوارق بين مناطق الدراسة وبالتالى حددت سير ومجال الدراسات نفسها ، ونشأ عن ذلك اثراء فروع هذا العلم بالكثير من البحوث ، والدراسات ذات الفاذدة على المستويين النظرى والعملى ، مما ساعد بشكل واضح على تقدم العلم بخطوات واسعة خلال فترة وجيزة [١] .

الانثروبولوجيا الاقتصادية :

علم الاقتصاد اهتم بدراسة العمليات الاقتصادية ، هذه العمليات تعنى من وجهة نظر بعض الاقتصاديين : توزيع الموارد النادرة على الاهداف المختلفة. بينما يرى البعض الاخر شمول التعريف ليضم الطاقة الانسانية ، والمهارات والمعرفة، أما الأهداف فهى تعنى كل ما يشبع الرغبة الانسانية .. اما الانثروبولوجيا فتهتم بدراسة بعض الظواهر التى يوليها عالم الاقتصاد اهتمامه ، اعنى بذلك انتاج السلع والخدمات وتوزيعها واستهلاكها فضلا عن ذلك فان عالم

---

(١) انظر : ايفانز برتشارد . الانثروبولوجيا الاجتماعية . ترجمة الدكتور احمد ابوزيد ١٩٦٥.

الانثروبولوجيا يهتم بدراسة العلاقة بين هذه النظم والانساق الفرعية من ناحية وبين الجوانب الاخرى للنسق الاجتماعى الثقافى الكلى من ناحية أخرى [1] .

ولقد ظلت العلاقة بين علم الاقتصاد والانثروبولوجيا موضوعا لجدل طويل ولا يزال هذا الجدل مستمرا حتى الان . فالنظرية الاقتصادية الصورية تطورت فى المجتمعات الغربية وقد استطاع الاقتصاديون تطوير نماذة استنباطية تتناول الظواهر الاقتصادية بفضل القدرة علي صياغة افتراضات حول المجتمع وطبيعة الانسان .. وتثير الانثروبوولوجيا الاقتصادية عددا من التساؤلات حول الافتراضات الاساسية فى النظرية الصورية الاقتصادية منها : الى أى مدى تتصف الافتراضات التى تدور حول السلوك الانسانى بالشمولية ؟ وهل تحتل البيانات المتعلقة بالمجتمعات غير الصناعية أهمية فى سبيل تطوير النظرية؟ والى أى حد يمكن ان تكون النظرية الاقتصادية الصورية ذات فائدة فى فهم اقتصاديات المجتمعات غير الصناعية ؟ الى غير ذلك من التساؤلات التى تطرح العديد من القضايا والتى تحتاج الى دراسة وتعميق فهم . ويميل بعض علماء الانثروبولوجيا الى القول بأن النظرية الاقتصادية لا تنطوى الا على القليل من الفاذءة التى يمكن ان تقدمها لعالم الانثروبولوجيا [2] . ويرى الانثروبولوجيون ان من بين الوظائف الاساسية للانثروبولوجيا الاقتصادية تقديم وصف لحالات اقتصادية خاصة ثم محاولة ربطها بالنظرية الاقتصادية التى لابد ان تشمل فى كثير من جوانبها الكثير من الانساق الاجتماعية . ثم دراسة الوسائل المختلفة التى يمكن من. خلالها ان تتوزع وظائف النسق الاقتصادى على النظم التى تختلف بوضوح عن تلك النظم التى تؤدى الوظائف فى المجتمعات الغربية مثلا وهكذا نلاحظ ان الانثروبولوجيا الاقتصادية يمكن ان تسهم اسهاما واضحا فى

---

(١) رالف نيلز : مقدمة فى الانثروبولوجيا ، ص ٤١٢ ، ٤١٣ .
(٢) المرجع السابق ، ص ٤١٢ ، ٤١٣ .

انارة الطريق امام النسق الاقتصادى طبقا لاحتياجات المجتمع بأختلاف الزمان والمكان والثقافة .

الانثروبولوجيا التطبيقية :

بعد ان كانت الانثروبولوجيا مرتبطة بالمجتمع البدائى والمجتمعات لاصغيرة فى أذهان الكثير ، استطاعت الانثروبولوجيا بفضل تطور مناهجها وادواتها فى الدراسة ان تتجاوز المجتمع البدائي والفردى لتصل بالدراسة والبحث الى مجتمع المدينة أو المجتمع الصناعى وعلى الرغم من آن فرع الانثروبولوجيا التطبيقية يعتبر حديثا الى حد ما . الا ان الدراسات التطبيقية التى أجريت فى افريقيا واستراليا مثلا وغيرها من المناطق تؤكد ما ذهبنا اليه ويكاد يرتبط هذا الفرع بدراسة شهيرة تمت في جامعة هارفارد بالولايات المتحدة الامريكية وهى دراسة تطبيقية فى مجال الصناعة ، وقد ركزت هذه الدراسة على بعض المشكلات المتعلقة بالانتاج وقياس مدى كفاءة المصنع فيما عرف باسم الانثروبولوجيا الصناعية Industrial Anthropology وهذا بالطبع يؤكد قدرة الانثروبولوجيا التى أشرنا اليها على الانتقال من الارتباط بالبدائية والمجتمعات المتخلفة الى دراسة الانساق الصناعية، ومن ثم البحث في مشكلات الصناعة والتصنيع وغيرها من المجالات ذات الارتباط المباشر بالانسان والمجتمع .

الانثروبولوجيا السيكلوجية :

هناك صلة وثيقة بين الانثروبولوجيا وعلم النفس فهناك دراسات مرتبطة بعلم النفس الاجتماعى Social Psychology والانثروبولوجيا السيكولوجية Psychological Anthropology تلك التى تدرس المظاهر السلوكية العامة للجنس البشرى حين يعيشون فى جماعة او طبقة أو مصنع ، ويدرس هذا الفرع الخصائص العقلية والسلوكية في مختلف الانماط الثقافية .

ويقـول : راد كليف براون فى هذا الخصـوص «عندمـا ندرس سـيكلوجـيـة الفرنسيين أو الالمان او الامريكان ، فأننا نقصد معالجة الخصائص العقلية والملامح السلوكيـة الناجمة عن شروط الحياة فى نسق اجتماعي معين بالذات» [1] ويتضح من هذا النص ان هذا الفرع يدرس سـيكلوجـيـة الجمـاعات وثقـافات الشـعوب ، ومـدى تأثيـر الظروف البيـئيـة العـامـة فى سلوك الانسـان . كمـا تدرس تقـاليـد وعـادات الشـعـوب ، نظرا لانعكاس ذلك على انماط الفـعل واشكال السلوك مستعينة بالاثار ومعتمدة على التاريخ الانسانى ، فى محاولة لاعادة تصوير حياة الانسان والمجتمع ظلت تنمو وتتطور حتى اصبحت علما متميزا من حيث النظرية والمنهج والموضوع والهدف ، فمن. حيث النظرية نجد ان التساؤل عن أصل الانسان والنظم الاجتماعية نتج عنه مـا يسمى بـ«المدرسة النشوئية» والسؤال عن تطورها تولى الاجابة عليه ما يعرف بـالمدرسة التطورية» أما مسألة انتشار تلك النظم فقد تولى البحث فيه ما عرف بـ«المدرسة الانتشارية» وأما دراسة وظائف الظواهر الاجتمـاعـيـة فى تعامل وحركة المجتمع وتفسيرها فهو من اختصاص «المدرسة الوظيفية» . هذا بالاضافة الى المدرسة الامريكية المعاصرة التى تهتم بالتحليل الوظيفى للبناء الثقافى الى جانب اهتمامها بالدراسة الايكلوجية الحضارية والتى تؤلفها العناصر التـاليـة . البيئة ، السكان ، التكنولوجيا ، التنظيم الاجتماعى ، والمناطق الحضارية .

ومن خلال تطور النظرية تطورت المناهج وتعددت ، ولا نستطيع الفصل بين النظرية والتطبيق ذلك أن تطور النظرية ارتبط بتطور المنهج والعكس ، بمعني ان هناك اثرا متبادلا بين كل منهما فهناك علاقة قوية بين منهج البحث وفلسفته. وبايجاز يمكن القول بأن كلا منهما صدر عن الاخر . ولم يمنع ذلك من تخصيص (فصل خاص) عن مناهج البحث الانثروبولوجي فى هذا الكتاب أما عن موضوع الانثروبولوجيا فهو الانسان والمجتمع ، ولم تقتصر الانثروبولوجيا على دراسة نسق معين فى المجتمع انما امتازت بالشمولية والمشاركة فى كثير تصصات العلوم الاخرى كما أسلفنا ، واما الهدف فهو خدمة قضايا المجتمع والساهمة الفعالة فى

تقديم الحلول للكثير من المشكلات فى المجتمع الانسانى والمساهمة فى رسم سياسة اجتماعية واقتصادية مفيدة للمجتمع بحيث يمكن من. خلال الاعتماد على نتائج الدراسات والبحوث الانثروبولوجية تجنب الكثير من المزالق والمحاذير خلال عمليات التنمية وتحديث المجتمعات . ويمكن القل ختاما لهذا الفصل بأن اركان هذا العلم راسخة الان تماما . مما يجعلنا اكثر تفاؤلا فى مستقبل تستطيع فيه الانثروبولوجيا ان تضطلع بدور اكثر اتساعا وشمولا فى خدمة الانسان فى كل زمان ومكان .

الفصل الثاني
طرق البحث السوسيوأنثروبولوجي
في دراسات المجتمعات البدوية*

* كتب هذا الفصل أ.د. محمد عبده محجوب – عميد كلية الآداب

الفصل الثاني
طرق البحث السوسيوأنثروبولوجي
في دراسة المجمعات البدوية *

من المعروف ان الانثروبولوجيا قد ارتبطت في البداية بدراسة الشعوب والمجتمعات والثقافات البدائية Primitive societies and cultures ، ولعل هذا الارتباط قد قام في جانب منه على أساس ان كلمة انثروبولوجيا تثير في الذهن معانى متعددة - وبخاصة فيما يتعلق بتطور الحياة العضوية فى مراحلها المتأخرة لدى القردة العلياAnthropoid apes بصورها فى الاسلاف الغابرة للنوع الانسانى ، كما قد تثير لدى البعض معانى تدور حول الشعائر الغريبة والخرافات التى تمارسها الشعوب المتوحشة Savage peoples فى المجتمعات الافريقية وغيرها .

كذلك فمن المعروف أن التعريف بهذه الكلمة «انثروبولوجيا» Anthropology يتمثل فى اشتقاقها الذى يعنى علم الانسان . والكلمة تشترك فى الاشتقاق مع كلمات اخرى تعنى علم تسلسل الانسان، أو الاشارة إلى مرتبة معينة من مراتب الحياة العضوية ، وتعنى مرتبة البشريات Anthropoids التى تشتمل الانسان والقرود معا ، وبالاضافة الى ذلك فهى تشترك مع كلمات تعنى : دراسة مقاييس الجسم الانسانى ، وتشبيه الانسان بالله ، والاشارة الى اكلة لحوم البشر Anthropophagey . ولعل فى هذا ما يفسر تلك الظلال الكثيرة التى تحيط بالكلمة حين يقصد بها معناها الفنى لعلم يعنى بدراسة الجوانب المتنوعة فى الانسان Man .

---

* كتب هذا الفصل أ.د. محمد عبده محجوب - عميد كلية الاداب

ويتمثل ارتباط الانثروبولوجيا – وبخاصة فى دراساتها الحقلية المبكرة بدراسة تلك المجتمعات البدائية أو المجتمعات المتوحشة مثلا فى كتابات مالينوفسكى . وهو من الكتاب الانثروبولوجيين الذين أعطوا لهذا الاسم صورته المعاصرة حيث يتكلم عن القانون والعرف في مجتمع الارجنوتس المتوحشCrsme and Cuiton in savage Society[1] كما يتمثل فى دراسات رادكليف براون Radcliffe - brown فى مجمع جزر الاندمان فى المنطقة الشمالية من المحيط الهندى[2] ودراسات ايفانزبريتشارد Evans-Pritchard, E.E, فى مجتمع النوير بالسودان الجنوبي [3].

وقد كانت هناك ضرورات تاريخية ومنهجية وتطبيقية دفعت الباحثين الى هذا الاهتمام بالمجتمعات البدائية أو المنعزلة ، ولا بد لنا من الاشارة هنا الى تلك الضرورات بايجاز لأنها تتصل اتصالا وثيقا بالاهتمام القائم بدراسة المجتمعات البدوية والريفية Rural Societies ، وبوجه عام فى التركيز على دراسة المجتمعات المحلية الصغيرة Little communities التى يمكن اعتبار المجتمع القروى بجزيرة فيلكا والجهراء فى الكويت ومجتمع اولاد على فى الساحل الشمالى بالصحراء الغربية المصرية – التى تستند اليها هذه الدراسات التى يضمها هذا الكتاب – نماذج متنوعة لها .

وقد كان هناك نوع من سوء الفهم الشائع لمصطلح المجتمع البدائى Primi-tive society كما يستخدم فى الكتابات الانثروبولوجية والسيوسيولوجية Socio-logical ، فكثيرا ما كان هناك خلط بين المعني الفنى الذى تشير اليه كلمة بدائى او مجتمع بدائى ، ومعانى التأخر او التوحش او الافتقار الى الحضارة والاساليب

---

(1) Malinowski, B; Argonsuts of the Western pacilic; London, 1992.
(2) Radcliffe - Brown, A.R: The Andaman Islanders; The Free Press, 1948.
(3) Evans Pritchard, E.E' The Nuer: O.U.P., Oxford, 1940.

المدنية الاخرى . ولكن الانثروبولوجيين يقصدون بهذه الكلمة الاشارة الى تلك المجتمعات الصغيرة سواء من ناحية عدد السكان او المساحة او تشعب العلاقات الاجتماعية ، والتى تمتاز ببساطة الفنون الآلية والاقتصاد ، وقلة التخصص فى الوظيفة الاجتماعية اذا قورنت بالمجتمعات المتقدمة . وهناك من. يحب أن يضيف الى ذلك مقاييس اخرى من أهمها : عدم وجود تراث مكتوب، وبالتالى عدم وجود أى فن أو علم لاهوت منهجى منظم [1] .

لا شك ان تلك الاوضاع الايكولوجية والسكانية والثقافية المستقرة فى تلك المجتمعات البدائية كانت تنعكس فى شكل النظم الاجتماعي-Social institutions بخاصة فى النسب القرابى Kinship system ونظم تقسيم العمل والميكنة ، رغم السلطة والزعامة والتقنين Codification التى تختلف كل الاختلاف ، تلك النظم ذاتها فى المجتمع الصناعى الحديث . فنجد مثلا انه فى حين تتحكم الظروف الايكولوجية الى حد كبير فى حياة المجتمع البدائى ، نجد من الناحية الاخرى ان التقدم التكنولوجى فى المجتمع الحديث Moderm society او المجتمع الصناعى Industrial Society يتيح مزيدا من. القدرة على اعادة ترتيب تلك

---

(١) انظر : ايفانز ريتشارد: الانثروبولوجيا الاجتماعية - ترجمة الدكتور احمد ابوزيد - منشأة المعارف - الاسكندرية - ١٩٥٨ ، ص ص ٢٦ - ٢٧.

- قبارى محمد اسماعيل : الانثروبولوجيا الوظيفية - دار الكتاب العربى - الاسكندرية - الطبعة الاولى - ١٩٦٨ ، ص ص ١ - ٢٥.

- محمد عبده محجوب : الانثروبولوجيا السياسية - مقدمه لدراسة النظم السياسية فى المجتمعات القبلية - نفس المرجع الذى سبقت الاشارة اليه .

Society, Routledge and Kegan , Paul, London,هوهفعس Lowie, R.H. Pr 5th impression, 1960.

Redfield, R., "The Folk Society, The American Journal of Socieology, Vol, LII, Jun. 1947, pp. 293 - 308.

---------------, Peasant Society and Culture: An Anthropological Approach to Civilization, Chicago, 1956, pp. 9 -10.

الظروف او تكييفها لتتلائم مع حاجاته ، وكذلك حيث يقوم تقسيم العمل في المجتمع البدائي على الاساس القبلي او العرقي او الديني ، نجده يقوم في المجتمع الصناعي على اساس القدرة الشخصية والكفاية المهنية في الدرجة الاولى لكن ابراز تلك السمات البنائية لا يعني بأية حال المصادرة على وضع تلك المجتمعات في مرتبة حضارية أو مرحلة تطورية معينة .

أما فيما يتعلق بتلك الضرورات التاريخية والمنهجية التي دفعت الباحثين الى الاهتمام بوجه خاص بدراسة تلك المجتمعات التقليدية Traditional Socie-ties إنها كانت مرتبطة بطبيعة مصادر المعلومات التي توفرت لدى هؤلاء الباحثين الاوائل ، وقامت على اساسها التحليلات التطورية التي عنيت بها تلك الدراسات الانثروبولوجية المبكرة ، وقد تمثلت تلك المصادر الى حد بغيد في كتابات الرحالة المبشرين ورجال الادارة في المستعمرات الاوربية في القارة الافريقية وغيرها من بلاد الشعوب الاسيوية والامريكية ، التي كانت تستويهم شعائرها وطقوسها وعاداتها الغريبة - المختلفة كل الاختلاف عن شعائر وطقوس وعادات وتقاليد الرجل الابيض والثقافة الاوربية بصفة خاصة ، ولم تكن تتوفر لدى هؤلاء الباحثين الانثروبولوجيين الاوائل اية دراسات او مادة اثنوجرافية Eth-nograpgic حول الجماعات القروية Villages او الجماعات الحضرية urban com-munities أو الصناعية التي كانت قائمة في اواخر القرن التاسع عشر واوائل القرن الحالي .

كذلك فقد ساعد على تركيز الاهتمام بتلك المجتمعات البدائية أو المنعزلة من ناحية اخرى رغبة الباحثين الحقليين في تطبيق المنهج البنائي - الوظيفي Structural - Functional method في تحليلاتهم النظرية ، وهذا المنهج يعتمد علي النظرة التكاملية الشاملة في دراسة المجتمع . وهو يفرض على الباحث الذي يتوفر على دراسة نظام اجتماعي معين او مشكلة معينة في المجتمع ان يأخذ في اعتباره كل تلك العلاقات المعقدة التي تربط بين هذا النظام او تلك

المشكلة ، وبين النظم او الجوانب الاخرى فى نفس المجتمع ، فمثلا عند دراستنا النظام السياسى فى مجتمع قبلى معين ، يجب ان نقوم بالضرورة الى جانب دراسة نظام السلطة والرئاسة او الزعامة والقانون العرفى - بدراسات فى جوانب اخرى فى هذا المجتمع مثل : العلاقات القرابية Kinship relation وبخاصة فيما يتعلق بأسس الوراثة Inheritance ونظام السلطة Authority فى العائلة ، وأسس تفاوت الفئات الاجتماعية Social stratification التى تنتمى اليها الوحدات القرابية والعرقية Ethnic units والمهنية ، وكذلك نظام الانضمام والانشقاق Fission and Fusion التى بمقتضاها تستطيع الوحدة القبلية الانقسامية ان تكتسب او تخسر اعضاء عاملين فيها - يلتزمون بالواجبات السياسية والاقتصادية باعتبارهم اشخاصا «اعضاء» في جماعة قرابية واحدة ، كما يجب على هذا الباحث ان يقوم بدراسات اخرى فى جوانب النظام الاقتصادى - بقصد معرفة الدور الذى يلعبه العرف القبلى فى تقنين المناشط الاقتصادية ، وهذا كله الى جانب التعرف على ملامح النظام الاقليمى الذى يكون بمثابة اطار محدد لمدى الوحدة السياسية فى المجتمع . ولعل نسق الضبط المجتمعى Societal Control System فى تلك المجتمعات البدائية التى دارت حولها دراسات انثروبولوجية حقلية - فى القارة الافريقية بوجه خاص - والذى يقوم على اساس من الانقسامية Sementary system قد ساعد على تأصيل ذلك الاتجاه البنائى الوظيفى .

ومن المعروف أن المجتمع الانقسامى مجتمع يفتقر الى وجود سلطة مركزية تستطيع ان تصدر من القوانين التى تقسر اعضاء هذا المجتمع على الخضوع لها . كما يقوم نسق الضبط الاجتماعى فى تلك المجتمعات على حق الجماعة فى الاعتماد على قوتها الذاتية فى المحافظة على حقوقها التى يحددها العرف . ويبرز تمايز الجماعات السياسية الانقسامية - أو الجماعات القبلية الثأرية - من خلال وحدة الانتماء القرابى او الوطن الذى تقع فيه عناصر الثروة الطبيعية التى تعيش عليها تلك الجماعات . ولكن تلك الجماعات التى تنتمى الى أصول قرابية

واقليمية مشتركة تنضم الى بعضها البعض لتتماسك وتتعاضد ضد أى عدوان تتعرض له ، وتكون المسافة القرابية او الاقليمية التى تفصل بين اطراف النزاع محددة لمدى الجماعات التى تنضم وتتماسك فى مواقف الصراع . فجماعة الاخوة تتماسك مكونة وحدة متمايزة في نزاعها مع ابناء عمومتها ، بينما ينضم الاخ، وأولاد العم اذا تعرضوا لعدوان جماعةِ قرابية اخرى . كما يتمثل الانشقاق فى ضرورة وقوف ابناء العمومة موقف الحياد فى حالة تنازع الاخوة [(١)] .

وفى هذا النسق المجتمعى الذى تتداخل فيه الجوانب القرابية والجوانب السياسية والاقتصادية ايضا - حيث يتناظر التوزيع بين اقسام الوطن القبلى من ناحية والتوزيع القرابى والسياسى ومناطق الحيازة القبلية من الناحية الاخرى - تبرز خاصية التناقد البنائى بين النظم والانساق الاجتماعية التى تقوم عليها النظرية البنائية بدرجة عالية من الوضوح ، وذلك بالاعتماد علي تلك الطرق التقليدية التى اعتمدت عليها دراسات الباحثين الانثروبولوجيين الاوائل - كطريقة الملاحظة بالمشاركة Pacticipant observation والاعتماد على المعلومات المستمدة من العارفين بالعادات والتقاليد والمعلومات التى يأتى بها الآتون بالاخبار Informants .

(١) انظر فى التعريف بالنسق الانقسامى :

احمد أبو زيد : البناء الاجتماعى - الجزء الثانى - الانساق - دار الكاتب العربى للطباعة والنشر - الاسكندرية - ١٩٦٧ .

محمد عبده محجوب : الانثروبولوجيا السياسية : مقدمه لدراسة النظم السياسية فى المجتمعات القبلية - الهيئة المصرية العامة للكتاب - الاسكندرية - ١٩٧٦

smith, M.G., Segmentary Liueage System, J.R.A. I., Vol. 86, part II.
Foretes. M. and Evans-Pritchard. E. E., (eds). african Political Systems. Oxford, 1940.
Evans Pritchard, E.E., The Nuer, op.cit.

ويقول آخر فلقد ساعدت تلك الخصائص التي تميزت بها المجتمعات البدوية القبلية البدائية – وبخاصة فيما يتعلق بقلة عدد السكان ، وبساطة الحياة الاقتصادية والتكنولوجية ، والاعتماد المباشر على استغلال عناصر الثروة فى البيئة الطبيعية النباتية والحيوانية ، فضلا عن صغر المساحة الاقليمية التى تكون وطن تلك المجتمعات – ساعدت على تأصيل مفهوم بناء Structure المجتمع بما يضمه من نظم Institutions متمايزة تنتظم العلاقات الاجتماعية وتتساند فيما بينها تساندا وظيفيا يكون الاطار المنهجى للتحليل الانثروبولوجى . ويعبر استقرار ذلك المفهوم فى الدراسات الانثروبولوجية الاجتماعية عن التزام اتجاه منهجى دقيق فى تحليل مشكلات الاستقرار Social stability والتغير الاجتماعى Social Change وبخاصة فقد وجدت بينات Evideuces واضحة على تساند In-terdependence تلك النظم المتمايزة تساندا وظيفيا Functional interdepen-dence فى بناء المجتمع المتغير . ونجد مثلا ان التغير الذى يطرأ على نظام حيازة الارض Land tenure – وبخاصة فيما يتعلق بتفتت ما يعرف بمناطق الحيازة القبلية ، نتيجة لعوامل الوراثة – يسفر عن تغيرات فى التنظيم القبلى الانقسامى تفقد فيها الوحدة القبلية السياسية المتمايزة خاصة من أهم خصائصها وهى : خاصية التمركز الاقليمى ، نتيجة لتشتت اعضائها فى مناطق اقليمية متباعدة ، حيث يصبح الوطن القبلى الواحد – أو المنطقة القبلية المتمايزة – محلا لاقامة واستغلال اشخاص ينتمون الى وحدات ثأرية متنوعة قد تكون فى صراع او حرب .

والى جانب تلك الضرورات التاريخية المنهجية – التى فرضت تركيز الاهتمام بدراسة تلك المجتمعات البدائية المنعزلة – كانت هناك أيضا بعض الضرورات التطبيقية ، وقد تنبه الباحثون الاوائل لأهمية الاسراع بدراسة تلك المجتمعات الى أخذت تنفتح على العالم الخارجي ، وتقع تحت وطأة الثقافة الاوربية الصناعية – التى ينقلها الرجل الابيض بما يفرضه من نظم وطرق جديدة

فى العمل والسلوك ، تتناقص مع النظم والطرق المستقرة فى تلك المجتمعات البدائية ، او تؤدى الى تدمير وحدتها المميزة وتحولها الى مجتمعات جديدة ذات نظم ومعايير مغايرة تماما لنظمها ومعاييرها التقليدية . وكان على هؤلاء الباحثين ان يسرعوا فى وصف ملامح الحياة فى تلك المجتمعات ، وفى تسجيل تلك الملامح ابقاء عليها للاجيال القادمة كنوع من التاريخ الاجتماعى الذى يفيد فى دراسات التطور Social evolution والتغير الاجتماعى .

ولعل الاوضاع السكانية والاقتصادية والثقافية السائدة الآن فى كثير من مجتمعات الشرق الاوسط والعالم العربى بوجه خاص ، تبرز أهمية الاسراع فى القيام بمسح انثروبولوجى Anthropological Survey يتناول الكثير من المجتمعات المحلية التقليدية : التى تتعرض الان اما بظهور موارد جديدة للثروة وما يترتب على ذلك من. تغيرات سياسية واقتصادية عميقة ، أو تتعرض لبرامج التنمية الاجتماعية Social development والاقتصادية بوجه خاص من خلال برامج «التوطين Sedentarisation وادخال الصناعات الجديدة او الاستفادة بخدمات التعليم والاسكان وغيرها من الخدمات الاجتماعية ، أو حتى من خلال محاولة اخضاعها لنظم السلطة المركزية Centeral authority فى الدول التى تقع فيها .

ويقول آخر من المعروف ان تلك المجتمعات القبلية تتعرض الان لكثير من التغيرات الاساسية فى نظمها الاجتماعية ، فالقبائل التى يحكمها العرف Cus-tem وتنظم التقاليد Traditions طرق العمل وصور التفاعل بين اعضائها - اصبحت الآن تدخل تحت سيطرة وسيادة دول تحاول ان تطبق القوانين التى تتناقض فى بعض الاحيان مع الاعراف السائدة ، والتى تؤدى الى تغير التماسك الاجتماعى التقليدي فى تلك المجتمعات . كذلك فان تلك المجتمعات القبلية التقليدية التى كانت منعزلة اقتصاديا عن العالم الخارجى وتعتمد فى اشباع حاجاتها على المصادر الطبيعية التى تسيطر عليها ، أصبحت الان موطنا لكثير

من المشروعات الصناعية الحديثة فى مجال التعدين او البترول ، او حتى فى مجال استغلال المراعى والصناعات الغذائية . ولا شك ان دخول تلك الصناعات والمشروعات الحديثة يدخل معه نظما جديدة فى تقسيم العمل ، وأسسا جديدة لتراكم الثروة وترتيب الفئات الاجتماعية ، ومظاهر السلطة والقيادة . وبالتالى فقد كانت هناك حاجة ملحة فى دراسة تلك المجتمعات التقليدية بتسجيل ملامحها البنائية قبل ان تمتد اليها يد التغير ، إما كنوع من التاريخ الذى يمكن استخدامه فيما بعد فى الدراسات المقارنة ، أو لما يمكن ان يترتب على تلك الدراسات من تحقيق أقصى قدر من الكفاية فى الاستفادة بتلك المصادر البشرية الطبيعية الموجودة فى هذه المجتمعات - مع اتاحة الفرصة لسكانها انفسهم الاستفادة من التسهيلات والتنظيمات الجديدة دون أن يتعرضوا لعمليات الصراع التى تنتهى الى تدمير لوحدة والتماسك القائم ، بغير ان توجد اسسا جديدة ملائمة ومقبولة لهذا التماسك وتلك الوحدة .

ولقد اشرنا فى دراستنا لبعض مشكلات التغير فى المجتمعات التقليدية إلى أن اهتمام الباحثين الانثروبولوجيين بالانماط المجتمعية غير التقليدية او غير البدائية قد جاء متأخرا [1] . ويقول آخر فقد ترددت الانثروبولوجيا الاجتماعية كثيرا قبل ان تتناول دراستها الحلقية المجتمع الانسانى فى مختلف الاوضاع الاجماعية والثقافية ، ويصبح موضوعها هو الانماط المجتمعية Societal types المتنوعة البدوية nomadic او الريفية rural والحضرية Urban والصناعية على السواء ، ففى عام ١٩٢٣ نجد مثلا رادكليف براون يحدد فى مقال عن المنهج مجال الدراسات الانثروبولوجية بحدود المجتمعات البدائية . ثم لا يعود الا فى مقال لاحق عام١٩٤٤ - لكى يجعل من كل انماط المجتمع الانسانى مجالا

---

(١) محمد عبده محجوب : «الاتجاه السوسيوانثروبولوجى فى دراسة المجتمع» حلقة النهوض بعلم الاجتماع فى الوطن العربى - المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم بجامعة الدول العربية - ١٩٧٣ .

لدراسة الانثروبولوجيا الاجتماعية كمبحث فى بناء المجتمع. ونجد هذا الموقف الاخير هو نفس الموقف الذى اتخذه ايفانز بريتشارد فى محاضراته الشهيرة فى الانثروبولوجيا الاجتماعية عام ١٩٥١ حيث يعرف الانثروبولوجيا على انها نوع من الدراسات الاجتماعية يتخذ من المجتمعات الانسانية جميعا موضوعا له ، ولكنه يركز على دراسة البدائي منها . كما نجد فى امريكا لويد ورنر يؤكد منذ البداية ان مجال الانثروبولوجيا يشمل كل المجتمعات الانسانية – البدائية والمتمدينة ، البسيطة والمعقدة ، وقد أكد هذه النظرة الي الانثروبولوجيا حين قام بدراسات حقلية فى مجتمعات شديدة التأخر «المجتمعات البدائية» وفى مجتمعات متمدينة على السواء ، كما تحركت الانثروبولوجيا فى امريكا خطوات واسعة فى دراسة المجتمعات الحضرية والصناعية [١] .

ولعله من المهم ازاء شيوع استخدام مصطلح المجتمع الحديث Modern Society الاشارة ايضا الى انه حين تلحق هذه الصفة بالمجتمع فهى لا نعنى وضعه في مرحلة تطورية أو مرتبة حضارية ارقى من. تلك المرحلة أو المرتبة التى كان يحتلها قبيل تحديثه ، ولكنها تشير الى الدرجة الاولى الى حدوث تغيرات ثقافية واجتماعية وبنائية هامة . ومثال ذلك انه يقصد الان «بالكويت الحديثة» او «المجتمع الكويتى الحديث» دولة الكويت والمجتمع الكويتى فى مرحلة ما بعد ظهور النفط الذى صدرت اولى شحناته الى العالم الخارجي فى يونيو من عام ١٩٤٦ . ومن المعروف انه قد ترتب على ظهور النفط في المجتمع الكويتى تغيرات اقتصادية وسياسية من آهمها : ظهور نشاطات اقتصادية فى قطاعات الصناعة والتجارة والخدمات الادارية والصحية والتعليمية . وقد امتصت هذه النشاطات الاقتصادية الجديدة جانبا كبيرا من القوى العاملة المحلية – التى كانت تشتغل بالرعى أو تزاوج بينه وبين الزراعة غير الكثيفة ، أو تشتغل

(1) Redfiled R. Peasant society and Cutlure, Chicago, 1965: pp. 9 - 10.

بالتجارة والنقل البحرى بعد اضمحلال العمل بالغوص وتجارة اللؤلؤ . كما كان من أهم تلك التغيرات من ناحية أخرى ظهور بناء الدولة الحديثة ، وتغير أشكال ونظم التقنين ، ولكننا فى استخدامنا لهذه العبارة «الكويت الحديثة - أو المجتمع الكويتى الحديث» نقصد أيضا ما يرتبط بتلك التغيرات الاقتصادية والسياسية من تغيرات فى التركيب السكانى ، وتغيرات فى نظم تقسيم العمل والأجور ، ونظم المواطنة والسلطة والزعامة وغيرها من النظم الاجتماعية التى تشكل الآن جوانب أساسية فى بناء المجتمع الكويتى .

كذلك فقد ظل هناك سؤال لا يزال يستحق كثيرا من اهتمامنا حين نعنى بالنظرية المتسقة فى علم الاجتماع المقارن ، وهو يتعلق بتحديد ماهية [1] أو على الأقل نوع تلك الحقيقة المتعينة Concrete والقابلة للملاحظة Phenomenal التى يجب ان تعنى بها مثل هذه النظرية . وقد أجاب البعض من الانثروبولوجيين الذين يتجهون اتجاها بنائيا بأن هذه الحقيقة هى المجتمع أو يقول اكثر تحديدا تتمثل فى بناء المجتمع Social structure . وهذا فى حين يؤكد الذين يميلون الى التزام الاتجاه الثقافى الى اعتبار الثقافة Culture هى التى تمثل موضوع البحث فى الدراسات الانثروبولوجية . ولكنا نميل الى القول بأن تلك الحقيقة انما تجمع بين المجتمع والثقافة - مع ما فى ذلك من اثارة لمشكلات حول نوع تلك العلاقة التى تقوم بين هذين - كما تقوم بين المجتمع من ناحية والظروف الايكولوجية والبناء الديموجرافى اللذين يكونان بجانب الثقافة ركائز اساسية يستند اليها بناء المجتمع من ناحية اخرى [1] .

ولعل تلك الثنائية القائمة الآ فى الدراسات الانثروبولوجية المعنية بدراسة المجتمع - بين الدراسات الانثروبولوجية البنائية والدراسات الانثروبولوجية

---

(١) الماهية Quiddity عند ارسطو هى مطلب ما ، أى ما الشيء الذى هو موضوع العلم فى مقابله مطلب هل ، أى : هل الشيء موجوده (يوسف كرم : المعجم الفلسفى - القاهرة - ١٩٦٦ - ص ١٤٨) .

الثقافية – ترتبط بتلك الاهتمامات المتنوعة للمتخصصين فى فروع الانثروبولوجيا العامة Anthropology من حيث هي علم دراسة الانسان من جوانبه المتنوعه . ومن المعروف ان الانثروبولوجيا الفيزيقية Physical anthropology تعنى بدراسة السمات الفيزيقية للانسان وخاصة فيما يتعلق بنشأته الاولى وفى تطوره عن الرئيسيات Primates واكتسابه الخصائص والصفات الانسانية ، وهى تعتمد فى ذلك على قياس بعض السمات الفيزيقية مثل : حجم الجمجمة ، وارتفاع القامة ، ولون البشرة ونوع نسيج الشعر ، وشكل الانف ولون العينين . كما تعنى الانثروبولوجيا الفيزيقية ايضا بدراسة التغيرات العنصرية racial وخصائص الاجناس وانتقال السمات الفيزيقية وتتبع المورثات genes الانسانية .

وحيث يعنى علم اثار ما قبل التاريخ Prehistoric archaeology بدراسة المجتمعات والثقافات التاريخية منذ ظهور الانسان العاقل Homo sagiens وتتبع المراحل التطورية لثقافة الانسان منذ اقدم العصور ، بحيث يحدد معالم تفكير ذلك الانسان الاول بتتبع مخلفاته وبقاياه قبل اكتشافه الكتابة وتوصله الى اللغة.

وتعنى الاثنولوجيا ethnology بأكثر من مجرد الوصف ، حيث تقوم بتصنيف تلك الشعوب من خلال المقارنة بين أوجه اختلافها وتشابهها ، وابراز تمايز الجماعات العرقية الواحدة منها عن الاخرى بخصائص معينة مثل: الخصائص السلالية او اللغوية ، او تميزها بطرق حياتها وتفكيرها الخاصة ، أو بشكل الملابس التى يرتديها أعضاؤها أو المساكن التى يسكنون فيها ، أو نوع المعتقدات التى يتمسكون بها .

---

(١) انشر محاولتنا فى تحديد تلك العلاقة بين الثقافة والبناء الاجتماعى فى «دراستنا التى سبقت الاشارة اليها بعنوان : الاتجاه السوسيوانثربولوجى فى دراسة المجتمع .

وفى هذا كله تتميز الانثروبولوجيا الاجتماعية Social anthropology التقليدية بكونها دراسة لطبيعة المجتمع الانسانى دراسة منهجية منظمة ، تعتمد على مقارنة الاشكال المختلفة للمجتمعات الانسانية بالتركيز على الاشكال الاولية للمجتمع البدائى . ثم يتسع مجال الدراسات الانثروبولوجية الحقلية الحديثة ليشمل كل انماط التجمع الانسانى . وهنا نجد نوعا من التصانيف بين الجوانب الثقافية من ناحية ، والجوانب الاجتماعية والبنائية من الناحية الاخرى ، حيث الثقافة هى وسيلة التعبير التى تتجسد فيها العلاقات الاجتماعية فى أنماط سلوكية معينة ، ومن ثم فان التحليل السوسيوانثروبولوجى الذى يتجه اتجاها بنائيا لابد ان يستند الى ركيزة من الانماط او الاساليب الثقافية [١].

ووجهة النظر الشخصية لراد كليف براون - والتى نتفق معها - تقوم على ان تلك الحقيقة التى يجب ان تعنى بها دراستنا السوسيولوجية والانثروبولوجية للانماط المجتمعية المتنوعة ، والتى تقوم بملاحظتها ووصفها ومقارنتها هى : عملية Process الحياة الاجتماعية فى منطقة اقليمية محددة . ومن ثم فانه على الرغم من التنوع والتغاير الذى يميز الاحداث الاجتماعية فى تلك المنطقة، فعلينا ان نعنى بتكشف التقنينات regulations أو القواعد التى تحكم الحياة الاجتماعية، ويقول آخر علينا ان نحاول الوصول الى الملامح او السمات العامة للحياة والعلاقات الاجتماعية فى تلك المنطقة ، وهذه العملية تؤدى بنا الى محاولة رسم ما يسمى بصورة الحياة الاجتماعية [٢] .

وحيث تتداخل وتتكامل الركائز ألايكولوجية Ecology والديموجرافية De-mography والثقافة Culture التى يقوم عليها البناء الاجتماعى او البنية

(1) Padeliffe - Brown A.R. Method in Social Anthropology: Chicago, 1958; p. 136.
(2) Radeliffe Brown, A.R. Structure and Function in Primitivs Society Cohen and West, London, sixth impression, 1965, pp. 3-4.

المجتمعية Societal Structure ، فإن تلك العمليات الاجتماعية وما ينتظمها من انساق Systems مجتمعية تتداخل فيها بالضرورة تلك الجوانب الثقافية والاجتماعية . ولما كانت الظروف العامة للحياة الاجتماعية قد تختلف في منطقة معينة عنها في منطقة أخرى من العالم ككل ثقافي واجتماعي كبير ، وبخاصة تحت وطأة الظروف الطبيعية والانساق الايكولوجية والمستويات التكنولوجية المتنوعة والمتفاوتة ، كان من الضروري قيام فروع متخصصة في علم الاجتماع والانثروبولوجيا ، أو بقول آخر قيام دراسات تخصصية سوسيولوجية وانثروبولوجية في الانماط المجتمعية المتنوعة تعنى بها مثلا فروع علم الاجتماع bednin sociologyوعلم الاجتماع الريفي وعلم الاجتماع الحضري وعلم الاجتماع الصناعي .

ولعل الدراسات السوسيوانثروبولوجية في النمط المجتمعي البدوي - وبخاصة في المنطقة العربية - تحتل أهمية خاصة، حيث من المعروف ان نسبة كبيرة من المساحة الكلية للبلاد العربية بوجه خاص - ومن الأرض بوجه عام - عبارة عن أرض صحراوية وتعيش في تلك المناطق الصحراوية في الغالب جماعات بدوية ذات تنظيم اجتماعي ونشاط اقتصادي وبناء السلطة يختلف كل الاختلاف عن تلك التنظيمات الاجتماعية والنشاطات الاقتصادية وأبنية السلطة بين الجماعات التي تسكن المناطق الزراعية الريفية أو الحضرية الصناعية في تلك البلاد . وقد أبرزت الدراسات الرائدة التي بأيدينا في مجال انثروبولوجيا المجتمعات البدوية ، وفي موضوع الصراع بين البداوة والحضارة في العالم العربي - كيف ان الصحراء وهي تشغل على العموم ثلث مساحة العالم تصل الى ٥ر٩٩٪ من مساحة مصر ، وتغطي ٤٠٪ من مساحة العراق ، كما تشغل الصحراء وشبه الصحراء ثلث المساحة الكلية لسوريا ، بينما تغطي منطقة الحماد الشديدة الجدب والقحولة التي تستحيل زراعتها لندرة المطر وعدم وجود مياه جوفية بها حوالي ٢٠٪ من الارض التي تعيش فيها القبائل البدوية وشبه البدوية هناك . اما في ليبيا فتقدر الارض التي يمكن استغلالها زراعيا بطريقة اقتصادية

معقولة بما لا يزيد عن ٥ إلى ١٠٪ من المساحة الكلية ، والجانب الاكبر من المملكة العربية السعودية صحراء قاحلة تماما ، وفى هذا وحده ما يبرز أهمية الدراسات السوسيواثروبولوجية فى المجتمعات البدوية التى تعيش فى تلك المناطق الصحراوية وشبه الصحراوية الشاسعة [١] .

كذلك تحتل الدراسات السوسيوانثروبولوجية في المجتمعات البدوية أهمية خاصة لأنها تقدم للمتخصصين فى هذه الدراسات فرصة طيبة لكى يعملوا على تنمية وتطوير طرقهم فى البحث ، وبخاصة بعد أن كاد النمط البدائى المنعزل والمنغلق على ذاته يختفى تماما من بين أنماط التجمعات الانسانية القائمة فى عالمنا المعاصر . ومن أهم تلك الطرق التى يستخدمها هؤلاء الباحثون فى دراساتهم فى المجتمعا البدوية طريقة الملاحظة بالمشاركة Participant observation وطريقة الاعتماد علي المعلومات التى يدلى بها كبار السن والآتون بالاخبار Informants والطريقة الجينيولوجية Genealogical method التى تستند الى أشجار النسب Genealogies فى الحصول على الكثير من المعلومات حول الجوانب التربوية والمهنية والجمالية والايكولوجية فى تلك الجماعات المحلية الصغيرة – التى لازالت تجتذب اهتمام هؤلاء الباحثين وهذه الطرق الانثروبولوجية كلها طرق لا نشك فى قيمتها ، أو فى قيمة المعلومات التى تتوفر خلال الاعتماد عليها ، ولكننا خليقون أيضا بالاشارة الى مدى الصعوبات التى تواجه الباحث الانثروبولوجى حين يلجأ الى الاعتماد عليها فى دراساته لتلك الانماط المجتمعية البدوية ، التى تتعرض الآن لتغيرات بنائية على درجة عالية من الاهمية ، مثلا بسبب عمليات التحضر Urbanization فيما يعرف بمشروعات توطين البدو Sedentarisation of nomads ، أو بسبب التغيرات الايكولوجية

(١) أحمد ابوزيد : «قابيل وهابيل» – قصة الصراع بين الحضارة والبداوة فى العالم العربى» – مجلة معهد البحوث والدراسات العربية – ذو الحجة ١٣٨٨هـ – مارس ١٩٦٩ ، ص ٤٠٥.

والاقتصادية المرتبطة بالتصنيع واستثمارات النمط التى تحتل بأهمية كبيرة فى المنطقة العربية بوجه خاص .

ويمكن التعرف على تلك المشكلات أو الصعوبات التى تواجه الباحثين الحقليين فى الاعتماد على تلك الطرق التقليدية الهامة فى جمع المادة الاثنوجرافية Ethnographic data – التى تتخذ ركيزة لتحليلاتهم فى المجتمعات شبه البدوية غير البيئية وغير المنعزلة – مثلا من خلال الاشارة الي بعض الدراسات الحقلية التى قام بها في المجتمع الكويتى ، وقد تبين لنا فى دراستنا فى هذا المجتمع تفاوتا فى قدرتنا على الاعتماد على تلك الطرق بصفة رئيسية . فقد كانت تلك الطرق مثمرة فى دراسة المجتمعات المحلية المحدودة فى الجهراء وفيلكا ، وفي دراسة مشكلات الهجرة والتغير البنائى فيها – حيث يمكن للملاحظ الذى يقضى بضعة اسابيع فى اى من هذين المجتمعين ان يلاحظ بشيء من الوضوح مظاهر التغاير الذى طرأ على ذلك الارتباط بين التوزع الاقليمى والتوزع العرقى ، ومدى التغير فى المكونات السكانية اللغوية والعرقية والثقافية ، كما يمكن ملاحظة اضمحلال النشاطات الاقتصادية التقليدية ، وعدم وجود نشاطات اقتصادية انتاجية حديثة على مدى واسع في الجزيرة أو القرية ، وهذا كله بجانب ملاحظة احتفاظ كل من هذين المجتمعين بغالبية كبيرة للسكان الكويتيين – وذلك على العكس من الاتجاه العام للتركيب السكانى فى المجتمع الكويتى الكلى .

ولكننا حين نحاول دراسة مثل تلك الجوانب فى المجتمع الكويتى الكلى او فى المجتمعات الحضرية الاخرى فى الكويت ، نجد اننا فى حاجة الى اساليب وأنواع اخرى من طرق البحث والمعلومات والحقائق فى التعرف على المشكلات المرتبطة بتلك الجوانب ، حيث لابد أن نلجأ الى الحقائق والاساليب الاحصائية فى التعرف مثلا على : التركيب السكانى ، واتجاهات الهجرة ، والحراك السكانى، ومدي مشاركة الفئات العرقية المتمايزة فى النشاطات الاقتصادية المختلفة،

ومدى انغلاق كل فئة من تلك الفئات العرقية على نفسها او انفتاحها واتصالها وتمثلها أو تجانسها مع الفئات الاخرى .

ومن ناحية أخرى تقدم لنا تلك الدراسات السوسيولوجية والانثروبولوجية في المجتمعات البدوية وشبه البدوية بينات واضحة على انهيار الاتجاه التطورى فى تفسير الحياة الاجتماعية والنمو الحضارى فى المجتمع الانسانى ، حيث تسقط فى تطور كثير من تلك المجتمعات البدوية وشبه البدوية حلقة من الحلقات المتتابعة والضرورية فى سلسلة التطور من حياة البداوة التى ترتبط بالتنقل ، الى حياة الزراعة التى ترتبط بالاستقرار والاستمرار والاتصال الحضارى ، إلى الحياة فى المجتمعات الريفية التى تعتمد فى وجودها واستمرارها على الاتصال بالثقافة الكبرى فى المدينة الصناعية او غير الصناعية ، وأخيرا الى الحياة فى المدينة وبخاصة فى البيئة التى يشكل الانتاج الصناعى - بكل ما يحكمه من نظم وظروف متنوعة - عنصرا اساسيا من عناصرها .

كذلك فقد ساهمت تلك الدراسات ايضا فى اثراء الفكر السوسيوانثروبولوجي باتجاهات جديدة فى التحليل ، سواء فى مشكلة التغير، أو فى غيرها من المشكلات التى تتصل بتصوير او وصف البناء الاجتماعى فى حالة التوازن النسبى ، فالواقع فى تلك المجتمعات البدوية يبرز حالة التغير البنائى Structural change الذى لا يحدث من خلال الاتصال الثقافى والاجتماعى Social and cultural contact بجماعات وحضارات اخرى تقوم خارج المجتمع - قد تقع بالقرب منه وقد لا تقع على هذا النحو - كما لا يقوم فى الغالب على اساس تخطيط يحدد اتجاهات التغير على الرغم من أهمية المحاولات الجادة والشاقة التى تقوم الان فيما يعرف بمشروعات توطين البدو - ولكنه تغير تفرضه فى الدرجة الاولى اسباب اقتصادية او سياسية تتمثل فى ظهور موارد جديدة للثروة - مثلا كظهور البترول فى كثير من المناطق الصحراوية العربية - أو تتمثل فى رغبة الدول الحديثة فى القضاء على السلطة الانقسامية فى تلك

المجتمعات القبلية واخضاعها للقانون الصورى والسلطة المركزية فى الدولة. وتجد الجماعات البدوية وشبه البدوية نفسها فى كل من هاتين الحالتين مضطرة الى التوافق مع نظم اجتماعية مغايرة تماما لنظمها التقليدية – وتكون مناقضة لها – بغض النظر عن مدى تلاؤم هذه النظم الجديدة مع الأنواع الايكولوجية والقبلية والاقتصادية التى قد تستقر لاجيال متعاقبة فى تلك الجماعات ذاتها .

وبقول آخر فإن الاهتمام بدراسة الانماط المجتمعية البدوية يتيح لنا فرصة التعرف على ما تخلفه العناصر الثقافية والمنظمات الاجتماعية – التى تدخل الى المجتمعات التقليدية بوجه عام والمجتمعات القبلية البدوية بوجه خاص ، من مشكلة الصراع أو التناقض بين ما هو تقليدى وما هو مستحدث من النظم الاجتماعية ، وما يرتبط بوجود واستقرار تلك الأوضاع والنظم التقليدية التى قد تكون عائقا دون استفادة المجتمع من تلك العناصر الثقافية والتنظيمات الاجتماعية التى تأتى اليه من خلال برامج التنمية .

مثال ذلك اننا نجد أن مشروع انشاء بعض المراوح الهوائية فى منطقة الشريط الساحلى للبحر المتوسط فى الصحراء الغربية المصرية – وفى منطقة الذراع البحرى بالذات – قد فرض أوضاعا جديدة فى تلك الجماعات شبه البدوية التى تتوطن المنطقة . فمن المعروف ان الماء لا يعتبر طرفا فى عمليات التبادل الاقتصادي فى تلك المجتمعات شبه البدوية ، ولكن ظهور نوع جديد من الماء يختلف فى طبيعته من حيث مصدره ومن حيث مدى تدخل الجهد البشرى فى توفيره عن ماء السماء او مياه الأمطار – وهو ما ارتبط بانشاء المراوح الهوائية فى ذلك المجتمع ، جعله يعرف نظما جديدة للمشاركة فى استثمار المناطق المحيطة بتلك المراوح يحتل فيها الماء قيمة نقدية ويحرم حق الانتفاع به على غير من يملكونه .

وتجد مثالا آخر لفشل بعض مشروعات التنمية الاقتصادية فى تلك المجتمعات القبلية شبه البدوية فيما يعرف بمشروع المراعى فى رأس الحكمة فى

الصحراء الغربية المصرية ايضا ، حيث اختيرت المنطقة لتنفيذ المشروع بعد دراسة لخبراء المراعى والمياه الجوفية والثروة الحيوانية وغيرهم ، ولم يؤخذ فى الاعتبار ما قد يترتب على اصطدام تنفيذ المشروع بنظم حيازة الارض فى المنطقة التى استقرت فيها بعض الحقوق العرفية لجماعات ثأرية وقبلية معينة - فيما يتعلق باستغلال مصادر الثروة الطبيعية التى توجد فيما يعرف بأرض الحوز ، والتى يمتنع فيها على الجماعات الثأرية او القبلية ان تستفيد من تلك المصادر الا باذن خاص من الجماعة صاحبة الحق العرفى ، وبخاصة ان الدولة تبدى نوعا من الاعتراف بهذه الحقوق العرفية حيث لا تتعاقد مثلا مع خفراء فى المناطق التى تقام فيها بعض المشروعات او فى مناطق الآثار فى تلك الاوطان القبلية ممن لا ينتمون الى تلك الجماعات الثأرية التى تتوطن تلك المناطق ، والتى لا تسمح لغيرها بالاستفادة من مصادر الثروة فيها الا بتصريح منها .

وجدير بالذكر هنا ان موقف الجماعات البدوية فى هذه الحالة يختلف عن موقف الجماعات الريفية التى تتعرض للتغير هى الاخرى تحت وطأة النظم الجديدة التى تفرضها الدولة فى الجوانب الاقتصادية والسياسية ايضا ، حيث تتاح الفرصة لهذه الجماعات الريفية لكى تحافظ على الكثير من سماتها البنائية التقليدية ، مثلا : فيما يتعلق بالتوزيع الاقليمى ، أو النظام الملمية أو النشاطات الاقتصادية وغيرها وهى فرصة تفتقر إليهما الجماعات البدوية التى يفرض عليها دائمًا أن تغير من نمط التوزع الاقليمى القبلية أو الثأرية ، وان تخضع لنظم جديدة لتحديد الملية وطرق حمايتها ، كما يفرض عليها أن تغير من نشاطاتها الاقتصادية حيث يتحول مثلا الاشتغال بالرعى وتربية الحيوان - فى الحالات القليلة التى يستمر فيها - الى نوع من النشاط الاقتصادى الذى تحكمه العلاقات والقيم المستقرة فى المجتمع الصناعى دون القيم البدوية التقليدية .

وحيث أشرنا فى بداية هذه الدراسة الى مدى اهتمام الباحثين الانثروبولوجيين الاوائل وبخاصة الحقليين منهم من امثال : مالينوفسكى Malinowski, B.

وراد كليف براون Badcliffe Brown وايفانز ريتشارد Badeliffe Brown ، و فورتس .Fortes, M بدراسة المجتمعات البدائية او المجتمعات المتوحشة او المجتمعات المنعزلة . وكما هو معروف فقد دفعتهم الى ذلك ضرورات تاريخية ومنهجية وتطبيقية متعددة ، فانه خليق بنا ايضا أن نؤكد القول بأن الاهتمام القائم الان بدراسة المجتمعات البدوية ، وإن كان يستند فى جوانب معينة الى نفس تلك الضرورات التاريخية والمنهجية والتطبيقية، إلا أن طبيعة التركيب البدائى فى تلك المجتمعات البدوية تجعل تلك الضرورات تتخذ وضعا جديدا يختلف عنه بالنسبة لدراسة المجتمعات البدائية او المتوحشة او المنعزلة .

ولكى نفسر تلك القضية السابقة : لابد لنا ان نشير الى تلك الدفعة القوية التى أعدها ريدفيلد Robert Redfield فى سبيل تقدم الانثروبولوجيا الاجتماعية ، وبخاصة فيما يتعلق بالتزام الاتجاه البنائى فى الوصف والتحليل وتبرز اهمية مساهمة ريدفيلد فى تقدم النظرية الانثروبولوجية حين تقارن بين تعريفه للبناء الاجتماعى من ناحية و وتعريف كل من راد كليف براون وايفانز بريتشارد من الناحية الاخرى . وقد أقام هذان الاخيران تعريفهما بالرجوع الى نمط معين من انماط التجمع الانسانى هو النمط البدائى . والمجتمع البدائى يكون وحدة اجتماعية مغلقة – على ذاتها – يشبع أعضاؤها جميع حاجاتهم الاجتماعية فى داخلها . فأرض الوطن القبلى فى تلك المجتمعات البدائية تكون مسرحا لكل النشاطات الاقتصادية التى تتمثل فى الصيد او فى ممارسة الزراعة المتعلقة أو فى تربية الحيوان ويكون النشاط الاقتصادى فى هذا المجتمع بغرض توفير الحاجات الاستهلاكية او المعاشية لأعضائه ، دون محاولة تكوين تراكم للثروة لافتقارهم الى الوسائل الفنية المتقدمه فى التخرين ولقلة الموارد الاقتصادية ذاتها ، وبالمثل فان تنظيم العلاقات السياسية وبخاصة فيما يتعلق بنظم الضبط الاجتماعى كلها تكون محدودة بحدود الوحدة القرابية التى تربط بين اعضائه على اختلاف انماط وأسس الانتماء القرابى .

كذلك تعتبر الاضافات التى ادخلها ريدفيلد الى النظرية البنائية - وفى مجال تحديد مفهوم البناء الاجتماعى والعلاقات البنائية بالذات - على درجة عالية من الاهمية المنهجية فى الدراسات السوسيوانثروبولوجية الحقلية. وتتمثل هذه الاضافات في ايجاز حيث يقول ريدفيلد : إننا حين تتعرض لوصف صورة الحياة وطبيعة العلاقات الاجتماعية فى المجتمعات الصغيرة little communities ، فاننا لا نركز انتباهنا فقط الى تلك العلاقات التى تربط بين الانسان والطبيعة ، ولكننا يجب ان نهتم ايضا بتلك العلاقات التى تربط بين الانسان والانسان ففى أي جماعة من تلك الجماعات التى تستمر فى الوجود والتى تتمتع بشيء من الثبات والاستقرار Long stauding community ، يمكن تصنيف الاشخاص الذين يكونون تلك الجماعات فى فئات معينة ، كما يمكن تصنيف العلاقات التى تربط بين كل منهم والآخر فئات او انواع متمايزة ايضا . فالعلاقات التى تربط بين الآباء والابناء التى تربط بين الزوج والزوجة ، أو التى تربط بين العامل وصاحب العمل او علاقات السوق ، كلها فئات من العلاقات الاجتماعية التى تختلف فى الاسس التى تقوم عليها والمعايير التى تحكمها.

كذلك يتنبه ريدفيلد الى وجود أنواع معينة من العلاقات الاجتماعية التى لا تستمر في الوجود ، ولكنها تظهر فى أوقات معينة من السنة ، مثل تلك العلاقات التى تقوم بين جماعات المصلين فى الشعائر السنوية أو تلك العلاقات التى تقوم بين اعضاء تلك التجمعات التى لا تحدث في اوقات منتظمة متواترة ، ولكنها تقوم كلما ظهرت الحاجة اليها فى المجتمع . ومع ان الافراد الذين يقومون بتلك الشعائر، أو تربط بينهم تلك العلاقات يتغيرون من سنة لاخرى او من مناسبة الى اخرى ، الا ان أدوارهم ووظائفهم تبقى فى اغلبها - في حين يتغيرون هم من سنة لأخرى او من مناسبة لاخرى ليحل محلهم غيرهم فى اداء تلك الوظائف وفى هذا اشارة الى ضرورة أن يأخذ الباحث فى اعتباره فى التحليل السوسوانثروبولوجى تلك الجوانب الكامنة وغير الكامنة فى البناء الاجتماعى على السواء .

كما أننا فى دراستنا للبناء الاجتماعى يجب ان نعنى بتلك العلاقات التى تتمتع بدرجة عالية من الثبات والاستقرار والاطراد في المجتمع ، والتى تختلف فى طبيعتها عن تلك العلاقات التى تعتبر ذات أهمية مؤقته وليدة اللحظة وعلى هذا الاساس يرى ريد فيلد فى دراسته البناء الاجتماعى لشان كوم مثلا انه لم يجد نفسه خليقا بالعناية بتلك العلاقات الوقتية التى تفتقر الى الثبات والاستمرار، فالصداقات القصيرة العابرة لا تعنى الباحث السوسيوانثروبولوجى فى دراسته للبناد الاجتماعى فى القرية ، ولكن اذا وجد ان تلك الصداقات تكون علاقات لها خصائصها المقبولة بصورة عامة بين اعضاء مجتمع القرية – كما انها تلعب دورا هاما فى جوانب اجتماعية معينة من حياتهم – فهو لابد أن يدخل في اعتباره تلك الخصائص المميزة لعلاقات الصداقة في هذه القريتفى حصره لعناصر البناء الاجتماعى .

كذلك فإننا فى دراستنا السوسيوانثروبولوجية البناء الاجتماعى فى تلك المجتمعات المحلية الصغيرة ، يجب ان نعطى اهتماما بالغا الى دراسة تلك العلاقات التى يسفر غيابها عن تغير جوهرى فى المجتمع . ومثال ذلك فى تصورنا لما تكون عليه القرية لو استبعد تلك العلاقات المعقدة التى تربط بين الزوج والزوجة وبين هذين والابناء ، فلا شك ان من شأن تلك القرية ان تكون نوعا مختلفا تماما او بقول اخر نمطا مجتمعيا مختلفا تام الاختلاف عن الانماط المجتمعية المعروفة لنا . وهذا يعنى بقول آخر ان تلك العلاقات الاسرية تفرض أهميتها على الباحث السوسيوانثروبولوجى لكى يضمنها حصره لعناصر البناء الاجتماعى فى تلك القرية . كما يعنى من ناحية اخرى اننا نستبعد فى ذلك الحصر العلاقات التى تكون بنية المجتمع ، تلك العلاقات التى تربط مثلا بين موزع الصحف أو البريد والاهالى ، لأن التغير فى تلك العلاقات الشخصية لن يترتب عليه اية تغيرات ذات مغزى وأهمية فى صورة المجتمع .

وأخيرا فاننا فى دراستنا لتلك العلاقات التى نتمتع بدرجة عاليه من الثبات

والاستقرار والاطراد في المجتمع - والتى يؤدى زوالها الى حدوث تغيرات اساسية او جوهرية فى بنائه - لا نستطيع ان نعالج كل علاقة من تلك العلاقات كما لو كانت وحدة منعزلة تماما عن الاخرى - ولكن تلك العلاقات تكون نسقا حيث تنتظم كل منها كجزء من كل وتخضع هذه العناصر أو الاجزاء الترتيب الذى يربط بين كل منها والآخر فى النسق . كما ان تلك العلاقات يجب ان ننظر اليها كما لو كان كل منها مبنى فوق الآخر ، فهى سلاسل او طبقات فى التنظيم والتعقيد . ولهذا فان ريدفيلد في دراسته للبناء الاجتماعى لشان كوم ينظر الى الناس «كأشخاص يحتلون مراكز معينة ويقومون بوظائف محدودة ، كما يأخذ فى الاعتبار تلك العلاقات التى تربط بين بعضهم وبعض فى نوع من الاتساق ، وينظر ايضا بعين الاعتبار الى تلك الخصائص التقليدية الهامة للوظائف والادوار التى يقوم بها هؤلاء الاشخاص فى النشاط الاجتماعى .

ولقد واجه ريدفيلد عندما قام بدراساته الحقلية نمطا مختلفا كل الاختلاف من انماط التجمع التقليدى - وهو نمط يفتقر الى مظاهر الانعزال والاكتفاء الذاتى التى تميز المجتمع البدائي - وهو ما يطلق عليه ريدفيلد مصطلح المجتمع الريفى فالمجتمع الريفى يعتمد فى وجوده وفى اشباعه لحاجاته الاقتصادية والاجتماعية المتنوعة على الارتباط بالمجتمعات الاخرى المحيطة وبخاصة مجتمع المدينة فى استيراد ما يعجز عن انتاجه لاشباع حاجاته المتنوعة وبخاصة فى المجالات الثقافية والتكنولوجية .

وهذا يعنى بقول آخر تلك الشبكة المعقدة من العلاقات الاجتماعية التى تكون البناء الاجتماعى لا تقتصر من وجهة نظر ريدفيلد على تلك العلاقات التى تربط بين الاشخاص والجماعات داخل المجتمع التقليدى ، ولكنها تمتد لتشمل العلاقات المتنوعة التى تربط بينهم وبين الجماعات الخارجية التى تتوفر لديها طرق اكثر كفاية ووسائل فنية اكثر تقدما . وبهذا نجد ان مفهوم البناء الاجتماعى عند ريدفيلد قد اصبح اكثر اتساعا وشمولا كما اصبح اكثر تعقيدا ، وهو يحتل أهمية كبيرة فى الدراسات السوسيوانثروبولوجية المعاصرة ، وبخاصة تلك التى

تقوم فى المجتمعات اليدوية او شبه اليدوية التى تمر الان بمراحل من النمو والتنمية .

وفى دراسة ريدفيلد للمجتمع المحلى الصغير امثلة متعددة لبيان أهمية ذلك الارتباط او التفاعل بين تلك الشبكة من العلاقات التى تقوم بين اعضاء المجتمع المحلى الصغير ، والتى تتأثر بما يقع بالقرب منها او خارج حدودها من تنظيمات اجتماعية وثقافية . ونورد هنا مثالا واحدا يبرز مدى ذلك التفاعل القائم بين المجتمع الريفى ومجتمع المدينة . فقد كان التماسك التقليدى فى البناء الاجتماعى لقرية شان كوم يقوم على ثنائية فى تولى المراكز السياسية والدينية فى القرية التى تنقسم الى وحدتين قرابيتين تتوحد كل منهما بواحدة من العائلتين الاصليتين المؤسستين للقرية . وقد استمر هذا الوضع حتى بعد ان اختارت القرية طريق التقدم والخضوع للتنظيم الادارى كقسم من اقسام المدينة القريبة ، وكانت المراكز السياسية الجديدة تحقق ذلك التوازن الذى يتعدى مظاهر التنافس القائم بين هاتين الوحدتين القرابيتين التقليديتين ، ولكن فقد كان لظهور الديانة المسيحية فى القرية – عن طريق البعثات التبشيرية – أثره فى تغير الاسس التى يقوم عليها ذلك التماسك التقليدى الذى انتهى الامر الى انهياره نتيجة لسرعة التغير والتقدم فى المركز الذى تحتله احدى هاتين الوحدتين – وهى تلك التى استطاعت ان تحقق مزيدا من الانتصارات فى المجالات الجديدة وبخاصة فى مجال الزعامة السياسية . وقد أدى هذا بدوره الى ان تجد الوحدة الاخرى فى الديانة الجديدة فرصة ذهبية لتدعم من خلالها مركزها التقليدى الذى أخذ فى الانهيار، ومن ثم فقد اندفعت فى محاولة تولى المراكز الدينية الجديدة واستطاعت من خلال الدين الجديد ان تغير وضعها التقليدى فى بناء القرية [١] .

وفى دراسة ريدفيلد القرية وتتبعه لمظاهر التفاعل البنائى فيها ، نلاحظ ان

(1) Redfield, R. The Little Community: Phoenix Books, Chicago fourth impression, 196 , pp. 43 - 35 and pp. 93 - 94.

تلك الوحدة البنائية التى استطاعت بقوتها العددية ان تقبض على السلطة السياسية فى القرية – ما كانت تسمح لمنافستها ان تتخذ من الدين الجديد وسيلة للتفوق عليها والاستئثار بمراكز الزعامة فى القرية ، وقد ساعد على مناهضتنا لتلك الزعامة التى أخذت تسيطر عليها الوحدة المنافسة – ان الدين الجديد كان يتناقض مع العادات التقليدية فى مجتمع القرية ، فقد حرم مثلا الرقص وكان مناسبة من المناسبات الهامة فى الحياة الاجتماعية للقرية تخرج فيها النساء بملابسهن الجميلة وزينتهن التى أنفقن كثيرا من الوقت والجهد فى اعدادها ، كما كان الدين الجديد يمثل خيانة للالهة القديمة التى حمت القرية وأرواح أهلها واقتصادهم خلال فترات طويلة من الزمن : وفضلا عن هذا كله فان تلك القرية فى سعيها لضم المزيد من الوحدات الاقليمية المجاورة اليها ، وجدت فى الدين الجديد عائقا من عوائق تحقيق ذلك ، لأن تلك الوحدات الاقليمية المجاورة لم تكن تؤمن به ، ومن ثم فقد أولت ظهرها لشان كوم وعارضت الانضمام اليها .

وقد ساعد هذا كله على أن تنجح الوحدة التى تحتل مراكز الزعامة السياسية التقليدية فى القرية فى تقويض صرح هذه الديانة الجديدة ، التى أوشكت ان تغير من نسق الضبط الاجتماعى فى القرية ، وأسس تفوقها واستقطابها للوحدات الاقليمية المجاورة . واستطاع رئيس القرية الذى ينتمى الى تلك الوحدة البنائية المنافسة للوحدة البنائية الاخرى التى اتخذت من الدين الجديد وسيلة للتفوق، أن يقود حملة للردة نجحت فى ان تعيد للقرية تأييد الوحدات الاقليمية المجاورة وأن تحقق الوحدة والاستقلال التقليدى لشان كوم [1] .

ولكنا نجد ان الوضع فى المجتمعات اليدوية المعاصرة يتمثل فى وجود تلك الثقافات الجديدة – او يقول اكثر دقة يتمثل فى وجود تلك العناصر الثقافية الجديدة فى قلب المجتمع اليدوى بحيث يفوض عليه ان يتوافق معها دون ان تتاح له فرصة واسعة فى اختيار ما يستعيره او يقتبسه او فى اختيار ما يراه محققا

(1) Ibid, p. 98 - 101.

لتطلعاته فى حدود رغبته فى المحافظة على توازنه وقيمه التقليدية . فعملية التغير الثقافى تطرأ فى تلك المجتمعات اليدوية بصورة اكثر سرعة وبطريقة مفاجئة . وهى تختلف فى طبيعتها من هذه الناحية عن عملية التغير في المجتمعات الريفية ، التى قد تستمر فى القيام بنشاطاتها الاقتصادية التقليدية، كما تستمر في المحافظة على ارتباطاتها الاقليمية . فى حين ان الظروف الايكولوجية فى المجتمع اليدوى ان لم تؤد هى ذاتها الى اندثار تلك النشاطات الاقتصادية التقليدية ، فهى لا توجد لدى اعضاء ذلك المجتمع ميلا الى المحافظة على الاشتغال بها ، بعكس ما يحدث بين الريفيين فى مناطق كثيرة تستمر في الاشتغال بالزراعة الكثيفة او المستقرة ، مع حرصها على اقتباس الاساليب الثقافية والتقنية الحديثة فيما يتعلق مثلا بأدوات الانتاج ، او ما يعرف بالميكنة الزراعية ، او فيما يتعلق بوسائل النقل واستخدام الاليات فى الحياة المنزلية . وهى من ناحية اخرى تستمر في الاحتفاظ بالأسس البنائية التى يقوم عليها نظام الملكية ، وتقسيم العمل ، والتفاضل الطبقى ، وعضوية الجماعة الثأرية والتناظر بين التوزع القرابى والتوزع الاقليمى – وهو ما لا يتحقق فى عملية التغير فى المجتمع اليدوى طبقا لما بأيدينا من خبرات حقلية في المجتمع الكويتى ومجتمع أولاد على فى الصحراء الغربية المصرية .

والواقع اننا نجد مثلا ان التغيرات التى طرأت علي نوع النشاطات الاقتصادية التى يقوم بها الكويتيون ، إنما هى تغيرات ترجع الى اسباب متنوعة . فمن المعروف ان بغض النشاطات الاقتصادية التقليدية التى استقرت فى هذا المجتمع قبل ظهور النفط مثل : الغوص بحثا عن اللؤلؤ ، او السفر للنقل البحرى والتجارة قد اضمحلت لاسباب سياسية واقتصادية ، تتمثل بوجه خاص فى ظهور اللؤلؤ الصناعى والمستنبت ، والحرب العالمية الثانية ، والتقدم الذى وصلت اليه وسائل النقل والاتصالات الحديثة .

وقد كان من الممكن مع هذا كله استمرار بعض تلك النشاطات الاقتصادية

التقليدية مثل : الرعى او الزراعة المتنقلة او الزراعة غير الكثيفة horticulture ولكن الاوضاع الاقتصادية والسكانية التى ترتبت على ظهور النفط فى هذا المجتمع قد جعلت الناس يتحولون عن العمل بهذه النشاطات اما لكونها لم تعد مجزية اقتصاديا ، او لإمكان تشغيل فئات معينة من الوافدين فيها ، وبخاصة المتسللين الذين تفرض عليهم الاوضاع القانونية التى تحيط بهم فى الكويت ان يقبلوا العمل فى ظروف او بشروط اقل من تلك الظروف والشروط التى يعمل فيها الحاصلون على الاقامة الشرعية .

وقد ترتب على ذلك كله ان الزراعة لم تعد مهنة السكان الكويتين الذين يتمتعون بحقوق ملكية الارض الزراعية ، ولكنهم يوظفون غيرهم فى استثمار تلك الارض اما عن طريق الايجار او المشاركة . وهو ما لا تتوافر لدينا امثلة له فى المجتمعات الريفية .

ومن المعروف ان المجتمعات التقليدية التى تستخدم التكنولوجيا الحديثة فى الاستثمار الزراعى تنقسم الى فئتين : تضم الفئة الاولى تلك الجماعات التي تمارس ما يعرف بالزراعة المتنقلة او الزراعة غير المستقرة او الزراعة غير الكثيفة او زراعة الحدائق horticulture ، وتضم الفئة الثانية تلك المجتمعات التى تمارس الزراعة المستقرة او الزراعة الكثيفة agriculture ، ومجتمعات تلك الفئة الاولى هى فى الغالب مجتمعات يدوية او شبه يدوية ، قد تزاوج بين هذه الزراعة وبعض النشاطات الاقتصادية التقليدية الاخرى : كالرعى او الصيد ، بينما ترتبط الزراعة الكثيفة او المستقرة بالقرى التى تنشأ حول مجارى الانهار وفي وديانها ، وقد ارتبطت الزراعة غير الكثيفة بحياة البداوة والتنقل فى الصحراء ، وما يرتبط بذلك من نمط معين من انماط السلطة القبلية الانقسامية والتضامن الثأرى – حيث تنشأ ضرورات الانشقاق او الانقسام بين تلك الجماعات اليدوية أو شبه اليدوية نتيجة لذلك التناقض الذى يقوم بين تزايد اعداد الجماعة الاقتصادية من ناحية ، واستمرار اضمحلال تلك الموارد الاقتصادية الطبيعية التى تتمثل في الارض ومصادر الماء من الناحية الاخرى .

ونجد في الجانب الآخر ان تلك الزراعة الكثيفة او المستقرة تساعد على استقرار السلطة الاقليمية ، وامكانيات التجانس العرقي واللغوى بين الجماعات القرابية في الوحدة الثأرية الواحدة . كما يخلق الفائض من حاصلات تلك الزراعة عن الحاجات الاستهلاكية للجماعة الاقتصادية المنتجة وجود فرص التبادل تتلاشى في المجتمعات اليدوية لعدم كفاية المحصول ، وبالتالي عدم وجود فائض للتبادل فضلا عن تماثل المحصولات الزراعية في تلك الوحدات القبلية المتمايزة .

وهذا يعني من ناحية اخرى اننا حينما نعني بتتبع تلك العلاقات التي تكون البناء الاجتماعي في المجتمعات اليدوية التي تمر بعمليات التغير ، فنحن في هذه الحالة ان نعني فقط بتتبع تلك العلاقات التي تربط بين الاشخاص والزمر الاجتماعية في ذلك الكل المتمايز من ناحية ، وبين الجماعة الحضرية في المدينة الصناعية وغير الصناعية بما تقدم من وسائل ثقافية اكثر تقدما من تلك الوسائل التي تتوفر في المجتمع الريفي من. الناحية الاخرى . ولكننا سوف نعني في الدرجة الاولى ايضا بكل ذي طبيعة مختلفة تنشأ عن اوضاع ايكولوجية وثقافية جديدة في منطقة اقليمية معينة.

وفي هذا الكل يتعايش النسق التقليدى والنسق الحديث في نفس المجتمع المحلي المحدود . وقد ينشأ بين النسقين صراع ، ولكن هناك في كل الاحوال تخطيط يفسر الناس على تعديل اساليب سلوكهم والالتزام بقيم جديدة تتناسب مع تلك الاوضاع الايكولوجية والثقافية الجديدة . فنظام العمل في مؤسسات تعمير الصحارى في الصحراء الغربية المصرية - وفي مخافر الشرطة في المجتمعات المحلية شبه اليدوية في الكويت - تحكمه نظم وقيم تختلف كل الاختلاف بل وتتناقض مع القيم التي كانت تحكم المناشط الاقتصادية ، والضبط الاجتماعي في نمط الحياة المرتبطة بالزراعة المتنقلة او الغوص . وهذا الوضع لا يترك للاهالي دائما فرصة الأخذ بما يتوفق مع قيمهم التقليدية ورفض ما يتناقض معها ، ولكنهم على العكس من ذلك يضطرون في كثير من الاحيان الى الالتزام بأنماط سلوكية تتناقض مع تلك القيم التقليدية .

وبعد هذا كله فنحن خليقون بالاشارة الى انه اذا كان هناك من يميل الى التعرف الى أصول النظم فى الانماط المجتمعية المتمايزة ، أو يحاول بتأثير النزعة التطورية ترتيب مراحل التغير التى تعرض للمجتمع الانسانى فى مراحل حياته ، ويقول بأن الزراعة وحياة القرية الريفية المستقرة تأتى بعد حياة البداوة والنجعة والترحال ، لتكون هذه المرحلة الثانية نقطة تحول الى الحياة الحضرية ، وذلك بحيث تكون التكنولوجيا الحديثة التى تدخل هذا المجتمع أساسا لتحوله الى مجتمع صناعى ، إلا ان الدراسات الانثروبولوجية الحديثة لا تكرس كثيرا من الجهد لمناقشة فروض التطور او مناقشة نظريات الاصول وبخاصة فى الاتجاهات السوسيوانثروبولوجية المقارنة .

ويرجع ذلك الى اسباب منها ان تلك النظريات التطورية حيث كانت لا تتوفر لها المادة التاريخية التى تعتبر بمثابة بينات على صدقها ، كانت تدعى الاستناد الى بعض القوانين العامة القبلية apriori فمثلا نجد ان نظرية تايلور فى الانيميزم Animism ونظرية الطوطمية totemism تستندان الى قضية مؤداها ان العرف والثقافة وليدان للرغبة فى تفسير الاحداث التى يتعرض لها الانسان فى حياته اليومية ، وهذا يعنى ان تلك النظريات قد نظرت الى الثقافة فى النهاية باعتبارها وليدة دافع او رغبة اساسية فرضية .

ودون الدخول فى مناقشات لتحقيق هذا الفرض العام فانه يؤخذ على أصحاب تلك النظريات انهم لم يخضعوا ذلك الفرض ابدا للتحقيق الامبريقى ، وهذا هو النقد الذى يوجهه رادكليف براون الى تلك النظريات ، وان كان هو نفسه يعتقد ان الواقع العملى او الرغبة فى التغلب على المشكلات المادية هى التى دفعت الانسان البدائى الى اختراع الحلول التى جاءت بدافع عملى ، ولكنه يطالب اصحاب نظريات الاصول ان يخضعوا فروضهم العامة للتحقيق القائم على الاستقراء الواسع قبل ان ترقى افتراضاتهم التطورية الى نظريات مقبولة ، وهذا كله بجانب ان هناك من ناحية اخرى ما يدفع الى التشكك فى مثل ذلك

الافتراض الذى تقوم عليه تلك النظريات التطورية ، حيث ان عمليات الاختراع والابتكار التى يقوم بها الانسان الان لم تعد مرتبطة فقط بمواجهة مشكلاته الملحة ، ولكنه يسعى الى تطوير وسائله الحالية لتحقيق مزيد من الاشباع والكفاية والرفاهية أو الوفرة .

كذلك فان هناك نقطة اخرى فيما يتعلق بعزوف الباحثين الانثروبولوجيين المحدثين الى حد بعيد عن مناقشة نظريات الاصول ، وهى تتلخص فى ان الانثروبولوجيا الاجتماعية الآن بمنهجها البنائى الوظيفى ترى فى تلك النظريات خروجا عن مجالها الحقيقى ، حيث يجب عليها ان تعنى بدراسة السلوك الاجتماعى وما يعبر عنه او ما يقوم وراءه من علاقات تتخذ شكل نظم اجتماعية : كالعائلة أو نسق القرابة ، والنظم السياسية والاجراءات القانونية ، والعبادات الدينية وغيرها ، كما تدرس العلاقة بين هذه النظم سواء فى المجتمعات المعاصرة او المجتمعات التاريخية التى تتوفر لدينا عنها معلومات كافية ، يمكن معها القيام بمثل هذه الدراسات .

ولعلنا نجد ايضا من البينات على عدم صدق الدعاوى التطورية ، أن المجتمعات اليدوية التى بأيدينا معلومات اثنوجرافية حول عمليات تغيرها وتحولها تنتقل مباشرة من حياة البداوة الى الحياة الحضرية المرتبطة بالتصنيع، وبخاصة نتيجة للمشروعات الاقتصادية التى تقام فى تلك التجمعات والتى تعتمد على أساليب مختلفة فى تقسيم العمل وتوزيع العائدات والاختيار المهنى، والمثل هذا واضح فى التجمعات الحضرية التى تنشأ فى الصحراوات الليبية أو فى المجتمع الكويتى ، أو فى منطقة الساحل الشمالى الغربى فى مصر ، أو فى منطقة الواحات بالوادى الجديد فى مصر ، وهذا كله على العكس من اتجاهات التغير فى المجتمعات الريفية التى تستطيع ان تستوعب كثيرا من الاساليب التكنولوجية والنظم الحديثة فى التعاون والتبادل الملكية وتبقى مع ذلك مجتمعات ريفية .

الفصل الثالث
إشكالية المنهج في الانثروبولوجيا*

* كتب هذا الفصل د. مصطفى عمر حماده

الفصل الثالث
اشكالية المنهج في الانثروبولوجيا *

مقدمه :

إن القاعدة الاساسية التى نحاول الاعتماد عليها فى مناقشة طرائق البحث الانثروبولوجى وأساليبه تستند على أن المعرفة العلمية هى معرفة نظرية، وأن هدف مناهج العلم بصفة عامة هو مساعدتنا على الاختيار بين البدائل النظرية المتاحة . وينتج عن ذلك بالطبع عدد من النتائج الهامة ، لعل من أبرز هذه النتائج أن المعرفة العلمية الانسانية بصفة عامة هى أكثر من مجرد مجموعة آراء وتحيزات خاصة بين طائفة من الباحثين ، وهى أكثر أيضا من مجرد جمع الوقائع، كما أنها أكثر من منظور واحد لرؤية العالم الأنثروبولوجى ، فلا يمكن مثلا أن يكون مجرد تراكم الوقائع مؤديا إلى المعرفة النظرية ، فهناك فارقًا كبيراً بين «الوقائع» وبين «المعرفة النظرية» على الرغم من أن الأولى تُعد هى المطلب الاساسى للمعرفة ولتقويم النظريات ، فكثيرا ما يُخدع دارس علم الإنسان فيحسب أن مهمة البحث الانثروبولوجى هي مجرد جمع أكبر قدر ممكن من المعلومات عن منطقة بحثه ، حقيقة أن البحث الانثروبولوجى يعطى للباحث السبل والاجراءات التى يسترشد بها فى جمع المعلومات والبيانات ، لكن القضية الاساسية تكمن فى تسائل هام مؤداه : ما هو المعنى الحقيقى وراء هذه البيانات أو المعلومات ؟ فنحن نقرأ عددا كبيرا من البحوث التى تجعلنا نقف على بعض الوقائع والبيانات أو المعلومات ، لكننا لا نستطيع أن نتعرف على معنى هذه المعلومات ، إذن ، فإن مجرد تراكم هذه المعلومات ، أو حتى تطور أساليب

---

* كتب هذا الفصل د. مصطفى عمر حماده

الحصول عليها ، لن يؤدى فى حد ذاته الى تطوير المعرفة الانثروبولوجية ولعل هذا هو التناقض بين الموقف النظرى المنهجى ، الذى يهتم بالتفسير والتأويل والتحليل وإكتشاف المعانى ، وبين ما يعرف اصطلاحا بأسم النزعة الامبيريقية Empiricism التى تتجه أساسا نحو تصوير مهمة علم الانثروبولوجيا بصفة خاصة ، والعلوم الإنسانية بصفة عامة ، على أنها البحث من أجل الوقائع أو البيانات الوصفية (الأثنوجرافية) Ethnographic Data ، لذلك فإن الأمبيريقية حين تتعرض لمعنى النظرية ، فإنها تعرفها فى حدود هذه النزعة أيضا على أنها تعميم يعتمد على الوقائع المشاهدة يوضح العلاقة السببية المفترضة بينها .

وعموما ، فإن طرق جمع البيانات وتحليلها واستخلاص النتائج ، تحتاج ، دون شك ، إلى تصورات نظرية دقيقة . فكل معالجة للمنهج تحتاج منا منذ البداية بأن نسلم أن لكل منهج من مناهج البحث طبيعته الخاصة به ، حيث أن كل منهج لا يلائم كل مشكلة ندرسها ، وإنما طبيعة الموضوع الذى نتناوله بالبحث هى التى تحدد إختيارنا للمنهج الملائم . ومن هنا يمكننا القول بأننا لا نستطيع أن ندرس المناهج ذاتها من فراغ . وإنما لابد أن تستند هذه المناهج بدورها على أسس نظرية ، ويجب تبريرها وفهمها فى إطار هذه الأسس [(١)] .

ولعلنا نجد أن من أهم نتائج التفرقة بين المناهج والنظريات ، ذلك التمييز الحاسم الذى يبدو فى هذه الإيام بين المنهج الكمى ، المنهج الكيفى ، بأعتبارهما طريقتين منفصلتين ، أكثر منهما متكاملتان .

إذن المناهج تعد بأختصار شديد طرق لحل مشكلات محددة ذات مضمون خاص ولعل ذلك يجعلنا ننظر الى المنهجين على أنهما يمثلا طرقا مقترحة لحل مشكلات جمع البيانات ، واستخدام ادوات البحث ، الأمر الذى يجعلنا فى

---

(١) محمد على محمد ، ١٩٨٣ ، «علم الاجتماع والمنهج العلمى : دراسة فى طرائق البحث وأساليبه» ، دار المعرفة الجامعية ، الاسكندرية ، ص ٣ .

النهاية نركز الاهتمام علي مدى ملائمة هذين المنهجين للموضوع أو للمشكلة موضوع البحث والدراسة . ويمكن أن نخلص من ذلك الى نتيجتين أساسيتين **الاولى** : هى أن المناهج هى أدوات او طرق تخدم أغراضا ملموسة ، وأن تباين الموضوعات أو المشكلات يقضى تنوع أساليب حلها وتناولها ، وهذه الغاية هى التى تحدد الحاجة الي استخدام الحلول أو المناهج الكمية او الكيفية . **والثانية:** ان المناهج لا تستخدم استخداما مجردا ، ولكنها تستخدم بأعتبارها أساس لمشكلات مادية ملموسة نحاول التوصل الى حلول لها .

ومن هنا سوف تتركز مناقشتنا لاشكالية المنهج فى الانثروبولوجيا فى التعرف على المناهج وأدوات وطرق البحث المستخدمة فى الدراسات الانثروبولوجية ، وسوف تأتى المعالجة على النحو التالى :

أولا : مناهج البحث الانثروبولوجى

ثانيا : طرق وأدوات البحث فى الانثروبولوجيا

ثالثا : بين النظرية والمنهج فى البحث الانثروبولوجى الحقلى

أولا : مناهج البحث الانثروبولوجي :

تعتمد الدراسات الانثروبولوجية على عدة مناهج وأساليب خاصة فى اجراء البحوث والدراسات الانثروبولوجية ، لعل من أهمها :

أ - المنهج التاريخى

ب - المنهج المقارن

جـ - المنهج البنائى الوظيفى .

أ - المنهج التاريخي : يستخدم مصطلح التاريخ الاجتماعى Social History للاشارة الى دراسة التغيير الذى يطرأ على المجتمع وشبكة العلاقات الاجتماعية الخاصة به ، وتطور النظم الاجتماعية ، والتحول فى المفاهيم والقيم

الاجتماعية ، وقد أرتبط هذا المصطلح بمصطلح التاريخ الاقتصادي Economic History ، وكلاهما كان نتيجة مباشرة واستجابة محددة لمصطلح التاريخ السياسى ، ويرجع الفضل فى ذلك إلى كل من إبن خلدون ، والعالم الايطالى فيكو Vico فى وضع أصول التاريخ الاجتماعى ، وقد أوضح فيكو ذلك فى مؤلفه الشهير «العلم الجديدة» حيث استطاع أن يحول الاهتمام فى التاريخ السياسى للحروب والمعاهدات إلى دراسة العادات والقوانين والأنظمة الاقتصادية والاجتماعية .

أما العالم العربى الشهير عبدالرحمن بن خلدون ، فقد عَرف التاريخ تعريفًا اجتماعياً فى مقدمته بقوله « يهدف التاريخ الى إعطائنا صورة واضحة عن الحياة الاجتماعية للانسان ، يعنى حضارة الانسان ، ويهدف كذلك إلى تعريفنا للظواهر الاجتماعية التى ترتبط بهذه الحضارة ، وإلى معرفة الحياة البدائية والاخلاق وروح الأسرة والقبيلة وفوارق الطبقات وجميع التغيرات التى تحدثها الطبيعة الخاصة بتلك الأشياء على أعضاء المجتمع . لذلك رأى أن علم العمران البشرى يهتم بدراسة التاريخ الاجتماعى على هذا النحو ، بحيث يبحث فى مسائل الاجتماع الانسانى والعمران البشرى وما يلحق بها من عوارض .

ومنهج التاريخ الاجتماعى عند إبن خلدون ، أو الدراسة الاجتماعية للتاريخ يُعد منهج ديناميكى بالضرورة يسير مع حركة التاريخ ويستوعب تطور الحياة الاجتماعية وانتقالها من حالة الي أخرى ، ذلك لان أحوال الأمم وعوائدهم ونحلهم لا تدوم على وتيرة واحدة ومنهاج مستقر ، وإنما هى اختلاف على مر الأيام والأزمنة وانتقال من حال إلى حال ، ويرجع هذا الاختلاف أو التباين فى أحوال المجتمعات الى عوامل عديدة اقتصادية وجغرافية وثقافية ، ذلك أن المجتمع عند ابن خلدون شأنه شأن الفرد يمر بمراحل منذ ولادته حتى وفاته تبدأ بمرحلة البداوة وتنتهى بمرحلة الاضمحلال ، يتوسطها مرحلتين هما مرحلة الملك ، ومرحلة الترف والنعيم أو الحضارة .

وفى الانثروبولوجيا أو علم الانسان يؤكد أصحاب المدرسة التاريخية على أهمية مفهوم التاريخ الثقافى Cultureral History ، فيذهب ميتلند Maitland إلى أن : «الانثروبولوجيا عليها أن تختار بين أن تكون تاريخية أو لا تصبح شيئا على الاطلاق » وأكد بول رادين P. Radin نفس العبارة كمقدمة فى مؤلفه «منهج الاثنولوجيا» ، ويذهب بيركت سميث K. Birket Simith إلى أن «الحاضر لا يمكن فهمه الا كنتاج للماضى» لذلك فإن المشكلة الحيوية للاثنولوجيا - كما يفهمها - يتعين أن تكون مشكلة تاريخية كذلك أفتتح سابير E. Sapir مقاله الكلاسيكى الشهير عن «منطور الزمان» بقوله «إن الأنثروبولوجيا الثقافية تتجه أكثر فأكثر نحو الاعتراف بأنها علم تاريخى أساسًا. فالمعلومات التى نحصل عليها يتعذر فهمها سواء فى ذاتها أو فى صلتها بعضها ببعض إلا بوصفها نهاية تتابع معين للاحداث التى تضرب بجذورها فى الماضى السحيق ، ومن الضرورى أن يتحقق عندنا نوع من الفهم التاريخى للوقائع بوصفها الهدف الاثنولوجى الخاص بالباحث .

وعموما ، فإن مصطلح التاريخ الثقافى يكتسب معناه الحقيقى ودلالته فى ضوء علم المناهج ، وتنقسم المناهج فى هذا الصدد قسمين : قسم انثروبولوجى ، قسم وضعى تاريخى .

أما القسم الانثروبولوجى فهو يعطينا المداخل التى يمكن بواسطتها الكشف عن اعتبارات الزمان وصياغتها فى تصورات ثقافية محددة ، أما القسم التاريخى فهو الوسيلة التى بواسطتها ستصبح تلك النتائج منظورات تاريخية صادقة ومفيدة بالنسبة للشعوب التى ندرسها ، والنتاج النهائى لذلك كله هو التاريخ الثقافى .

وهكذا تحتل الثقافة فى الانثروبولوجيا مكانة رئيسية ، ويُعد البحث التاريخى للثقافة مطلبًا هاماً وحيويا بالنسبة للانثروبولوجيا الثقافية ، ويعكس هذا الاهتمام دراسة نشأة الثقافة وتطورها وأصولها ، وعملية اعادة بناد تاريخ

الثقافة ، وتقوم هذه الدراسة على اساس دراسة توزيع الخصائص الثقافية وتحليلها ثم التحقق من مدى امكانية حدوث احتكاكات واتصالات بين الوحدات الثقافية ، بل يمكن أن تكشف أيضا التتابع الزمنى الذى ظهرت فيه هذه الاحتكاكات والاتصالات .

أما علماء التأويل التاريخى للثقافة من أمثال كروبير Kroeber فإنهم يرون يرى أن التاريخ هو فى جوهره محاولة لاعطاء وصف دقيق لموضوع الدراسة ، وليس معالجة التتابعات الزمنية ، ولهذا اعتقد أنه يمكننا الاعتماد على المنهج التاريخى فى دراسة الاحداث والوقائع الحالية ، وكذلك في دراسة الظواهر التى تحدث في زمن محدد ، وهو ما يُعرف بأسم الدراسات المتزامنة Synchronic ، هذا فضلا عن دراسة الظواهر التى تحدث فى أزمان متعددة Diachronic فكأن ماهية التاريخ لا تنحصر فى عنصر الزمن كما أن الذى يميز الدراسة التاريخية هو الوصف التحليلى لأية مجموعة من الظواهر الثقافية فى موقف معين بالذات . وعلى ذلك فإن الدراسة التاريخية تأخذ فى اعتبارها عنصر الزمان الى جانب عنصر المكان ، وهذا هو المحك الاساسى الذى تقوم التفرقة عليه بين العلم والتاريخ ، ولا شك أن هذا الاصرار على أهمية المنهج التاريخى فى دراسة الثقافة يوجد لدى كثير من علماء الانثروبولوجيا الثقافية [1] .

وعلى ذلك ، فإن الاهتمام بتاريخ الانسان يعتبر من بين المصادر الأساسية للدراسات الانثروبولوجية وقد تمثل ذلك فى الدراسات المقارنة للمجتمعات والنظم الاجتماعية ، وفى محاولة اعادة بناء تاريخ مجتمعات بعينها ، فقد إعتمد كل من فولتير Voltaire وجوستاف كلم Gustav Klemm وسيرهنرى مين Sir Henry Maine وماكلينان J.F. Mclenain وباخوفن Bachofen وفوستيل دى كولانج Fustel de Coulanges ولويس مورجان L.H. Morgan وادوار تايلور

---

(١) احمد ابو زيد ، «البناء الاجتماعى جـ ١ ، المفهومات » ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، الاسكندرية ، ص ١٤٠ .

E.B.Tylor اعتمدوا جميعا على المصادر التاريخية فى إقامة علم اجتماع مقارن عن الثقافة والمجتمع . واذا انتقلنا الى الدراسات الانثروبولوجية الامريكية المعاصرة سنجد إيضا اهتمام واضح بالمصادر التاريخية فيما يعرف اصطلاحا بأسم «الذاكرة الثقافية» Memory Culture حيث تحاول المدرسة التاريخية ان تعتمد على ذاكرة كبار السن من القبائل الهندية لكى تحصل على معلومات عن ثقافة هذه القبائل .

ويعتمد علماء الانثروبولوجيا والمهتمين بتاريخ الشعوب على ثلاث مصادر ومناهج رئيسية فى تحقيق أهدافهم هى :

١ - الوثائق المكتوبة Written Documents فبرغم الصعوبات التى تواجه الاعتماد على هذه الوثائق ، وخاصة فى المجتمعات التى لا توجد عنها وثائق مدونة ، إلا أن محاولات حديثة تبذل لجمع مادة يمكن الاعتماد عليها فى تكوين بعض المعلومات المنظمة عن هذه المجتمعات .

٢ - التراث الشفهى Oral Traditions ، حيث يغطى التراث الشفهى أنواع متعددة من الظواهر والانظمة والعلاقات الاجتماعية ، ويمكن ن نعثر على التراث الشفاهى من دراسة هذه الظواهر الاجتماعية ، حيث تكشف عن أهمية الاعتماد على هذا المصدر في البحوث التاريخية الانثروبولوجية .

٣ - البحث الحقلى Field Work ، حيث يمثل البحث الحقلى القائم على الملاحظة بالمشاركة وجمع البيانات من الواقع مصدرا رئيسيا للمعلومات ، وجزءا رئيسيا من تدريب الباحث الأنثروبولوجى ، وذلك بهدف ابراز الوظائف المختلفة للانساق الاجتماعية والعلاقات المتبادلة بينها الى جانب تقديم وصف دقيق ومتكامل للحياة الاجتماعية فى مجتمع او ثقافة معينة ، وهذا لن يتم الا من خلال اجراءات وأساليب البحث الحقلى .

ب - **المنهج المقارن** : يمكن القول بأن المنهج المقارن ينطبق علي علم الانثروبولوجيا بكل فروعه ومجالات دراسته ، حيث أن أى بحث انثروبولوجى ينطوى بالضرورة على مقارنات بين بعض المتغيرات ، ويكتسب المنهج المقارن دلالة خاصة في البحث الانثروبولوجى ، حيث يقصد به عادة دراسة توزيع الظواهر الاجتماعية فى مجتمعات مختلفة، أو أنماط محددة من المجتمعات ، وكذلك مقارنة النظم الاجتماعية الرئيسية من حيث استمرارها وتطورها والتغير الذى يطرأ عليها ، أو حتى مقارنة مجتمعات بعضها ببعض .

أما عن مجالات البحث المقارنة فى الانثروبولوجيا فهى تتلخص فيما يلى:

١ - دراسة أوجه الشبه والاختلاف بين الانماط الرئيسية للسلوك الاجتماعى، ويشمل ذلك أيضا دراسة السلوك السياسى للافراد مثل التصويت فى الانتخابات وغيرها ، وكذلك دراسة السلوك الاجرامى ومعدلات الجرائم فى المجتمع وأنماطها فى مجتمعات مختلفة .

٢ - دراسة نمو وتطور مختلف أنماط الشخصية ، والاتجاهات السيكولوجية والاجتماعية فى مجتمعات مختلفة وثقافات متعددة ، وتمثل هذه الدراسات بحوث الثقافة والشخصية ودراسات الطابع القومى National character [(١)] .

٣ - دراسة النماذج المختلفة من التنظيمات Organisations ، وخصوصا التنظيمات البيروقراطية مثل النقابات العمالية والتنظيمات السياسية والصناعية والمهنية فى مجتمعات مختلفة .

٤ - دراسة النظم الاجتماعية Social Institutions ، والتى بالضرورة تنقسم الى أقسام فرعية ، مثل تحليل المعايير النظامية العامة أى دراسة نظم الزواج والأسرة والقرابة ، ثم دراسة الأنساق الثقافية قبل المعتقدات الدينية،

---

(1) Nadel, 1958, "Foundations of Social Anthropology", Glencoe' The Fress, p. 228.

ودراسة العمليات التى تطرأ على المجتمع مثل التحضر والديموقراطية ، ودراسة النظم الفرعية مثل العادات والفولكلور ، وهي دراسات ذات صلة وثيقة بالأنساق الثقافية .

٥ - تحليل ومقارنة مجتمعات بأكملها ، فعادة ما تتم المقارنة بين المجتمعات وفقا للنمط الرئسى السائد للنظم الاجتماعية والثقافية الموجود فيها.

أما الصعوبات المنهجية والنظرية ، فإن بناء الأنماط من أجل المقارنة يطرح عدداً من المشكلات المنهجية والنظرية يمكن تلخيصها على النحو التالى :

١ - مشكلة اختيار وحدة المقارنة التى على أساسها سوف تتحدد المتغيرات الرئيسية فى البحث .

٢ - مشكلة تحديد المؤشرات الى نقارن على أساسها بين المتغيرات ، حيث تختلف هذه المؤشرات تبعا لاختلاف وحدة المقارنة .

٣ - مشكلة إمكانية المقارنة comparability بالنسبة لكل وحدة من وحدات المقارنة .

٤ - مشكلة المعاينة Sampling ، فالعينات الصغيرة نسبيا لوحدات المقارنة تثير تساؤلا عن مدى إمكانية صياغة مقارنات متعمقة تجريبية، والمشكلة المنهجية القائمة بالنسبة للعينات عموما هى مدى تمثيل هذه العينات للمجتمع الأصلى ، ففى الدراسات المقارنة التى تهدف إلى أختبار الفروض أو القضايا العامة ، تكون درجة تمثيل الوحدات المقارنة للمجتمع الأصلى الذى تنتسب اليه مسألة بالغة الأهمية .

وهذه الصعوبات المنهجية تختلف عادة بأختلاف المادة اللازمة للتحليل المقارن [1].

---

(1) Warwick, D., & Samuel Osherson, "Comparative Research Methods, "N.J., Prentice Hall, 1973. pp. 34 - 47.

جـ – **المنهج البنائي الوظيفي** : بعد أن تطورت الانثروبولوجيا فى الفترة التى أعقبت الحرب العالمية الأولى ، ظهرت اتجاهات جديدة تحاول أن تتجنب الصعوبات والمشكلات التى صاحبت استخدام وتطبيق المنهج المقارن تطبيقا تقليديا . وبذلك ظهر ما يعرف الآن فى الدراسات الأنثروبولوجية باسم «الاتجاه الوظيفى» الذى أخذ أصحابه يؤكدون على أنهم يدرسون الظواهر فى إطارها وسياقها الكلى ، لهذا فهم يبتعدون عن المقارنات التى حاولت أن تعزل النظم الاجتماعية عن سياقها البنائى عزلا تحكميًا .

لكن الشى الملاحظ فى الوقت الحاضر هو أن العلماء الوظيفيين لازالوا يعتبرون المقارنة عظيمة الفائدة بل يصعب الاستغناء عنها فى دراساتهم ، لذلك فقد ذهب بعض العلماء إلى أن الاتجاه الوظيفى يهدف الى التوصل الى تعميمات تتعلق بالصلات المتبادلة بين النظم فى المجتمعات ذات الطبيعة الخاصة، وإلى تصنيف هذه المجتمعات حتى يمكن إدراك التشابه بينها ، والمقارنة بينها فى محاولة لاكتشاف بعض مظاهر التماثل بين هذه الوحدات البنائية ، ومعنى ذلك ان الوظيفة سوف تستعين بالطريقة المقارنة استعانة مباشرة لتحقيق أهدافها . ومن هنا اكتسب البحث المقارن أهمية خاصة وتدعيما قويا بعد ان كتب نادل Nadel بعض الدراسات الانثروبولوجية ، والتى أكد فيها على الحاجة الملحة والماسة لدراسة الوقائع الاجتماعية فى مواقف صناعية تمكننا من المقارنة بينها ، وهو يؤكد أن علماء الانثروبولوجيا يتمسكون دائما بالسياق الأشمل ، ويتمكنون من عزل العناصر عن سياقها دون أن تفقد معناها [1] .

لذلك حاول المنهج البنائى الوظيفى المزاوجة بين المنهج المقارن، والاتجاه الوظيفى فى الدراسات والبحوث الانثروبولوجية ، حتى يتمكن من دراسة الظواهر الاجتماعية فى سياقها الكلى من ناحية ، والتعرف على الأدوار

---

(1) Nadel., op.cit. p. 230.

والوظائف التى يؤديها كل نظام من النظم الاجتماعية من ناحية اخري ، لمعرفة طبيعة البناء الاجتماعى Social Structure للمجتمع ككل .

وحتى تتضح لنا صورة هذا المنهج نعطى مثالا لتلك الدراسة الشهيرة والرائدة فى مجال الدراسات الانثروبولوجية الحقلية ، والتى قام بها مالينوفسكى Malinowski ليوضح التداخل بين الظواهر الاجتماعية وتفسيرها فى اطار بنائى ووظيفى ، تلك الدراسة التى ضمنها كتابه الذى يحمل عنوان Agronuts of the western Pacific الذى نشره فى عام ١٩٢٢ ، حيث استخدم المنهج البنائى الوظيفى فى دراسة النشاط الاقتصادى الذى يمارسه سكان جزر التروبرياند والذى يعرف بنظام الكولا Kual System حيث يدخل سكان هذه الجزر مع سكان بعض الجزر المجاورة فى نوع من التحالف أو الاتفاق يهدف الى تبادل أشياء وسلع معينة تتألف من «عقود» طويلة من الصدف الأحمر ، «وآساور» من الصدف الأبيض ، ويتألف نسق التبادل فى أن العقود تنتقل من مجتمع لآخر في اتجاه واحد لا يتغير حول محيط الدائرة التى تنظم تلك الجزر ، بينما تنتقل الأساور فى الإتجاه المضاد ، وهذه السلع لا تحمل قيمة عملية على الاطلاق بقدر ما لها من قيمة شعائرية وطقوسية ، كما أنها تتصل اتصالا وثيقا بالمركز الذى يحتله الفرد فى المجتمع [1] .

ولقد كانت المدارس التاريخية المختلفة فى الأنثروبولوجيا ، وبخاصة فى المدرسة الامريكية ، تنظر الى الثقافة عموما ، بأعتبارها مجموعة من العناصر غير المتصلة ، بل والمتباينة فى نشأتها ، إلا أن البعض قد تصدى لهذا المفهوم، وبخاصة العلماء الوظيفيين وعلى رأسهم برونيسلاو مالينوفسكى ، حيث تتخذ الوظيفة عنده جانبين الاول : يذهب الى أن كل ثقافة هى عبارة عن كيان كلى

---

(1) Malinowski, B., "Argonauts of the western Pacific", . London, Rouledge & Kegn Paul, 1992, pp. 22-44.

وظيفى متكامل شبيهه بالكائن الحى ، ولا نستطيع ان نفهم أى جزء من أى ثقافة إلا فى ضوء علاقته بالكل . الجانب الثاني : هو محاولة تحديد الوظيفة النهائية للثقافات الانسانية ، وتفسير وجودها فى المجتمعات [1]، وهنا يبرز مفهوم الوظيفة الثقافية، فى حين يوجه «رادكليف براون» R. Brown اهتمامه إلى دراسة المجتمع لا الى الثقافة ، فيؤكد أن المجتمع يتكون من اجزاء متداخله وظيفيا ، وهو بذلك يسعى الى تحقيق الاهداف التالية :

١ – الوصف الدقيق للاداء الوظيفى للأبنية الاجتماعية الموجودة فى المجتمعات الانسانية ، مؤكدا على دورها فى الحفاظ على البناء الاجتماعى .

٢ – التصنيف المنهجى للظواهر الاجتماعية .

٣ – صياغة القوانين العامة التى تحكم الظواهر الاجتماعية.

لذلك فان المنهج البنائى الوظيفى يهتم اهتماما كبيرا ببناء الثقافة ، والعلاقة القائمة بين أجزائها ، كما يهتم ايضا بدراسة المجتمع والثقافة والعلاقات المتداخلة والمتشابكة بينهما ، والتى تتساند مع بعضها تساندا وظيفيا .

ثانيا : طرق وأدوات البحث الانثروبولوجي :

لقد أصبحت الانثروبولوجيا علما يعتمد علي مناهج متخصصة فى البحث ، الى جانب أنها اصبحت فنا بممارستها بعض الطرق الأدوات الفنية الدقيقة فى اجراء بحوثها الحقلية . هذا فضلا عن النظريات الخاصة به كعلم متخصص من العلوم الانسانية . وقد أصبحت الفكرة القائلة «بأنه يتعين على الانثروبولوجى أن يبحث بنفسه عن البيانات التى تحتاج اليها دراساته بدلا من الاعتماد على

---

(١) محمد محمود الجوهرى ، ١٩٩٥ «الانثروبولوجيا: أسس نظرية» ، دار المعرفة الجامعية ، اسكندرية ، ص ٢٩ .

كتابات الرحالة» فكرة شائعة فى أواخر القرن التاسع عشر ، فقد قام فرانز بواس Boas بدراسات عن الأسكيمو بين عامى ٨٨٣ - ١٨٨٤ ، ثم قام هادون Hadon فى انجلترا على رأس بعثة جامعة كبمردج لدراسة منطقة مضايق توريس Torres Straits فى المحيط الهادي بين عامى ١٨٩٨ - ١٨٩٩ ، وكانت هذه المرحلة علامة مميزة فى تشكيل الانثروبولوجيا كعلم يحتاج إلى التخصص والتفرع ، ويعتمد على الخبرة الحلقية ، بأعتبارها عنصرا جوهريًا فى تمرين الطلاب وتدريب الدارسين لهذا العلم[1].

أما عالم الانثروبولوجيا الشهير مالينوفسكى ، فهو الذى عمل على تدعيم البحث الحقلى فى ميدان الانثروبولوجيا ، فقد قام بدراسة لسكان جزر التروبرياند Trabriandفى ميلانيزيا أمضى فيها أربع سنوات من عام ١٩١٤ - ١٩١٨، وهى فترة تطول كثيرا عن المدة التى أمضاها أى باحث انثروبولوجى من قبل ، كما كان مالينوفسكى أول انثروبولوجى يستخدم لغة الأهالى فى اجراء البحث ، وكان كذلك أول من عاش مع الاهالى وبطريقتهم الخاصة طيلة مدة الدراسة . وترجع أهمية دراسات مالينوفسكى الحقلية إلى أنها أكدت أن فهم الحياة الاجتماعية لدى شعوب من الشعوب لن يتحقق الا اذا درست دراسة مركزة ، كما كان يؤمن بأن القيام بدراسة حقلية مركزة واحدة على الأقل فى مجتمع يؤلف جزءًا ضروريا من تدريب الباحث الانثروبولوجى .

ومعنى هذا أن الدراسة التكاملية Intergerative study فى الانثروبولوجيا لن يتحقق الا اذا اتصل الباحث اتصالا مباشرا وثيقا بالمجتمع والثقافة التى يتناولها ، وهذا ما يعرف بالدراسة الحقلية Field Study . أى أن الباحث عليه أن يعايش المجتمع ويلاحظ نظمة ملاحظة مباشرة ودقيقة .

---

(١) احد أبو زيد ، ١٩٥٦ ، «الطريقة الانثروبولوجية فى دراسة المجتمع ، حوليات كلية الآداب ، جامعة الاسكندرية ، المجلد العاشر ، ص ٣ - ٥ .

وعموما ، فإن أهم الطرق والأدوات المستخدمة فى البحث الانثروبولوجى يمكن ذكرها على النحو التالى :

(١) الملاحظة بالمشاركة Participant Observation

(٢) الاعتماد على الأخبارين Informants

(٣) الاقامة فى مجتمع البحث

(٤) اجراء المقابلات

(٥) استخدام ادوات التسجيل (الكتابة ، الصوتية ، والمرئية .. الخ).

(٦) دراسات الحالة Case studies

أما عن اداة الملاحظة بالمشاركة فهى تتلخص فى أن يعيش الباحث أو القائم بالملاحظة مع الاشخاص المطلوب ملاحظتهم لفترة زمنية طويلة نسبيا ، قد تمتد الى ما يقرب من العام ، وذلك للتعمق فى فهم خصائصهم الاجتماعية والثقافية والسلوكية والاقتصادية ، وقد أستخدمت هذه الطريقة في البحوث الانثروبولوجية، وبخاصة فى دراسة مجتمعات كلية وثقافات وأحياء ومدن ومصانع وجماعات ، ويتعين على الباحث الملاحظ المشارك أن يبتعد عن التحيز لفئة من الفئات فإذا قام بدراسة مصنع مثلا فإن عليه أن يدرس العمال والادارة دون أن يتحيز الى جانب فئة معينة منهم ، وهو يندمج فى الواقع الذى يعايشه ، ولكنه يحاول قدر المستطاع ان يصوره تصويرا موضوعيا .

وهنا لابد من الاشارة الى الالتزام الاخلاقى للقائم بالملاحظة ، فإستخدام الملاحظة المشاركة يقتضى من الباحث الاقامة الكاملة فى مجتمع الدراسة والاندماج مع أعضائه ، وهو فى هذه الحالة يتعرف علي كل ما هو «تحت السطح» Beneath the surface ومن ثم يواجه مشكلة وبخاصة عند مرحلة كتابه تقرير البحث ونشره ، فهل يخضع فى سلوكه لمتطلبات العلم التى تقتضى منه الصدق والتزام الصدق المطلق ؟ أم أنه يحذف بعض الأمور الى تمثل

خصوصيات المجتمع او الجماعة ، والتى استطاع ادراكها من خلال العلاقة الوثيقة التى تطورت أثناء اجراء البحث ، وربما يكون فى حذف هذه المعلومات واخفائها تشويهًا لنتائج البحث ، ومن المؤكد أن الباحث قد التزم بأنه لن يحدث ضررا لأولئك الذين حصل منهم على المعلومات ، لذلك فان مواجهة المعضلة يعتمد الى حد كبير على اخلاقيات الباحث القائم بالملاحظة المشاركة . لذلك يلجأ الباحث إلى تعريف بعض أفراد المجتمع المستنيرين بمهمته الاساسية ، والتى من الممكن أن يستفيد منها أعضاء المجتمع إنفسهم فى البرامج التى تهدف صالح أعضاء المجتمع ، ولن تضير المجتمع بأى حال من الأحوال .

أما طريقة الاعتماد على الاخبارين : فهى تعتمد على الاستعانة ببعض المرشدين أو بعض الاخبارينInformants الذين يكونون فى العادة من السكان الأصلين للمجتمع نفسه ، ويقومون بدور أساس يتمثل فى تقديم المجتمع للباحث، وتعريفه بمختلف ظواهره، كما يكون لهم دور فى تعليم الباحث الانثروبولوجى لغة الأهالي ، لكن ذلك لا يعنى ان يكتفى الباحث الانثروبولوجى بتلك المعلومات والتفسيرات التى يحصل عليها عن طريق الاخبارين ، بل عليه ان يتحقق بنفسه من كل ما يذكر أو يقال له ، ومن. ثم فإنه يتخذ من الاخبارين مدخلا للاندماج فى المجتمع والتعرف عليه ، لذلك لابد أن يستعين الباحث الانثروبولوجى فى دراسته الحقلية بعدد من الاشخاص الذين يشغلون مراكز واوضاع اساسية فى مختلف قطاعات البناء الاجتماعى ويفترض ان يكون لدى هولاء الاخبارين معرفة تفصيلية بالثقافة السائدة ، وهذا لا يمنع من أن يعتمد الباحث بصفة دائمة على أخبارى أساسى بخيث يعتبره معاونًا أساسيا له فى الدراسة .

ومن بين المواد التى يفيد فيها الباحث الانثروبولوجى ، والتى يحصل عليها من. بعض الاخباين ، تلك المادة المسجلة سواء كانت صورا فوتوغرافية ، أو اشرطة تسجيل مسجل عليها مواد ثقافية عديدة ، أو افلاما لبعض الانشطة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية ، يمكن أن تفيد الباحث فائدة محققة فى اجراء

بحثه والالمام بعناصر البناء الاجتماعى لمجتمع بحثه .

والاقامة فى مجتمع الدراسة تتطلب ضرورة ان يتعلم الباحث اللغة الوطنية التى يتحدث بهاالاهالى ، لأنه حين يتكلم لغة المجتمع ، فإنه يتعلم فى نفس الوقت ثقافتهم ونظمهم الاجتماعية اللذان يتبلوران فى مصطلحات تلك اللغة والفاظها ، فكل شىء فى حياة الاهالى الاجتماعية يعبر عنه إما فى شكل الفاظ ، أو فى شكل افعال ، أى إما بالقول أو العمل . وحينما يصل الباحث الى فهم معانى كل كلمة من كلمات تلك اللغة وطريقة استعمالها فى مختلف المواقف والمناسبات يكون قد أستكمل دراسة المجتمع .

أما عن المقابلة ، فهى أداة للبحث تمثل الحوار اللفظى الذى يتم وجها لوجه بين الباحث القائم بالمقابلة وبين شخص اخر أو مجموعة أشخاص آخرين .

وعموما ، فان المقابلة تتكون من ثلاث عناصر متميزة هى :

أ - القائم بالمقابلة Interviewer

ب - المبحوث Interviewee

جـ - موقف المقابلة The situation of Interview

وهناك ارتباط وثيق بين العناصر الثلاثة علي نحو يؤثر فى النتائج العامة للمقابلة ، ويتوقف نجاح المقابلة الى حد كبير على مهارة الباحث القائم بها ، ومدى فهمه لدوافع السلوك ، مبلغ وعيه وادراكه لمختلف العوامل فى الموقف المحيط به ، والتى تدفع المبحوث فى بعض الاحيان الى الوقوف موقفا سلبيا من الباحث أو اعطاء بيانات محرفة لا تتسم بالثبات والصدق .

والمقابلة فن يحتاج الى مهارة وخبرة ومران وتدريب يكتسبها الباحث عن طريق الممارسة العملية والنزول الى الميدان ، والاحتكاك بجمهور البحث ، والقدرة على النفاذ الى دوافع السلوك ، ومكونات الشخصية ، وأساليب الاتصال والتأثير . لذلك فان المقابلات التى يعقدها الباحث مع اعضاء المجتمع، من شأنها

أن تجعله قادرا على ادراك الدلالات المختلفة لأنماط السلوك والعلاقات الوظيفية بين الظواهر والنظم السائدة [1] .

ويستطيع الباحث ان يختار موضوعات المقابلة بالاعتماد على بعض المؤلفات المتاحة لدى الانثروبولوجيين ، والتى تقدم لهم دليلا عاما للدراسة الحقلية، وأكثر هذه المؤلفات شيوعا هى «موجز المواد الثقافية» ميردوك Merdouck ١٩٦٠، والدليل الذى أصدره المعهد الملكى للانثروبولوجيا فى بريطانيا عام ١٩٥١ بعنوان Notes and queries on Anthropology ويحتوى الدليل الاول على ثمانين فئة عامة تنقسم الى ٦٣٣ موضوعا ، يضم كل منها مابين ٥ - ٢٠ موضوعا متخصصا للبحث ، هذا فضلا عن ان الباحث يستطيع ان يستعين ايضا بمؤلفات أخرى مخصصة لميادين محددة بالذات مثل تنشئة الاطفال Socialization ، وهى تستخدم جميعا كأساس للمقابلات .

أما عن الادوات المستخدمة فى البحث الانثروبولوجى ، فهى متعددة تبدأ بالتسجيل اليومى الكتابى فى جمع المادة الاثنوجرافية Ethnographic Data من الميدان يتخللها استخدام مجموعة مختلفة من ادوات جمع المادة ، سواء كانت ادوات تستخدم للتسجيل الصوتى (كاست) او تصوير فوتوغرافى للحياة اليومية فى المجتمع ، حتى ايضا التصوير المرئى ، أو ما يعرف بالانثروبولوجيا المرئية .

أما دراسة الحالة ، فهى تمثل أداة تحليلية للسلوك والمواقف الاجتماعية، وطريقة للتعمق الكيفى فى فهم الظواهر ، والحالة التى يدرسها الباحث قد تكون شخصا أو جماعة مثل الاسرة أو مجتمع محلى ، والهدف من دراسة الحالة هو البحث التفصيلى لكافة جوانب الحالة المراد دراستها ، ومن ثم يحاول الباحث أن

---

(١) محمد على محمد ، مرجع سابق ، ص ٢٦٤ .

يجمع أكبر قدر ممكن من المعلومات عن هذه الحالة ، وبخاصة تلك المعلومات التى تتصل بتاريخ حياة الحالة وتطورها . ويمكن استخلاص أهم خصائص دراسة الحالة على النحو التالى :

١ - انها طريقة للحصول على معلومات شاملة عن الحالة المدروسة .

٢ - أنها طريقة للتحليل الكيفى للظواهر والحالات .

٣ - انهـا طريقـة تهـتم بالموقف الكلى وبمختلف العـوامل المؤثرة فـيـه والعمليات التى يشهدها .

٤ - انها طريقة تتبعية ، أى أنها تعتمد اعتمادا كبيرا على عنصر الزمن، ومن ثم فهى تهتم بالدراسة التاريخية .

٥ - أنها منهج ديناميكى لا يقتصر علي بحث الحالة الراهنة .

٦ - أنها منهج يسعى الى تكامل المعرفة ، لأنه يعتمد على اكثر من أداة للحصول على المعلومات .

ثالثا : بين المنهج والنظرية في البحث الحقلي الانثروبولوجي :

تواجه البحوث الاجتماعية - عموما - معضلة منهجية فريدة ، ألا وهى أن ظروف البحث فى ميادين هذه العلوم تشكل متغيرا مركبا شديدا يؤثر تأثيرا مباشرا فيما تخلص اليه البحوث من نتائج ، ومن ثم يستخدم مصطلح البحث الحقلى Field Research لكى يعنى فى الحقيقة موقفا منهجيا محددا وصريحا يعترف بأن الباحث الاجتماعى يلعب دورا رئيسيا فى عملية الحصول على البيانات ، ويرتبط هذا المصطلح اساسا باداة بحثية معينة هى اداة الملاحظة بالمشاركة Participant observation التى تستخدم استخداما رئيسيا في البحوث الانثروبولوجية الاجتماعية والثقافية ، اذ استطاع الانثروبولوجيون بأستخدام هذا التكنيك جمع تراث هائل حول مختلف الثقافات والمجتمعات ،

دون أن يحظى هذا التراث - للاسف - بمحاولة نظرية تستهدف تصنيفه ووضع الأساس التفسيرى له ، لكن طريقة الملاحظة بالمشاركة أصبحت تشكل لب المنهج الانثروبولوجى فى الدراسة الحقلية ، اذ تقتضى من الباحث ان يقيم فترة كافية من الزمن فى المجتمع محل الدراسة ، يستطيع معها ان يتعرف على الوظائف المختلفة - الظاهرة والكامنة - التى تؤديها النظم الاجتماعية أو العناصر الثقافية ، ويعتقد الانثروبولوجيون أن هذه الطريقة سوف تمكن الباحث من جمع اكبر قدر ممكن من البيانات والمعلومات ، ووصف الحياة الاجتماعية والثقافية وصفا تفصليا دقيقا ، يستطيع الباحث أن يكتب بعدها تقريرا متكاملا ومفصلا عن هذا المجتمع أو تلك الثقافة التى يدرسها .

ومن هنا لابد من الوقوف على بعض المشكلات المنهجية فى البحث الانثروبولوجى الحقلى ، أن المشكلات الخاصة بالملاحظة والتفسير والتسجيل وملاءمة البيانات للنظرية تظهر بوضوح فى البحث الحقلى لان الملاحظة جزء من الميدان الذى يعمل فيه .

والمشكلة المنهجية الرئيسية فى هذا الصدد نتيجة للفروق بين الواقع الطبيعى، كما يصفه عالم الطبيعة والواقع الاجتماعى كما يصفه العالم الاجتماعى ، ولقد حدد الفردشوتز A.Shutz هذا الفارق فى هذه الفقرة التالية :

«ان هذه الامور ترجع الى الحقيقة التى مؤداها ان هناك فارقا جوهريا فى بناء الافكار والمفاهيم التى يكونها المتخصصون فى العلوم الطبيعية» .

فمن اليسير بالنسبة للعالم الطبيعى ان يحدد فى ضوء القواعد الاجرائية للعلم الذي يتخصص فيه مجال ملاحظته وأن يحدد أيضا الوقائع ، والبيانات، والحوادث الملائمة لمشكلته أو لبحثه العلمى الذى يقوم به .

ولا يتضمن العالم الطبيعى كما يستكشفه عالم الطبيعة أية معانى خاصة اكثر من الجزيئيات ، او الذرات ، أو الاكترونات كما توجد بالفعل . أما مجال

الملاحظة بالنسبة للباحث الاجتماعى ، أى الواقع الاجتماعى ، فان له معنى محدد وبناء يناسب الكائنات الانسانية التى تعيش ، وتفكر ، وتتفاعل فيه. ولقد استطاعت هذه الكائنات أن تفسر هذا الواقع من خلال خبرتها اليومية المباشرة ومن ثم يصبح على الباحث الاجتماعى أن يصوغ مفاهيمه وافكاره ، التى سوف يدرس بها الواقع فى ضوء التفسيرات التى طورها الناس خلال حياتهم اليومية وبدون ذلك تصبح دراسته منعزلة عن حياة الناس وافكارهم ، أى منعزلة عن الموضوع الذى يدرسه اصلا.

وإن كان الملاحظ ليس جزءا من المجال السلوكى الذى يدرسه . وعموما فان الملاحظة كجزء من مجال السلوك الذى يدرسه يصطحب معه مجموعة من المعانى والافكار الملائمة التى تمكنه من الدخول الى البيئة التى يدرسها ويلاحظها عند هذه النقطة تواجهه بعض المشكلات ، نذكر منها ما يلى :

١ – أن عليه ان يفسر سلوك الاشخاص الذين يلاحظهم وفقا للمعانى التى تسود فى حياتهم اليومية .

٢ – أن عليه ان يُكون تصورا نظريا يأخذ فى اعتباره قيم واتجاهات ومعانى السلوك الذى يلاحظه على نحو يسمح له بعقد صلات شخصية متبادلة مع الاشخاص والجماعات التى يدرسها .

٣ – أنه لن يستطيع ان يكون علاقة اجتماعية حميمة فى الواقع الاجتماعى دون ان يتجاهل ولو جزئيا اتجاهه العلمى .

والواقع أن الاعتبارات السابقة تطرح امامنامشكلة رئيسية وهى كيف نثق فى المعلومات التى يتضمنها الباحث الحقلى فى بحثه من الناحية العلمية والى اى مدى نستطيع ان نقيم على اساسها نظريات تفسيرية؟

والحقيقة أننا يجب ان نسلم منذ البداية بأن الواقع الاجتماعى متميز ومختلف تماما عن الواقع الطبيعى وهذا الاختلاف يقتضي من الباحث موقفا واتجاها خاصا يتلائم مع طبيعة الموضوع الذى يدرسه .

وعموما فأن معظم الدراسات الحقلية الحديثة تلجأ الى طيرقة فى الحصول على المعلومات تحاول بها أن تتجنب الذاتية فى البيانات بقدر المستطاع وتقوم هذه الطريقة على استخدام ما يعرف بفريق البحث Tem Work.

ويمكن ان تحقق هذه الطريقة قدرا كبيرا من الدقة والثبات والصدق فى المعلومات التى حصل عليها عن طريق البحث الحقلى .

وهناك مشكلة اخرى تظهر فى العديد من البحوث الحقلية إذ عادة ما تبدأ هذه البحوث بعملية الملاحظة وجمع المعلومات دون أن يوجه الباحث منذ البداية اطار نظرى واضح المعالم وافتراضات محددة ومفاهيم نظرية مختارة، لذلك يجب على الباحث الحقلى ان يطور هذا الاطار النظرى إما اثناء جمع المعلومات او حينما يشرع فى كتابه تقرير بحثه .

أما عن تقويم البحث الحقلى ، فسوف نحاول التركيز على مميزات ومشكلات طريقة الملاحظة بالمشاركة ومدى فائدتها بالنظر الى الطرق الاخرى التى تستخدم فى البحوث الانثروبولوجية .

فقد كتب بيكر Beccker وجير Geer مقالا ناقشا فيه فوائد كل من الملاحظة بالمشاركة والمقابلة ، فذهبا الى ان الطريقتين يكمل أحدهما الاخر فى البحث الحقلى ، فالمشاركة المتعمقة تقلل درجة تقنين المقابلة ، لكن المشاركة تقدم لنا نظرة اكثر ثراء للعمليات الاجتماعية ، وبدون استخدام بعض انواع الاسئلة المنظمة خلال المشاركة تصبح هذه الطريقة ذات فائدة محدودة جدا بالنسبة لاختبار صحة الفروض .

إن الاستخدامات الحديثة لطريقة الملاحظة في البحث الحقلى تميل الى تسجيل ما يقع من حوادث ، ذلك بأستثناء عدد قليل من الدراسات التى تستعين بهذه الطريقة فى التحقق من صحة الفروض ، نذكر منها دراسة قام بها عدد من علماء النفس والانثروبولوجيا حول تنشئة الاطفال وأساليبهم فى

الثقافات المختلفة [1] .

لكن ستظل المشكلة الرئيسية هى عدم وجود نظرية محددة أو عدم رغبة الباحث – علي الأقل – فى توضيح افتراضاته النظرية مبدئيا ، وإنما تنحصر مهمة هذه الدراسات فى الغالب فى اضافة العديد من الملاحظات الوصفية فى ميدان العلوم الاجتماعية .

لذلك فعلى الباحث ان يحدد الاسس التى ترتكز عليها استنتاجاته ، والتى يمكن تلخيصها على النحو التالى :

١ – على الباحث ان يصوغ بوضوح ما يسعئ الى تحقيقه فى بحثه ، وأن يستكشف بعض القضايا النظرية العامة ، ويختبر صحة الفروض .

٢ – المعلومات التى يمكن للباحث الحصول عليها فى البحث الحقلى ، يتعين عليه استكمالها مباشرة ، وبخاصة الدراسات الخاصة بالتراث ، والتى يحصل عليها من دراسته الميدانية .

٣ – يجب على الباحث ان يحدد الاجراءات التى تناسب اهداف بحثه ، مثل صياغة بعض اسئلة المبحوثين ، وتحديد نوعية الصلات التى يتعين عقدها مع مجتمع البحث .

هذه كلها تُعد صورة لبعض التوجيهات التى يجب ان يسترشد بها الباحث الحقلى فى ميدان الانثروبولوجيا ، لكن الواقع الذى يحدث فعلا فى هذه البحوث يمكن ايجازه فى القضايا الآتية :

١ – عادة ما تكون لدى الباحث فكرة عن مشكلة البحث ، وحتى عن النتائج التى سيصل اليها ، ومعنى ذلك انه يتجه نحو البحث الحقلى وفى ذهنه الحصول على معلومات معينة بالذات تدعم أفكاره المبدئية .

---

(1) Becker & Geer, B., "Participant observation and Interviewing: Acomparison organisation, 10. No.3, 1957, pp. 82 - 32.

٢ - كثير من الباحثين يتجهون للميدان ولديهم أفكار عن نتائج البحوث السابقة ، وقد يستخدمون هذه الافكار فى اساءة فهم المعلومات الى يحصلون عليها.

٣ - يخلو - أحيانا - تقرير البحث من القصور الزمنى الذي يعنى ضرورة تحديد المراحل التى مرت بها الدراسة الحقلية ، وأثر كل مرحلة منها فى تعديل او تطور اهداف البحث وما خلص اليه من نتائج .

٤ - الاتجاه العام فى الدراسات الحقلية ، هو ابراز النتائج الواقعية والمعلومات الوصفية اكثر من الاهتمام بأستخدام هذه المعلومات فى تطوير البناء النظرى والأسس المنهجية .

الفصل الرابع
الأنثروبولوجيا ودراسة المجتمعات القروية *

- مقدمه
- القرية والدراسات الانثروبولوجية
- الثقافة الشعبية - منظور أنثروبولوجي
- منهجية البحث في المجتمع القروي
- الواقع الاجتماعي والثقافي للقرية المصرية
- تحديات التنمية في القرية المصرية
- تنمية وتحديث المجتمع القروي : وجهة نظر تحليلية
  - التنمية الريفية واختلاط الأدوار
  - مؤثرات الثقافة الحضرية المتاخمة للريف
- خاتمة
- أهم المراجع

---

* كتب هذا الفصل أ . د. محمد عباس ابراهيم

الفصل الرابع
الأنثروبولوجيا ودراسة المجتمعات القروية *

ليس هناك خلاف على أن الأنثروبولوجيا تولى جل اهتمامها عن طريق باحثيها بدراسة الانسان وأعماله فى كل زمان ومكان كموضوع رئيسى لها. وإذا كانت الإنثروبولوجيا - وبصفة خاصة من الناحية التاريخية - قد اهتمت فى فترة من فتراتها بمجتمعات وثقافات لم توليها العلوم الانسانية الأخرى أى اهتمام أو مبادرة لدرستها ، وهى تلك المجتمعات والثقافات التى وصفت أحيانا بالبدائية أو المتوحشة، إلا أن هذا لا يمنع أو يعوق تقدم الأنثروبولوجيا وتطبيقها لمناهجها وطرقها البحثية فى دراسة مجتمعات وثقافات أكثر تمدينا وتقدمًا ، ولعل أهم تطور حدث فى الأنثروبولوجيا فى السنين الأخيرة هو اتجاهها وبسرعة نحو الاهتمام بدراسة مجتمعات وثقافات أكثر تعقيدا مثل المجتمعات المحلية والقروية والتجمعات والمستوطنات الحضرية والمدن الصناعية والثقافات الفرعية وغيرها، وتتجه الأنثروبولوجيا فى دراستها لتلك المجتمعات والثقافات إلى تحليلها وتحليل محتوياتها ومكوناتها باعتبارها تمثل جزءاً من مركب حضارى وثقافى أكثر تعقيداً . وهكذا أخذ المجتمع الريفى - فى الأونة الأخيرة - ينال نصيبا متزايدا من إهتمام الأنثروبولوجيا والعلماء الاجتماعيين . وقد نوه الأنثروبولوجى روبرت ردفيلد Redfield - الذى درس فى عام ١٩٣١ بالاشتراك مع الفونسو فيلا Alfonsoes Villa أحد قرى المكسيك ثم عاد لدراستها بعد ذلك فى عام ١٩٤٨ لمعرفة مدى التغير الذى طرأ على القرية - نوه إلى أن موضوع الدراسة فى هذا العلم لابد أن يتحول إلى دراسة المجتمعات القروية التى تعتبر ثقافتها جزءاً من ثقافة أكبر .

---

* كتب هذا الفصل أ.د محمد عباس ابراهيم.

وعمومًا فإن مبعث الاهتمام بدراسة المجتمعات القروية يرجع إلى أن قسما كبيرا من سكان العالم يعملون بالزراعة ، والزراعة بالنسبة لهم هى طريقة فى الحياة متميزة عن غيرها بخصائص يمكن ملاحظتها بسهولة. كما أن نموذج المجتمع البدائي عند دراسته لدى الأنثروبولوجيين لم يعد قائمًا بالصورة المجتمعية والمنهجية ، بل ان العالم ماض - على حد قول والاس Wallas - إلى أن يصبح مجتمعًا واحداً كبيراً ، فالبدائى المنعزل أصبح مرتبطا بالمجتمع الكبير، ولهذا فإن الانثروبولوجى أصبح الآن يتجه إلى دراسة مجتمعات لها علاقات متعددة ومعقدة مع شعوب أو مناطق معروفة التاريخ .

وعلى أية حال فإن الانثروبولوجيا فى دراستها للمجتمع القروى لا تنظر إليه على أنه يمثل ثقافة واحدة، وذلك طبقا للأسباب التالية :

أولا : ان الثقافة القروية لكى تدوم تتطلب اتصالا مستمرا بمجموع الأفكار التى تنبعث من خارجها ، وذلك لأن حياة القرية الفكرية والدينية والخلقية ليست كاملة بل هى فى احتياج مستمر للاخرين .

ثانيا : تأسيسا على ما سبق فان دراسة وفهم المجتمع القروى تدعونا إلى الدراسة والبحث فى التفاعل القائم بين القرية وبين المراكز الحضارية، حيث أن غالبية تاريخ القرية ليس محليا وانما هو تاريخ مدينة يكون المجتمع القروى وثقافته جزءاً أساسيا من التعبير عن ذلك [١] .

لهذا فقد أصبح الأنثروبولوجيون - ونتيجة لتغير موضوع الدراسة من المجتمع البدائى إلى المجتمع القروى ، ومن حيث العلاقات والمؤثرات الخارجية التى لابد من إدراك أثرها على موضوع الدراسة القروية لفهم بناء وثقافة المجتمع - مطالبين بالاعتماد على التاريخ والمصادر والوثائق التى قد تكشف عن

(1) Robert Redfield; The Little Community, view points for the study of a Human Whole. University of Chicago Press, 1995, pp. 115 - 119.

الاحداث والتطورات التى مر بها المجتمع القروى . ويرى ردفيلد أن هذا التوجه الجديد من جانب الأنثروبولوجيين تجاه دراسة المجتمعات القروية قد أضاف مهمة صعبة على كاهلهم، لا سيما وأن المصادر التاريخية نادراً ما تتعرض لأحوال القرى ، وإن كانت هناك بعض الاشارات فقد تكون عديمة الجدوى بالنسبة للدراسات الأنثروبولوجية.

القرية والدراسات الأنثروبولوجية :

وعلى أية حال فإن دراسة المجتمع القروى تعد من الملامح الأساسية للدراسات الانثروبولوجية فى القرن العشرين ، وتمثل شريحة البيئات الريفية بالنسبة للجماعات المتقدمه القطاع المتخلف نسبيا عن بقية القطاعات الحضرية. وقد ساهمت الدراسات الانثروبولوجية فى دراسة الجماعات الريفية فى محاولة لتطبيق مناهج التنمية الاجتماعية والاقتصادية على أسس علمية موضوعية، وخلصت هذه الدراسات الى قواعد أساسية يلتزمها العاملون فى ميدان التنمية حتى غدت ركنا جوهريا من أركان البحث العلمى فى الحقل العملى ، بل أصبح من الممكن إن تصاغ نتائج الدراسات الميدانية فى الاطار العام للنظرية الأنثروبولوجية البنائية والوظيفية [1].

ويمكن القول أن اهتمام الأنثروبولوجيا - وخاصة بين الأنثروبولوجيين الأمريكيين - قد تحول منذ منتصف القرن العشرين من الدراسات البدائية الى الدراسات القروية . وإن كان بعض الباحثين يفسر هذا التحول وهذا الاهتمام إلى اغراض سياسية تمشيا مع سياسات التنمية والتثقف التى تنتهجها الحكومة

---

(١) فاروق محمد العادلى ، «الاتجاهات المعاصرة فى الانثروبولوجيا الاجتماعية : بحث تحليلى نقدى »، المجلة الاجتماعية القومية ، المجلد العاشر ، العدد الثانى ، مايو ١٩٧٣ ، ص ٢٣٢ - ٢٣٤.

الامريكية والمنظمات الاكاديمية فى اعتمادات مالية كبيرة لتطوير الدراسات القروية فى معاهدها العلمية من جهة ، واهتمامها بالبلاد الريفية التقليدية النامية فى خارج أمريكا من جهة أخرى ، وربما كانت قرى المكسيك ومجتمعاته المحلية الريفية خير مثل على ذلك الاهتمام الذى تمثل فى الاهتمام بالتثقيف والغزو الأمريكى الثقافى «التأمرك» للقرى المكسيكية من خلال خطط مدروسة بدأت بادخال زراعات جديدة لقصب السكر والقمح المهجن وانتهت بالتقاليد والمعايير النظامية العليا . وبغض النظر عن طبيعة النتائج والعائد الاكاديمى والتطبيقى من وراء تلك الاهتمامات محليا إلا أنه يمكن القول انها قد دفعت بالدراسات الأنثروبولوجية القروية دفعة قوية تمثلت فى الاعداد الهائلة من الدراسات القروية والتى شملت جهات عديدة من العالم وخاصة فى البلدان النامية.

واذا كانت صياغة الدراسات الأنثروبولوجية القروية وبلورتها بشكل علمى ومنهجى قد ارتبطت زمنيًا وتاريخيًا بمنتصف القرن العشرين - رغم وجود محاولات سابقة على ذلك التاريخ منذ الثلاثينات مثلا - فان علم الاجتماع الريفى واهتمامه بدراسة وفهم طبيعة المجتمع الريفى ونظمه الاجتماعية بهدف الاستفادة من ذلك فى رسم تنظيم السياسة الريفية قد بدأت منذ أوائل القرن العشرين تقريبًا ، أى خلال ما يطلق عليه بفترة الاستقلال Exploitation Period للمجتمع الأمريكى من عام ١٨٩٠ حتى عام ١٩٢٠ تلك الفترة التى كان يعانى فيها المجتمع الريفى الأمريكى من فساد واضح ظهر تراث هام يصف ويحلل المشكلات التى تبين تلك الأزمة المتزايدة ، ومع أن هذا التراث لم يكشف أو يحدد أو يصوغ تلك القوانين الجوهرية التى تحكم تنمية المجتمع الريفى فقد عمل فى الوقت نفسه على خلق الشروط التى عملت على ميلاد علم المجتمع الريفى وبهذا يمكن تحديد بدايات علم الاجتماع الريفى منذ تلك الأبحاث والدراسات المتتالية، ومنها على سبيل المثال دراسة تيودور رورفلت Theodore Rosevelt التى نشرت فى عام ١٩٠٧ حول الحياة الزراعية فى امريكا . وهى بمثابة أول

دراسة قيمة فى هذا الموضوع ، فضلا عن بعض الدراسات والبحوث الأخرى التى تناولت مشكلات وقضايا المجتمع والحياة الريفية [1] .

وعلى الرغم من أن المجتمع القروى يمثل الوحدة الدراسية لكل من علم الاجتماع الريفى والانثروبولوجيا القروية ، إلا أن هناك عدة اختلافات جوهرية من ناحية موضوعات البحث وطريقة جمع المادة وتحليلها ، وهذا ولا شك شيء طبيعى إذ أنه عند دراسة الظواهر الريفية يمارس الباحث الاتجاه النظرى والمنهجى العام الذى يرتبط بتخصصه الاكاديمى فالاختلاف بين الأنثروبولوجيا وعلم الاجتماع الريفى من ناحية الموضوع والمنهج مرده فى حقيقة الأمر الى التباين القائم بين الدراسات الأنثروبولوجيا والسوسيولوجية عامة . فبينما يهتم علم الاجتماع الريفى مثلا بمسائل أو ظواهر الهجرة الريفية أو السمات الديمجرافية أو النظم الاجتماعية الريفية تهتم الأنثروبولوجيا القروية بموضوعات تختص بالقرى الريفية ودرجة تكاملها من الداخل او الخارج الى جانب التركيز على دراسة أوجه الثقافة الريفية وابعادها . وهناك مع ذلك موضوعات مشتركة كالتى تختص بتحديد الخصائص الريفية أو دراسة مشاكل التغيير الاجتماعى أو برامج التنمية ، إلا أنه من الملاحظ عند المقارنة بين النمط الريفى للحياة والأنماط الأخرى ، يركز علم الاجتماع الريفى عادة على المدينة (حيث ركز علم الاجتماع اهتماماته) مما أدى إلى ظهور كثير من التصنيفات الثابتة للمجتمعات وافتراض الانتقال الحتمى من وضع إلى آخر تحت تأثير عمليات التحضر أو التصنيع . بينما يتجه الأنثروبولوجيون إلى اتخاذ المجتمع البدائي (المجال التقليدى للدراسة الأنثروبولوجية) أساسا لفهم ودراسة طبيعة المجتمع القروى [2] .

---

(1) Desai, A.R.; Rural Sociology in India: Bombay, 1969. pp. 6 - 8.

(٢) حسين محمد فهيم ، «بعض الاتجاهات الأنثروبولوجية فى الدراسات القروية» ، الحلقة الدراسية لعلم الاجتماع الريفى ، فى ج.م.ع، منشورات المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية، القاهرة ، ١٩٧١ ، ص ٧٠.

ويمكن القول ان تيار الأنثروبولوجيا القروية يمكن رده إلى الأنثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية من ناحية ، وإلى تقاليد مدرسة شيكاغو الامريكية التى بلورها روبرت ردفيلد Robert Redfield من ناحية أخرى ، وقد خلص ردفيلد من دراساته للمجتمعات القروية فى امريكا الوسطى إلى فكرة النموذج Typology التى يمكن بواسطتها تفسير عملية التطور الحضارى . وتعرف هذه النظرية باسم «الاستمرار من البدائي للمدينةFolk-Urban Continum» ، وهى دراسة لنموذج الحياة البسيطة الأولية التى نجدها فى القبائل والعشاير والقرى الصغيرة، واتخذت من ذلك النموذج البسيط نقطة تبدأ منها فى عملية تطور الحضارات والمجتمعات الانسانية . وتصور النظرية كذلك وجود خط يمثل مراحل التطور يبدأ عند نموذج المجتمع البدائى أو البسيط والذى أطلق عليه ردفيلد Folk Society أى المجتمع الشعبى الذى تسود فيه وتحكمه الطرائق الشعبية، ثم ينتهى عند نموذج المجتمع الحضرى Urban Society أو مجتمع المدينة المعقد ، وتشمل المساحة بين نقطتى البدء والانتهاء مراحل تطورية متعددة تمثل مجتمعات اخرى .
وقد حدد ردفيلد مميزات وخصائص هذا المجتمع البسيط فى أنه مجتمع يتميز بصغر الحجم والعزلة النسبية والتشابه والاحساس الشديد بالانتماء وعدم معرفة القراءة والكتابة والتضامن الاجتماعى الآلى أو الميكانيكى بتعبير دور كايم . كذلك يتميز هذا المجتمع بعدم التخصص الدقيق أو تقسيم العمل نتيجة للتخلف التكنولوجى فى السلوك الاجتماعى المنمط المتشابه الذى يتميز بخصائص رئيسية ثلاث وهى أنه تقليدى Traditional وتلقائى Spantaneous وشخصى لا يحتمل النقد Uncritical & Personal . ومن أهم خصائص هذا المجتمع أيضا أنه مجتمع عائلى Familial أساسا حيث يحدد النسق القرابى معظم انماط ومظاهر السلوك الاجتماعى للفرد والجماعة على السواء ، كما تتميز أحكام أفراد هذا المجتمع بأنها شخصية ذاتية وعاطفية ولا منطقية. ويلاحظ أيضا أن هذا المجتمع فيه أيضا المسائل الخاصة بالسحر والشعوذة بين أفراده .

ومن المعروف ان ردفيلد درس فى عام ١٩٣١ بالاشتراك مع الفونس فيلا

Alfonse Villa إحدى قرى المكسيك ، ثم عاد لدراستها بعد ذلك عام ١٩٤٨ لمعرفة ودراسة مدى التغير الذى طرأ على القرية منذ دراستها فى المرة الأولى . ولا شك أن بدايات ردفيلد واهتماماته كانت نقطة انطلاق للعديد من الباحثين فى مختلف انحاء العالم والذين اهتموا بدراسة المجتمعات القروية خاصة فى اسيا وافريقيا وأمريكا اللاتينية ، ومن هؤلاء جون امبرى John Embree ودراساته لاحدى قرى اليابان ، ودوبيه Dube ودراسته لقرية هندية، ويانج Yang ودراسته لقرية صينية، ثم تتابعت عدة محاولات أخرى أكثر عمقا من اجل عقد دراسات مقارنة على أساس اختيار النموذج الذى يمثل عدة مجتمعات محلية لا سيما فى أسيا .

أما عن الأساس النظرى الذى بنى عليه ردفيلد اتجاهاته النظرية والمنهجية فهو الاستناد أساسا الى نظريته فى التغير الثقافى من ثقافة الفولك Folk أى الشعبى إلى المدينة أو الثقافة الحضرية. وحاول أن يثبت ذلك عن طريق الدراسات الحقلية التى أجراها على الحياة الريفية فى قرى ياكاتان Yacatan وتيبوزتلان Tepoztlan، وشان كوم Chan Kom ، وفى كل هذه الدراسات كان يدرك العوامل الخارجية للتغير أو التغير من الخارج . أى أنه كان يهتم قبل كل شيء بأثر المدينة على الأفراد والثقافة والتنظيم الاجتماعى ، وعلى الأخص نواحيها المباشرة .

وتتميز أعمال ردفيلد واهتماماته المنهجية بالثنائية Dichotomy التى تتضح فى دراساته ، فالمجتمعات عنده إما كل Whole أو جزء Part، والتغير عنده من ال Fok إلى المدنية Civilization ، وهى الثنائية التى جعلت المنظور التاريخى واضحًا وبشكل صريح فى دراسات ردفيلد لاسيما فى تناوله لتاريخ المدينة التابعة لها القرية ، وذلك من أجل مزيد من الفهم حول خصائص وعناصر البناء الاجتماعى والثقافى .

ومن الواضح ان الانثروبولوجين عندما اهتموا بالدراسات القروية لم يتجهوا الى دراسة القرويين فى مضمونهم الاقتصادى أو التاريخى - كما كان متبعا من

قبل فى كثير من الدراسات القروية - وانما اتجهوا لدراستهم فى مضمونهم الثقافى الكلى متأثرين فى ذلك باتجاههم نحو الدراسة الكلية للثقافة أو المجتمع التى لا تعنى دراسة كل شىء ، وانما تقصد دراسة أى شىء - كالسمة الثقافية أو النظام الاجتماعى مثلا - فى ضوء علاقته بالأشياء الأخرى . فلم يتجه الأنثروبولوجيون الى البحث عن نشأة النظم الاجتماعية الريفية وتطورها ، وانما اتجهوا الى الدراسة البنائية الوظيفية لهذه النظم واستخدموا فى ذلك وسيلة البحث الحقلى ، وقد اقتضت طبيعة المجتمع القروى المركبة تعديلا فى الطريقة الأنثروبولوجية التقليدية التى تبلورت من خلال دراسة المجتمعات البسيطة [1] .

وبمقتضى هذا التعديل قامت الطريقة الأنثروبولوجية لدراسة المجتمع القروى على أساس منطقى - ريدفيلد - ينظر بمقتضاه إلى القرية على أنها وحدة دراسية مستقلة بذاتها يمكن ان تطبق عليها اساليب دراسة المجتمعات المحلية وعلى أنها وحدة تابعة ايضا . وبالتالى يتطلب الأمر دراسة علاقتها وارتباطها مع المجتمع.

الثقافة الشعبية : المنظور الانثروبولوجي :

على الرغم من أن هناك الكثير مما كتب حول الثقافة الشعبية كمفهوم تاريخى واجتماعى ، إلا أنه مازالت الكتابات والأبحاث التى تناولت الثقافة الشعبية فى خصوصياتها مازالت قليلة ، ويرجع ذلك بطبيعة الحال الى الاختلافات البنائية والمرحلية والمؤثرات والتفاعلات فى نطاق الثقافات بعضها ببعض، وهو الأمر الذى جعل كثيرا من جوانب الثقافة الشعبية لها طابعها المميز فيما تتسم به من خصائص وسمات وعناصر هى فى الأصل مشتركة لأنها نابعة

---

(١) حسين فهيم ، « بعض الاتجاهات الانثروبولوجية فى الدراسات القروية» ، الحلقة الدراسية لعلم الاجتماع الريفى فى مصر ، مرجع سابق ، ص ٦٦ - ٦٧ .

من الإنسان وتواجده . ولهذا فالثقافة الشعبية تعد ظاهرة تاريخية . نشأت وتطورت فى ظل تفاعلات المجتمع خلال الحقب التاريخية المختلفة بما فيها الفترات الزمنية الراهنة .

والثقافة الشعبية كظاهرة من بين ظواهر المجتمع والثقافة العامة ، فإن تغيرها حتمى ، ولكن الأمر يتوقف على مدى بطء أو سرعة تلك التغيرات وعوامل أحداثها فى نطاق الثقافة الشعبية، وإن كان من المسلم به فى نطاق الدراسات والبحوث الاجتماعية والانثروبولوجية أن جوانب وعناصر الثقافة الشعبية المادية، إنما تكون أسرع وأيسر فى التغير وفى قبول تلازماته عن التغير فى الجوانب المعنوية أو الأنماط الفكرية المحاصرة لطبيعة الثقافة الشعبية. وفى ضوء ذلك يمكن أن نشير إلى أهم الخصائص المميزة للثقافة الشعبية على النحو التالى :

١ - أنها نتاج مجتمع معين يعمل على تطورها ونموها وتجسيدها فى ظل مقوماته البنائية ، وبما يسمح لها من تحقيق اشباعات لحاجات أعضاء المجتمع، والتعبير عن طموحاتهم واحباطاتهم ، ولهذا يمكن القول أنه بقدر ما يكون المجتمع بقدر ما تكون الثقافة الشعبية .

٢ - لعب كل من التفاعل الحضارى والدينى أدواراً أساسية فيما يتصل بصياغة الثقافة الشعبية ومكوناتها وعناصرها وكل ما يتصل بها من فنون قولية أو فعلية ، أو أنماط للتصرف والسلوك ، تتجلى بوضوح تام فى نواحى الحياة اليومية، وتعد بمثابة موجهات للسلوك والقيم والمعايير والعادات والتقاليد ودورة الحياة غيرها من الأنماط السلوكية فى شتى المجالات .

٣ - جاءت خصائص الثقافية الشعبيـة وتنوع عناصرها ومكوناتها مرتبطة بدرجات التنوع فى البيئة، والإيكولوجيا والنشاطات ، والمنتج الثقافى

الشـعـبى مـن الأغـانى والرقـصـات والأمـثـال ، وغـيـرها من أدوات العـمل والإبداعـات الشعبية [1] .

٤ – أن الثقافة الشعبية لها من القداسة والاحترام ما يمكنها من السيطرة والسطوة والإلزام ، فى ظل ما اكتسبته من خاصية المحرمات والنواهى ، والتى تلتصق وتعلق فى كثير من الأحيان بالجوانب الدينية والأخلاقية والاجتماعية، وهذا ما يؤدى إلى شدة خاصية التفاعل القائم بين عناصر الثقافة الشعبية وبين ممارسيها من أعضاء المجتمع ، ومن ثم تقوم الثقافة الشعبية بدور بارز فى تحقيق التوازن بين واقع الحياة وبين مستوى عالم الطموحات أو الأمانى أو الأهداف غير المنظورة، وقد يكون عالم «النكتة» والرسومات المشخصة من أبلغ صور الهجاء الشعبى التعبيرى فى ظل جمود الواقع وعدم تسامحه ، ومن ثم تقوم الثقافة الشعبية بالدور البديل .

٥ – تتميز الثقافة الشعبية بخاصية «التداول الشفاهى» لعناصرها ، أى أنها تتمير بالفن «القولى» ، وربما كان ذلك بسبب الانتشار الواسع للثقافة الشعبية بين الفئات «الأمية» من شرائح المجتمع ، فضلا عن شيوع ذلك الفن القولى فى المجتمعات المنعزلة على الذات بفعل عوامل بيئية أو اجتماعية أو أخرى . ولكن إذا كان ذلك الإنتشار قد اكتسب الصفة الكمية ، فلا شك أن التعامل الكيفى مع الثقافة الشعبية من جانب اعضائها يحتاج إلى مزيد من الدراسات المتأنية لكشف مدى صحة الافتراض من عدمه .

ويعد البحث والدراسة فى نطاق وحدود الثقافة الشعبية فرعا من فروع المعرفة، وأن كان ذو حدود متفاوتة من التناول والوضوح ، إلا أنه رغم ذلك يتمتع

---

(١) انظر فى ذلك :
محمد الصمودى ، «الجدوى الاقتصادية والاجتماعية لاستثمار التراث الشعبى» فى مجلة المأثورات الشعبية، مركز التراث الشعبي لدول الخليج العربية، يونيو ١٩٨٦، الدوحة ، قطر ، ص ٥٤ – ٦١ .

بقدر معين من الاعتراف الرسمي قل أو كثر تبعا لظروف كل مجتمع في هذا الشأن، مع اطلاق مسميات متباينة لتحديد هوية الموضوع ، فأحيانا يكون هو الأدب الشعبي ، وتارة يكون الفولكلور في عمومه ، وفي أخرى تراث شعبي ، ثم ثقافة تقليدية أو شعبية ، وهي كلها وإن اختلفت مفاهيمها ومسمياتها إلا أن موضوعها واحد ويندرج تحت نشاط الإنسان وشمولية ممارساته باعتباره «كائنا ثقافيا» يعيش في مجتمع معين .

وقد بدأت معالم الاهتمام بالدراسات الفولكلورية والشعبية تتضح أكثر فأكثر عندما اقترب العلماء الاجتماعيون والانثروبولوجيون من الاهتمام بالمجتمعات الريفية، أو ما أطلق عليه «علم دراسة الفلاحين» ، أي دراسة الأهمية الثقافية للفلاحين ، وإذا كان هذا الاتجاه قد تأسس منهجيا على يد اثنين من العلماء الألمان هما يوهان فيلكس فون كنافل J.F. Von Knaffl ، ويوليوس شفيترنج Julius Schwietering واللذين أثريا علم الفولكلور بالعديد من الدراسات ذات الفائدة الموضوعية والمنهجية ، فإن العالم السويسري ريتشارد فايس يعد رائدا في تحديد مفهوم الحياة الشعبية، والثقافية الشعبية، والتي يخضع لها الإنسان - في نظره - باعتباره حاملا للثقافة فيحملها في شعوره وسلوكياته كسلطة من سلطات المجتمع وتراثه الذي ينبغي احترامه وتقديسه [1] .

ثم تأصلت الدراسات الفولكلورية والشعبية بعد ذلك من خلال اهتمام الانثروبولوجيين بطريقة النقل الشفاهي Oral Transmission ، والتي اهتم بها ألن دانرز Alan Dundes كأسلوب أو طريقة في نقل التراث وتعلمه ، ثم جاء وليام باسكوم W. Bascom ، وأشار إلى أهمية تسجيل عناصر التراث الشعبي

---

(١) انظر في ذلك :

محمد الجوهري ، الفولكلور ودراسات علم الاجتماع الريفي ، في ، دراسات في علم الاجتماع الريفي والحضري ، دار الكتب الجامعية ، القاهرة ، ص ٢٦٦ - ٢٦٨ .

من اجل معرفة وفهم العادات والتقاليد والتعابير الشعبية التى تحمل لنا تفسيرا واضحا وتلقائيا لعناصر الحياة الاجتماعية والثقافية للمجتمع[1] .

وهكذا يتسع مجال الدراسات الشعبية ليشمل الى جانب الأنماط والممارسات السلوكية ، بعض نماذج وفنون الفن أو الثقافة «القولية» فى اللغة وما تحمله من دلالات ومعانى ذات تعبير خاص لما يحمله المعنى من وظائف وأغراض «ظاهرية» أو «حقيقية» ، وتلك الثانية هى التى تؤلف العلة الأخيرة لقيام الظاهرة الشعبية أو النظام الاجتماعى ، استنادا إلى دراسة الحكايات، والقصص والأساطير، والقيم والمثل والشعائر والطقوس [2] ، وغير ذلك مما يمكن القول بأنه يندرج تحت العادات أو الاساليب والأنماط والممارسات الشعبية، أى هى دراسة للثقافة التى جاءت في عملية تطورية كبرى امتدت عبر آلاف السنين من خلال الخرافات ، والمعتقدات ، والأغانى ، والرقصات ،وتفسير الكون والعالم ، فتشكلت فى ملامح القانون والعرف والرسم والنحت والحرف ، وكافة أشكال السلوك فى مختلف ظروف الحياة اليومية ومواقفها ، فصيغت فى قوالب وأنماط اثنولوجية جامعة للمفهوم الشعبى أو التراثى أو ما يسمى بموروث الثقافة الشعبية. والتى أقام الانثروبولوجيون على أساسها التفرقة المنهجية والموضوعية عند دراسة المجتمعات التى سميت ووسمت بالبدائية او البسيطة، وبين المجتمعات المتحضرة، وكان المدخل الرئيسى لهم فى ذلك هو تحليلاتهم وتفسيراتهم بما يمكن أن

---

(١) انظر فى ذلك مجموعة الدراسات التى أشرف على إصدارها ألن داندز ، والتى جاءت فى كتابه بعنوان :

Alan Dundes, (ed.); The Study of Folklore, Prentice-Hall, Inc., New Jersy, 1965.

وقد كتب فيه وليام باسكوم دراسة قيمة تحمل عنوان الوظائف الرئيسية للفولكلور:

Four Function of Folklore.

(٢) أحمد أبو زيد . عن الأنثروبولوجيا والفولكلور ، من مقدمة كتاب دراسات فى الفولكلور ، دار الثقافة للطباعة والنشر ، ١٩٧٢، ص ١٧.

يطلق عليه بالعقلية البدائية أو الاسطورية أو الخرافية ، فى مقابل العقلية الاوروبية أو المنطقية [1] .

ويرجع الفضل إلى تقدم العلوم الأنثروبولوجية والاثنولوجية فى توفير قدر هائل من المادة المقارنة مما يكفل لدعاة المعيار الاثنولوجى أساسا نظريا راسخا، من شأنه ان يتيح توسيع مجال البحث فى المأثورات الشعبية بحيث يتضمن إلى جانب العناصر والموضوعات السابق التنويه عنها مسائل وقضايا أخرى كدراسة تاريخ الثقافة، والعمليات الثقافية ، والعلاقة المتبادلة بين الشخصية والثقافة أو الثقافات المحلية ، آخذين فى الاعتبار الضغط على ضرورة استخدامات كل من المنهج التاريخى والاتجاه الوظيفى فى الدراسة .

أما عن الإسهامات الأنثروبولوجية فى دراسة الثقافة الشعبية والتى يمكن الإستعانة بها فى العرض الراهن ، فتأتى من خلال عرضنا لآراء ونظريات إثنين من علماء الانثروبولوجيا اللذين أسهما إسهاما واضحا فى ذلك المجال وهما؛ وليام جراهام سمنر William G. Sumner وبرونيسلاف مالينوفسكى B. Malinowski وعلى الرغم من أن لكل منهما وجهة نظره الخاصة فى تفسير وتحليل عناصر الثقافة الشعبية أو التقليدية، إلا أنهما يشتركان معا فى أن الثقافة هى نتاج اجتماعى ، بمعنى أن الأفراد الذين يعيشون فى جماعات أو مجتمعات محلية منظمة إنما يشتركون معا فى ثقافة أو ثقافات معينة، وهى التى تجعلهم يميلون إلى أداء الأفعال بطريقة جماعية، وهذا ما يجعل الناس يتميزون بالتشابه إلى حد بعيد داخل الثقافة الواحدة ، فالعادات الاجتماعية والطرائق المشتركة هى التى تشكل وتبلور أنماط السلوك بالطابع المتميز دون غيره.

وقد اشار جراهام سمنر إلى أن الثقافة الشعبية هى بمثابة الطرق والأساليب

---

(١) وجدت دراسات الفرنسى ليفى برول Levy-Bruhl حول العقلية البدائية صداها الكبير فى إطار الدراسات الاسطورية أو الخرافية والدراسات الخاصة بالعقلية المنطقية، والتى تمت فى اطار من المقارنة الاثنولوجية بين الشعوب ، وتمثل تراثا أصيلا فى الفكر الاجتماعى والدراسات الانثروبولوجية .

التى يتكيف الناس بها طبقا لظروف حياتهم الاجتماعية والثقافية، ومن هنا تأتى الثقافة الشعبية - فى نظره - بطرقها وممارساتها لتحقق الإشباع والرضا للحاجات الضرورية لأعضاء المجتمع الواحد والثقافة الواحدة [1] .

ولذلك فإن أهم ما انتهى اليه سمنر فى هذا الشأن هو رؤيته الى الثقافة الشعبية بأنها تتميز بما يلى :

١ - أنها تجربة حاضرة ، وتلقائية ، وعضوية ، وضرورية ، تعمل على تحقيق الترابط الانسانى بين أعضاء الجماعة أو المجتمع ، وتيسر لهم قيام معاملاتهم التبادلية المستندة إلى كل من تجربة الحاضر ونتاج تجارب الماضى فى نفس الوقت .

٢ - تعد الأساليب والطرائق الشعبية رصيدا زاخراً من العادات والتقاليد والأعراف ، والممارسات التى ارتضاها المجتمع فقننها بحدود مرسومة ، فأصبح الشخص ملزما بالسير وفق ما جاء بها ، وإن كان تقبله لها يتم دون تفكير منطقى من جانبه فى بعض الأحيان ، لذا فعلى جميع الاشخاص أن يتكيفوا مع الطرائق الشعبية ، وأن يبلوروا أعمالهم وممارساتهم وفقا لها ، أما الاقتراب منها فى محاولة لتطويرها أو تعديلها أو عدم الأخذ بما جاء بها فذاك أمر عسير يوقع بهؤلاء المحاولين عقوبات وجزاءات اجتماعية رادعة ، تحفظ لهم انسياقهم وتواؤمهم مع معايير تلك الطرائق الشعبية .

٣ - تعتبر الاساليب والطرائق والسنن الشعبية - فى نظر سمنر - مرادفة لمفهوم الثقافة من حيث النشأة فى التجربة الانسانية الطويلة ، والتلقائية ، والعضوية ، ومن حيث الخصائص العامة للثقافة فى العمومية والجبرية والإلزام وتحقيق قدر من الضغط والسلطان على من يمارسونها أو يتعاملون معها .

---

(1) William G. Sumner; Folkways: A study of the Sociological Importance of Usages, Manners, Customs, Mores and Morals, Nwe York , 1940, p. 16.

أما الإسهامات التى قدمها برونسلاف مالينوفسكى من أجل تفسير الثقافة التقليدية وعلاقتها بلب المجتمعات المحلية ومعتقداتها ، فجاءت مستندة أساسا على الحاجات الاساسية والاحتمالات المتعددة والمتنوعة من أجل اشباعها [1] ، مع اهتمام مالينوفسكى بالجانب الوظيفى الذي يميز ظاهرة الثقافة فى كل مجتمع. فالثقافة فى أي مجتمع - فى نظر مالينوفسكى - هي مجموعة كبيرة من الوسائل المادية وغير المادية التى تعين الشخص على مواجهة الحياة، وهى التى تبدأ برغبة الانسان فى تحقيق وإشباع حاجاته الأساسية فى ضوء طرق التربية والتنشئة المحدودة والمحددة بمجموعة من النظم والمعايير والضوابط المعيارية فى حدود ثقافة المجتمع .

ولهذا يعد الفلاح المصرى بثقافته الشعبية وقيمه وعاداته وتقاليده ومعارفه، وأنماط تفكيره الخاص بمثابة نتاج للبيئة الاجتماعية والثقافية التى عاش فيها ، كما تدخلت عوامل أخرى فشكلت هذا الإطار من الثقافة الشعبية بكل مضامينها وعناصرها المتمايزة ، ومن بين تلك العوامل البنائية الممارسات الدينية العقائدية، والسياسية ، والاشباع الاقتصادى لسد القوت ، وقيم التضامن والتآلف والتآزر ، وقيم الإحتماء الغيبى المتمثلة فى ممارسات السحر والخرافة ووظيفية الأسطورة .

منهجية البحث في المجتمع القروي :

يرى الأنثروبولوجيون المهتمون بدراسة المجتمعات القروية بأن هناك عناصر ومقومات وسمات مشتركة تربط بين طبيعة البناء والثقافة المميزة لتلك المجتمعات فى كل مكان ، بحيث تصبح خاصية أو سمة مجتمع الفلاحين بمثابة

---

(1) Malinowski, B., A Scientific Theory of Culture, North Carolina, Chapel Hill, 1944, p. 37.

نمط انسانى يعكس خصائص ومقومات عامة تكشف عن نفسها فى غالبية - إن لم يكن كل - بلدان العالم ، وهو الإتجاه المنهجى الإثنوجرافى الذى اهتم به كل من روبرت ردفيلد R.Redfield ، وأوسكار لويس Oscar Lewis [١] ، من خلال الخصائص أو السمات المميزة لنمط الحياة القروية أو البسيطة والتى تتمثل في الارتباط القوى بالأرض ، والتمحور حول الحياة العائلية، ووحدة الخصائص البنائية للمهن والثقافة والنظرة إلى الحياة.

والبحث فى بعض جوانب الثقافة الشعبية للمجتمع القروى ، يجعل الباحث اكثر تشعبا ونهما نحو إلوان مختلفة من أساسيات المعرفة والتى تتداخل فيما بينها من خلال ظواهر وعناصر التراث الفولكلورى Folklore للجماعات الشعبية Folks ، وقيم التراث Traditions الشعبى والذى ينقسم على حد قول روبرت ردفيلد إلى التراث الصغير الخاص بالثقافة القروية الحية المعاشة، وبين التراث الكبير المتمثل فى الرهط الكبير من الثقافة والفنون والآثار ومخلفات الحضارات القديمة [٢] ، وبين العادات الاجتماعية الشعبية Social Habits كما تناولها جراهام سمنر Sumner في كتابه عن الطرائق والأساليب الشعبية [٣] والتى يجمع بينها جميعا أنها طرائق معيارية مقننة ومألوفة، وأن اعضاء المجتمع الشعبى

(١) انظر فى ذلك :

- Robert Redfield, Little Community, Chicago University Press, 1959, pp. 48 - 55.
- Ocar Lewis, "Urbanization without Breakdown: A Case Study, In, Scientific Monographs, No. 75, 1952, pp. 20 - 31.

(٢) انظر فى ذلك :

- Robert Redfield, & S.B. Milton; City and Countryside: Cultural Independancc, In, Peasants and Peasant Societies, (ed.); Teodor Shanin, New York, 1973, pp. 78 - 85.

(٣) انظر فى ذلك :

- William G. Sumner; Folkways: A Study of the Sociological Importance of Usages, Manners, Customs, Mores and Morals, New York, 1940, p. 14.

يمارسونه بتلقائية ولا شعورية Unconsciously غير مقصودة ، الأمر الذى يجعلها بمثابة القواعد الثابتة والمقررة للسلوك الاجتماعى المرسوم والمقنن ، وهى بهذه الصفة لها القدرة الهائلة على الانتقال من جيل إلى آخر عبر الزمن .

ولهذا تعرف العادات والطرائق الشعبية بأنها ظاهرة أساسية من ظواهر الحياة الاجتماعية الإنسانية ، وأنها حقيقة أصيلة من حقائق الوجود الاجتماعى، حيث نصادفها فى كثير من المجتمعات البسيطة والمتقدمه على السواء ، وهى تؤدى فى نفس الوقت وفى نفس المجتمعات كثيرا من الوظائف الاجتماعية والثقافية الهامة، كما أنها موجودة فى المجتمعات التقليدية التى يتمتع فيها التراث الشعبى بقوة قاهرة وإرادة مطلقة ، كما أنها استطاعت أن تحافظ على كيانها ووجودها فى ظل مجتمعاتنا الحديثة المتطورة ، وابتكرت لذلك عديدا من الاشكال والصور الجديدة التى تناسب العصر . ولذلك فمن الخطأ الكبير الاعتقاد بأننا لا يمكن ن نلتمس العادات أو السنن أو الطرائق الشعبية إلا فى التقاليد العتيقة المتوارثة فحسب ، كما أنه من العبث الاقتصار عند محاولة تفسيرها على إرجاعها إلى صورها القديمة وأصولها الغابرة، فالعادات والطرائق الشعبية ظاهرة تاريخية ومعاصرة فى آن [1] . وقد تبدو لنا فى بعض الأحيان خلوا من المعنى ، ولكن من الخطأ التماس معناها فى صورتها القديمة فقط ، فهى تتعرض لعملية تفسير دائم يتجدد بتجدد الحياة الاجتماعية واستمرارها وهى فى كل مرحلة أو طور من أطوار الحياة تؤدى وظيفة وتشبع حاجات ملحة .

وقد جاءت نظرية مالينوفسكى Malinowski حول الثقافة، والقائمة أساسا على الحاجات الأساسية والاحتمالات المتعددة والمتنوعة لإشباعها ، مع الاهتمام بوجه خاص بالجانب الوظيفى الذى يميز ظاهر وجوهر الثقافة فى كل مجتمع من

---

(١) محمد الجوهرى ، علم الفولكلور ، الجزء الثانى ، دراسة فى الأنثروبولوجيا الثقافية، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨٠ ، ص ٦٤ .

المجتمعات الانسانية [١] . فالثقافة فى أى مجتمع - فى نظر مالينوفسكى - هى مجموعة كبيرة من الوسائل المادية وغير المادية التى تعين الشخص على مواجهة ومعالجة المشاكل التى تقابله فى الحياة . وتلك المشكلات تبدأ برغبة الإنسان فى تحقيق واشباع حاجاته الأساسية كالطعام والإشباع الجنسى، والوقاية من الاخطار ، وغير ذلك من الحاجات الضرورية والثانوية التى لا يمكن أن تتحقق الا فى بيئة الثقافة ذات الاستمرار والدوام والتجديد .

وتعتبر بحوث المجتمع القروى وثقافته من أهم الملامح والاسهامات التى أولتها الدراسات الأنثروبولوجية أهميتها خلال القرن العشرين ، حيث تمثل المجتمعات الريفية بتمايزها الثقافى وبنيتها الاجتماعية النمط المتخلف أو البسيط نسبيا عن بقية القطاعات الحضرية ، هذا وقد ساهمت الدراسات الأنثروبوجية - مازالت - فى دراسة المجتمعات والجماعات الريفية من أجل تطبيق والكشف عن جوانب التنمية الاجتماعية والاقتصادية وأثر ذلك فى بنية تلك المجتمعات المتجنسة، مستخدمين فى ذلك أهم الأسس والطرق والأساليب العلمية الموضوعية [٢] . وقد تأصلت تلك المداخل المنهجية الانثروبولوجية حتى باتت أسسا ثابتة يلتزم بها كافة العاملين فى ميدان دراسات التنمية والتحديث.

---

(١) انظر فى ذلك :

Malinowski, B; A Scientific Theory of Culture, Notrh Carolina, Chapel Hill, 1944, pp. 33 - 35.

(٢) انظر فى ذلك كل من :

- فاروق محمد العادلى ، «الاتجاهات المعاصرة فى الأنثروبولوجيا الاجتماعية: بحث تحليلى نقدى» ، المجلة الاجتماعية القمية، المجلد العاشر ، العدد الثانى ، مايو ١٩٧٣ ، ص ٢٣٢ .
- حسين محمد فهيم ، «بعض الاتجاهات الانثروبولوجية فى الدراسات القروية» ، الحلقة الدراسية لعلم الاجتماع الريفى فى مصر ، منشورات المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية ، القاهرة ، ١٩٧١ ، ص ٧٠ .

ثم توالت بعد ذلك الدراسات الحقلية والتطبيقية للدفع بالدراسات القروية، والتى تمثلت فى دراسة العديد من نماذج القرى والمجتمعات والثقافات الريفية فى العالم. والتى بدأت تتسابق إليها التيارات والاتجاهات المنهجية من قبل الأنثروبولوجيين فى كافة القطاعات ، فجاءت اسهامات كل من الاتجاهين البنائى الوظيفى ، والاتجاه الثقافى التاريخى على درجة كبيرة من الأهمية ، أعانت غالبية الباحثين على تخطى كثير من الصعاب فى تفهم الموضوعات الدراسية وتصنيفها وبحثها بالطرق المنهجية الملائمة .

ورغم اسهامات الاتجاه البنائى الوظيفى فى دراسة القرية باعتبارها من الأنماط المجتمعية البسيطة، إلا أن الاتجاه التاريخى الثقافى بريادة مدرسة شيكاغو فى الدراسات القروية كان له إسهامه الواضح فى التأثير على توجيه الدراسات القروية وثقافة المجتمع القروى نحو ما عرف بفكرة النموذج Typology ، والتى صاغها روبرت ردفيلد من أجل التفسير العلمى لعملية التطور الحضارى للمجتمع القروى وحتى يمكن وضع المجتمعات القروية على خط المتصل الريفى الحضرى ، عملا باستمرارية الأنماط المجتمعية وتطورها تاريخيا وحضاريا من بدائية إلى قروية ثم إلى حضرية وصناعية ، هذا وقد تميز نموذج المجتمع الريفى أو الشعبى عند ردفيلد بأنه صغير الحجم ، منعزل نسبيا ، يتميز أعضاؤه بالانتماء ، والأمية ، والتضامن الآلى ، وعدم التخصص فى الأنشطة ، والتخلف التكنولوجى ، ونمطية السلوك وتلقائيته ، وتجميد الذات وعدم احتمال النقد ، والاحتماء العائلى والقرابى ، والميل نحو الحكم على الأشياء بحكم العاطفة لا بمنطق العقل ومن ثم زادت فى هذا النمط المجتمعى ألوان السحر والخرافات والشعوذة والمعتقدات الغيبية، والتى مثلت إطاراً أساسيا لما يعرف بثقافة المجتمع القروى أو ثقافة الفلاحين [1] .

---

(١) روبرت ردفيلد، المجتمع القروى وثقافته ، ترجمة وتعليق فاروق محمد العادلى ، مكتبة نهضة الشرق بحرم جامعة القاهرة ، صدر الكتاب فى شيكاغو ١٩٦٥ ، وصدرت الترجمة فى القاهرة ، ١٩٨٠.

هذا وقد نتج عن الاهتمام المنهجى بدراسة المجتمعات القروية تبلور اتجاهين منهجيين واضحين عند دراسة المجتمع القروى وثقافته ، وهما :

(١) **الاتجاه التركيزى** : وهو الاتجاه الذى يركز على القرية كوحدة اساسية للدراسة ، يمكن أن تطبق من خلالها الأساليب والطرق والوسائل التى استخدمها الأنثروبولوجيون البنائيون الوظيفيون فى دراساتهم للمجتمعات المحدودة والبسيطة التى اتسمت بالعزلة النسبية أو الكلية . هذا وقد نتج عن الاستعانة بهذا الاتجاه أن زادت المعلومات الاثنوجرافية وتراكمت حول العديد من القرى فى العالم . وهى الدراسات التى اهتمت بتقديم صورة شاملة لأوجه الحياة الاجتماعية والاقتصادية بالقروية ، مع مراقبة عوامل التغير فى ضوء مقومات التنمية التحديث ، ومشاهدة ما يمكن أن تسفر عنه من نتائج لها تأثيرها فى حياة المجتمع القروى .

(٢) **الاتجاه الممتد أو التوسعى** : وهو الاتجاه الذى يهدف إلى الإهتمام بدراسة وتحليل القرية فى ضوء علاقاتها بالأنماط المجتمعية الأخرى، الأكثر شمولا وتأثيرا ، لا سيما بين القرية والمجتمع القومى الكبير ، ورغم اختلاف الانثروبولوجيين فيما بينهم فى بداية الأمر حول الكيفية أو الطريقة التى يمكن الاستعانة بها والتى يمكن أن تسهم فى فهم بعض الموضوعات وانتقائها للدراسة والبحث ، إلا أن موضوع التصورات الثقافية بعناصرها وسماتها المختلفة قد حسم الجدل المنهجى فى ذلك وأصبحت الدراسة التحليلية لبنية المجتمعات القروية تأخذ فى حسبانها العلاقات القائمة بين الجزء والكل ، أى اعتبار القرية جزءا ثقافيا من كل أكبر من خلال استمرارية البعد الثقافى ومؤثراته بين النمطين. ورغم أن هناك متحيزون للدراسات الحضرية، وآخرون متحيزون للدراسات القروية والريفية ، إلا أن الوحدة الثقافية لطبيعة الشعب تفرض أن يكون هناك تواصلا ولو نسبيا بين الثقافتين ، يسهم ولا شك فى فهم أبعاد كل من حياة الريف وحياة المدينة .

ويرى الأنثروبولوجيون الذين يقومون بدراسة الحياة القروية أن هناك بعض الصعوبات التى تواجههم ، لا سيما عند تحديد أو تعيين الوحدة الاجتماعية المدروسة، ويرون فى ذلك أنه من الضرورى أن يقصر الباحث الأنثروبولوجى دراسته على قرية واحدة، مع تأكده من طبيعة العلاقات التى تربطها بالقرى الأخرى المجاورة لها ، والتى تؤثر فى تشكيل بنائها ونسقها الاجتماعى . وينبه كثير من علماء الانثروبولوجيا القروية إلى ضرورة الأخذ فى الاعتبار الحقيقة التى مؤداها : أن ثقافة القرية هى ثقافة جزئية ، وقد كان الفريد كروبير A.L.Kroeber من أوائل الذين ادركوا هذه الحقيقة ، ومن أدق من أعطوا تعريفا محددا للفلاحين خلال ذكره لخصائص الحياة القروية التى تتلخص فى أنهم يعتمدون فى معيشتهم علي فلاحة الأرض ، وأنهم لا يعيشون منعزلين تماما كما هو الحال في الوحدات والتنظيمات العشائرية والقبلية [(1)] ، ولعل أهم هذه الخصائص التى تميز أهل القرى هو ارتباطهم الشديد بالأرض ، واحتفاظهم بتراث شعبى مميز ، وقد ساعدت تلك الخصائص التى ذكرها كروبير على ايضاح أن المجتمعات المحلية القروية إنما تتكون من مجتمعات جزئية ذات ثقافات .

ومن هذا المنطلق فإن الاتجاه المنهجى فى دراسة المجتمع القروى ، إنما يهتم بالارتباطات الوظيفية بين الظواهر ، وكذا دراسة التداخل فى العلاقات المتعددة للمجتمع القروى بغيره من المجتمعات المحلية المجاورة ، والمجتمع الحضرى المؤثر، لا سيما بعد أن زادت طرق وأساليب الاتصال والتى من شأنها أدت إلى تقريب وتضييق الفجوة الثقافية التى كانت قائمة بين حياة الريف وحياة المدينة، ولهذا يجب أن يعتمد الاتجاه المنهجى التكاملى فى دراسة القرية على ما يلى :

أولا : أن يكون الاساس فى دراسة المجتمع القروى المعايشة والملاحظة

(1) Kroeber, A.L.; Anthropology, Harcourt and Brace, New York, 1948, pp. 281 - 282.

المباشرة والاعتماد على الاخباريين من أجل سد العجز فى جانب المعلومات والبيانات الأولية والتى قد لا توفرها المصادر التاريخية والكتابات الاثنوجرافية للمجتمع القروى محل الدراسة.

ثانيا : الاعتماد على الطرق المنهجية التى من شأنها أن تكشف عن نوعية الحياة التى يعيشها القرويون فى نواحى الحياة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية، مع اجتهاد الباحث في إظهار العلاقات الوظيفية التى تربط بين الظواهر والبنية النسقية التى تسهم فى بيان وفهم الصورة التكاملية لطبيعة الحياة فى القرية .

هذا بالاضافة إلى ذلك لابد من استخدام المداخل والأدوات والطرق المنهجية المتمثلة فى أدلة البحث الميدانى ، والمسوح الاجتماعية، ودراسة الحالات ، وتحليل الوثائق ان وجدت ، والاستعانة باستخدامات البيانات الكمية، وكلها دون شك تسهم فى تقديم صورة أوضح لطبيعة الحياة الريفية بكل ما فيها من ايجابيات وسلبيات من شأنها ان تؤثر فى انطلاقة المجتمعات المحلية نحو الرقى والتقدم والتنمية الشاملة .

وستظل القرية أو الاقاليم الريفية الصغيرة عبارة عن عوالم مستقلة استقلالا ذاتيا نسبيا ، ولهذا فإنه من اجل فهمها لابد من النظر اليها كوحدة بنائية يسودها نوع من التماسك الداخلى ، مع الأخذ فى الاعتبار ان وضعها دراسيا لا يتم الا بوضعها او تفهم حقيقة اتصالها بالكيان الكلى للمجتمع الأعم والأشمل، ولكن مهما يكن من شيء فإن نظرة أحد الفلاحين الى العالم الداخلى والخارجى اللذان يتعامل معهما فى حياته لابد وأن تكون مشروطة بداهة بالطابع المميز والخاص لقريته ، ومن هنا كان لابد من الناحية المنهجية من تحليل الصفات والسمات والعناصر التى تتميز بها تلك النظرة تجاه العوالم المحيطة . ومن هنا أصبحت القرية ميدانًا ومجالا بحثيا يشارك فيه غالبية - إن لم يكن كل - العلوم الاجتماعية باهتماماتها المختلفة .

وفى حدود هذا التواصل بين المعرفة والواقع الاجتماعى والثقافى حدد روبرت ردفيلد R.Redfield محكات أو عناصر التحليل والأنماط الوسيطة، وذلك من خلال نظرته إلى «ثقافة» المدينة التى تفرض نفسها فرضا عند الحديث أو دراسة المجتمع القروى ، كما يرى ردفيلد أن العلاقة بين القرية والمدينة هى علاقة تواجد حتمى [1]. ذلك فى الوقت الذى عاشت فيه القرية - لا سيما فى المجتمعات الشرقية عامة والعربية خاصة- لأمد بعيد مكتفية بذاتها اجتماعيا واقتصاديا وثقافيا فى حدود نسبية تجعلها ليست فى حاجة إلى الآخرين ، فإشباعات الزواج، والمساعدة فى العمل الاقتصادى ، والمعاونة من جانب الحرفيين المتواجدين فى القرية، والإحساس الداخلى بالأمن الاجتماعى حتى وإن كان نسبيا ، كل ذلك أدى الى احساس بالتكامل والاشباع والتميز من خلال النظر إلى الذات فى مقابل النظر إلى الآخر أو المحيط أو المتواجد معا فى التو واللحظة ، وهكذا كانت الحياة الاجتماعية محصورة فى حدود القرية المحلية ، والتى كانت تعمل على تطور وتنمية ثقافتها الذاتية، وبما يحقق لها اختلافا فى الدرجة وليس فى النوع عن ثقافة المجتمعات الريفية المحلية المحيطة بها ، وهكذا فإن التماثل فى سمات وعناصر «نوعية الحياة» كان شرطا وسبيلا للاحساس بالاكتفاء الذاتى محليا.

ولا شك أن شخصية الفلاح المصرى تكمن في تراثه ، وتراثه الثقافى يصاغ فى شخصيته ذلك لأن الكشف عن أهم ملامح الشخصية القومية، هو أمر تدخل اليه الأنثروبولوجيا من نواحى ومجالات متنوعة ، إلا أن الأمر عندما يتعلق بالفلاح المصرى فقد يكون مختلفا إلى حد كبير ذلك لأن أقصر الطرق الى فهم الفلاح وغور شخصيته هو الوصول الى فهم تراثه الشعبى المتوارث ، والذى يعد أكثر من غيره تمكنا من حياة الفلاح ، وفى الوقت نفسه هو أعصاها وأقلها

(1) Robert Redield, Peasant Society and Culture, An Anthropological Approach to Civilization, University of Chicago Press, 1956, pp. 161 - 164.

جميعا على التغيير والتطوير، كما يعد الجانب التراثى الشعبى أقرب الأشياء جميعا الى نفسه وروحه ووجدانه .

ذلك أن دارسى المجتمعات القروية فى مصر ، مهما كانت دراساتهم ورؤيتهم لحياة الفلاح فى سياقها الفكرى او الاجتماعى أو الاقتصادى فلابد من الاقتراب من هذا الجانب الاعتقادى من ثقافته إن أردنا تحليلا ذا عمق وفائدة ، يمكن الوصول من خلاله إلى تفهم مدى القابلية للتغير والتحديث والتنمية إن وجدت فى بعض جوانب حياة الفلاح المصرى .وقد تكون هناك بعض عناصر التراث الشعبى ذات الفائدة والقيمة العملية والمسهمة فعليا في نهوض المجتمع ورقيه وتحديد هويته وشخصيته ، وقد يكون منها ما دخل بالفعل فى عداد الإهمال وفقدان الوظيفة والاداء ، وفى تلك الحالة لا يمكن النظر اليه على أنه شيء مهمل لا فائدة منه ، لا سيما وأن التراث كل متكامل عبر التاريخ رأسيا ، وعبر المجتمعات والثقافات أفقيا ، ومن ثم فإن دراسة مثل تلك الموضوعات أو الاشارة اليها أو ربطها بموضوعات اخرى لها صلة بها إنما يكشف لنا عن أهمية دراسة تاريخ الثقافة بوجه عام بالنسبة للباحث الأنثروبولوجى .

الواقع الاجتماعي والثقافي للقرية المصرية :

نشأت القرى المصرية دون أن يكون فى الحساب تخطيطها بشكل هندسى معين، ومن الملاحظ أن القرية تأخذ أشكالا مختلفة من حيث امتداد مبانيها وشوارعها ومواقع مرافقها العامة ومنظماتها تبعا لاختلاف الظروف الطبيعية والاقتصادية والاجتماعية القائمة فى المنطقة الريفية التى تقع بها القرية، ومن المألوف أن تكون القرية شبه دائرية تتخللها طرقا وازقة ملتوية وتتقارب مساكنها من بعضها وتتناثر مواقع مرافقها العامة ومنظماتها داخلها دون اى نظام محدد وقد يرجع ذلك الى رغبة السكان الريفيين فى الماضى الى ضمان توفر الحماية والأمن وسهولة تسوير القرية وعمل بوابات لها تفتح نهارا وتغلق ليلا نتيجة

لعدم استتباب الامن فى تلك السنوات أو الأزمنة الماضية. غير أنه باستتباب الأمن بدأ السكان فى اقامة المساكن المستجدة في أية امتدادات خالية من المبانى مما أعطى القرية شكلا غير منتظم لا يخضع لأية اعتبارات تخطيطية. فمن القرى من تأخذ شكلا مستطيلا نتيجة وقوعها على حواف الترع أو النهر أو الطريق الزراعى وتتميز القرى بطولها وضيق عرضها وتمتد الحقول عادة خلف هذه القرى مما يقلل من المسافة بين الحقول والقرية فضلا عن امكانية ادخال أية تحسينات دون اضرار كثيرة بسبب ضيق عرض القرية وقصر طرقاتها الداخلية كما يجمع هذا الشكل المستطيل للقرية بين مزايا الاستيطان فى قرى ونظام الاستيطان في المزارع .

وعلى العموم فالقرى فى مصر نشأت وما زالت تنشأ عشوائيا وتسمى القرى غير المخططة أو احيانا وفقا لتخطيط معين فتسمى القرى المخططة .

وعموماً فقد بلغت جملة عدد البلدان الريفية فى مصر (قرية وعزبة وكفر ونجع) فى عام ١٩٣٧ عدد ٢٢٣٣٩ بلدة ، وفي عام ١٩٤٧ زاد عددها الى ٢٥٠٩٦ بلده وإلى ٢٨٢٩٣ بلدة فى عام ١٩٦٠، نستخلص من هذه الأرقام أن عدد البلدان الريفية فى مصر كبير جدا، كما نتبين أنه خلال الفترة من عام ١٩٣٧ إلى عام ١٩٦٠ زاد عدد البلدان الريفية فى مصر بنسبة ٢٧٪ وهى نسبة عالية جدا، وقد تعزى هذه الزيادة إما الى انشاء بلدان ريفية جديدة بالأراضى الحديثة المستصلحة أو إلى إنشاء بعض العزب والكفور والنجوع التى كانت ملحقة ببلدان ريفية أخرى وبالتالى تحتسب فى تعداد ١٩٣٧ غير أنها احتسبت بلداناً ريفية بذاتها فى التعدادات التالية :

ويحتسب عدد البلدان الريفية فى مصر وفقا للتقسيم الادارى فى عام ١٩٧٦ إلى ٤٠٦٦ وحدة ادارية ريفية ، والوحدة الادارية الريفية هى قرية واحدة

(١) المصدر : الجهاز المركزى للتعبئة والاحصاء - الكتاب السنوى الاحصائى لجمهورية مصر العربية - ٥٢ - ١٩٧٩ - يوليو ١٩٨٠ ، ص ٩.

أو قرية ومجموعة بلدان ريفية أخرى تتبعها اداريا وتسمى هذه البلدان بالتوابع ويمثل هذا العدد مجموع عواصم الوحدات الادارية دون أن يتضمن عدد التوابع . حيث ان جملة عدد البلدان الريفية كما سبق ذكره ٢٨٢٩٣ فإن متوسط عدد البلدان الريفية فى كل وحدة ادارية ٧ بلدان .

كما يمكن احتساب عدد البلدان الريفية فى مصر وفقا للتقسيم المالى حيث يقسم الريف الى وحدات مالية تضم قرية أو اكثر باعتبارها وحدة جغرافية من. حيث جباية ضرائب الأطيان الزراعية . ويبلغ العدد وفقا لهذا التقسيم ٣٨٦٦ قرية مالية منها ٣٧٠١ قرية مالية في المناطق الريفية و ١٦٥ قرية بالمناطق الحضرية وفقا لتعداد ١٩٦٠ . ويبلغ عدد البلدان الريفية وفقا للتقسيم الصحى باعتبارها مقارا للوحدات الصحية الريفية ٤٠٥١ قرية فى عام ١٩٦٠. أما اذا أخذنا التقسيم الاحصائى أساسا لحصر عدد البلدان الريفية باعتبار أن القرية هى البلدة الريفية التى يبلغ عدد سكانها ٢٥٠ نسمة فأكثر ، وذلك بغض النظر عن أى اعتبار لأى أساس آخر من أسس التقسيم التى سبق ذكرها . فان عدد البلدان الريفية على أساس عدد السكان فقط يبلغ ٩٧٠٦ قرية بنسبة حوالى ٣٤٪ من جملة عدد البلدان الريفية فى عام ١٩٦٠ وهو ٢٨٢٩٣ قرية.

وتتوزع قرى الريف المصرى البالغ عددها على ١٩٦٠ وفقا للتقسيم الاحصائي ٩٧٠٦ قرية بين الوجهين البحرى والقبلى بحيث تقع ٥١٣٢ قرية بالوجه البحرى ، و ٤٥٧٤ قرية بالوجه القبلى . كما تتوزع قرى الريف المصرى حسب التقسيم الادارى عام ١٩٦٧ والبالغ عددها ٤٠٦٦ قرية بحيث يضم الوجه البحرى ٢٤٠٠ قرية ويضم الوجه القبلى ١٦٦٦ قرية وقد يرجع وجود العدد الأكبر من القرى فى الوجه البحرى دون الوجه القبلى إلى بعض العوامل من بينها :

- زيادة مساحة رقعة الأرض الزراعية فى الوجة البحرى دون القبلى والتوسع الأفقى فى الزراعة.

- انشاء قرى جديدة بمناطق استصلاح واستزراع الاراضى بالوجه البحرى وضآلة امكانية استصلاع الاراضى فى الوجه القبلى .

- الموقع الجغرافى للقرى وتوفر الظروف الطبيعية الملائمة بالوجه البحرى من حيث ملائمة الجو وتوفر الارض الخصبة ومصادر المياه الكافية ووسائل الصرف الجيد .

- القرب من موقع المدن الكبيرة ومراكز التسويق الزراعى مما يحدد نوع وحجم الانتاج الزراعى الحالى والمتوقع .

ومن العناية الكبيرة بالري صدر أول قانون للاصلاح الزراعى بمصر يوم ٩ سبتمبر عام ١٩٥٢ ، أى بعد مرور ٤٨ يوما فقط من انطلاق ثورة يوليو ١٩٥٢ وذلك من أجل القضاء على الاقطاع ، وعلى استغلال عدد قليل من الاقطاعيين لعدد غفير من المواطنين الأجراء ، بالريف ، يتحكمون فى مصائرهم وحرياتهم الاجتماعية والسياسية .

ولقد كان الهدف الأساسى من قوانين الاصلاح الزراعى - التى صدرت عام ١٩٥٢ عام ١٩٦١ - هو اتاحة حق الملكية لأكبر عدد من الاجراء، وفى هذا تحقيق للعدالة الاجتماعية وتدعيم للحياة الكريمة للمواطنين الريفيين .

وقد كان من أهم الآثار الاجتماعية لقوانين الاصلاح الزراعى وضع حد للتباين الشاسع بين الطبقات فى الريف بينما كان هناك (عام ١٩٥٢) ٢٠٠٠ (الفى) مالك يمثلون ٠٫٠٨٪ من مجموع الملاك يمتلكون ما يقرب من ١٫٢ مليون فدان ، بنسبة ٢٠٪ من جملة الاراضى الزراعية ، وكان ٢,٦٤٢,٠٠٠ مالك يمثلون ٩٤٪ من مجموع الملاك يملكون ٢,١٢٢,٠٠٠ فدان بنسبة ٣٥٪ من جملة الاراضى الزراعية [1] .

---

(١) عبدالحليم محمود السيد ، تنمية المجتمع الريفى بالجمهورية العربية المتحدة ، المجلة الاجتماعية القومية، المجلد الرابع ، العدد الثانى ، مايو ١٩٦٧ ص ٥٦ - ٥٩.

وقد حققت قوانين الاصلاح الزراعى الهدف الرئيسى منها ، وهو زيادة عدد الملاك، وقد كان هذا الهدف نفسه ، فضلا عن أهداف زيادة الانتاج ، من القوى الدافعة وراء مشاريع الرى الكبرى التى أصبح رمزها العتيد سد أسوان العالى ، الذى يعد رمزاً لارادة الشعب العربى وتصميمه على صنع الحياة ، كما انه رمزا لارادة الشعب فى اتاحة حق الملكية لجموع غفيرة من الفلاحين لم تسنح لهم هذه الفرص عبر قرون طويلة من الحكم الاقطاعى ، إذ انه سيضمن توزيع الرقعة الزراعية بنحو مليون ونصف مليون فدان ، فضلا عن اتاحة الفرص لتحويل مساحات رى الحياض بالوجه القبلي – التى كانت تزرع مرة واحدة فى السنة وقدرها ٨٠٠٫٠٠٠ فدان – إلى نظام الرى الدائم . هذا بالاضافة الى فوائد اخرى عظيمة تتمثل فى الحصول على ١٠ مليارات كليو وات / ساعة من الكهرباء تساعد على الصناعة والتطوير ،وكذلك تحسين الصرف وتحسين الملاحة النهرية طوال العام .

كما صدر القرار الجمهوري رقم ٩٨١ لسنة ١٩٧٣ بإنشاء بناء وتنمية القرية المصرية ويتبع هذا الجهاز وزير الدولة للحكم المحلى والمنظمات الشعبية، ويتولى هذا الجهاز تنفيذ السياسة العامة والبرامج التى تقررها اللجنة الوزارية للحكم المحلى فيما يتعلق ببناء وتنمية القرية المصرية بالتنسيق مع الوزارات والمحليات والجهات المعنية بما يحقق التكامل للمشروع .

وعموما فقد تغيرت اتجاهات الحكومة نحو القطاع الريفى والمجتمعات القروية، بمجيء القوى والحكومات الاصلاحية والشعبية حيث كان مقياس الاصلاح الزراعى فى تلك المجتمعات النامية (تركيا – مصر – ايران – العراق وغيرها) متمثلا فى محاولة تحسين الأراضى الزراعية . فاستصلاح الأرض عن طريق مرسوم حكومى يحول الأرض فى الغالب من سيطرة الملاك السابقين إلي مستأجرين أو الى ملاك جدد . وجاءت بعض مظاهر الاصلاح – بعد تطبيق الاصلاح الزراعى – متمثلة فى تنفيذ سياسة التسويق التعاونى ونظم الاقراض

والائتمان الحكومي بعد أن كانت في الماضي سياسة يقوم بإحتكارها ملاك الأرض من أجل تحقيق فائض زراعي لهم في الدرجة الأولى . كما يقوم الاصلاح الزراعي الان بعملية تحديث الزراعة في بعض المناطق والمجتمعات الريفية التي تتطلب ذلك ، وربما كان الأسلوب الأمثل في ذلك هو دمج بعض أجزاء الرقعة الزراعية في منطقة ما ، واستخدام الالات وتحسين مشروعات الري وتوسيع مداها ، وايجاد محاصيل جديدة . وتصبح الأهداف الرئيسية لهذه الاجراءات من وجهة نظر الحكومة منحصرة في رفع انتاجية الفدان والهكتار من جانب ، وانتاجية العامل الزراعي من جانب آخر ، كما تنحصر الاهداف في انتاج محاصيل جديدة تهدف الي زيادة الاقتصاد ورفع الدخول الريفية يضاف الى ذلك ما تقدمه الحكومات من خدمات صحية وتعليمية ونحوها من جوانب الرعاية الاجتماعية. وتهدف كل هذه الاجراءات الى حد ما - الى المحافظة - على استمرار المزارعين في مناطقهم الزراعية، وبعيدا عن الاقامة بالمدن ، اى بالعمل على خفض معدلات الهجرة الريفية الحضرية .

ولكن ليس بالضرورة أن يصاحب أو ينتج عن تطبيق سياسة الاصلاح الزراعي صورة وردية في تلك المجتمعات النامية . ففي العراق مثلا ، كان الشكل التقليدي للملكية الأرض قبل عام ١٩٣٢ شكلا قبائليا ، فكل قبيلة تشكل قطعة من الارض وتستغلها في الزراعة أو الرعي . وكان حجم الملكية القبائلية للارض يعتمد على حجم القبيلة السكاني وقوتها . وكان رئيس القبيلة أو شيخها في ذلك الوقت عضوا عاديا يحصل على مكانته بسبب ما يتمتع به من صفات قيادة خاصة فقط . إلا أنه في ظل قوانين ١٩٣٢ - ١٩٣٨ الخاصة بتوطين الأرض Land Settlement اغتصب الشيوخ ملكية الأراضي عن طريق تسجيلها بأسمائهم هم ، وهكذا تغيرت العلاقة التى كانت بين شيخ القبيلة وأعضائها لتصبح علاقة بين مالك ومستأجرين ، إذ أصبحت الظروف جائرة في الريف . ولكن قانون الاصلاح الزراعي في عام ١٩٥٩ بالرغم من أنه يهدف الى تحطيم القوة السياسية لملاك الأرض ، إلا أنه قد أدى الى كثير من الخلط وعدم

الاستقرار ، ويرجع ذلك إلى حد ما للتغيرات المستمرة فى السياسات والأشخاص ، الأمر الذى انعكس في النهاية علي تغير عملية التوزيع ، وبالتالي شجعت على تزايد معدلات الهجرة إلى المدن [1].

وعن واقع القرية الثقافى ، فقد كانت الحاجات الثقافية للمواطنين فى المجتمع القروى التقليدى تشبع من خلال الروابط السائدة فى هذا المجتمع - كما أن الطقوس المصاحبة لفصول السنة ، وبداية العمل الزراعي فى الحقل او انتهائه والأداء الجماعى لأعمال معينة يرتبط ببعض الممارسات كالغزل والتسلية التى تنظمها الجمعيات أو المنظمات الموجودة فى القرية (كحلقة الشباب الريفى) ، ومناسبات الضيافة والحياة الثقافية التى تشكل داخل مجتمع القرية أساس الفنون الأهلية أو التراثية الفطرية، والنشاطات الابداعية. وفى معظم المجتمعات في الوقت الراهن تكسرت العزلة الثقافية المضروبة حول القرى . ولقد كانت الكنيسة والمدرسة فى أوروبا تقومان مثلا بعدد من الوظائف الثقافية فى مجتمع القرية فيما مضى ، واليوم أصبحت السينما والراديو والتلفزيون والصحف تجعل القرويين يشاركون فى تيار الحياة الثقافية الوطنية، وينطبق ذلك أيضا على الأنماط الحديثة من المؤسسات فى القرية كالمضايف ، ونوادى الحجرة، وغرف الاطلاع والقراءة وغيرها . والملاحظ أن هذه المؤسسات ليست مراكز للمشاركة المنظمة فى الحياة الثقافية في القرية فحسب ، وإنما هي فوق ذلك وسائل للارتباط بالحياة الثقافية الوطنية.

ففى القرية المصرية مثلا أصبحت الحياة الثقافية الوطنية وما تحمله الصحف ووسائل الأعلام المسموعة والمرئية من أخبار وطنية وعالمية حول السياسة والاقتصاد والآداب والفنون والأخبار الاجتماعية من أهم الجوانب التى تدور

---

(١) غريب محمد سيد احمد ، علم الاجتماع الريفى ، دار المعرفة الجامعية - الاسكندرية ، ١٩٨٥ ، ص ٢٢٥ - ٢٢٩

حولها الاحاديث اليومية سواء على مستوى التجمعات العائلية او التجمعات الاجتماعية بالقرية.

ولكن ، وعلى الرغم من الانفتاح الثقافى الذى حدث للقرية المصرية سواء انفتاحها على الثقافة القومية أو العالمية ، إلا أن العادات والتقاليد والتراث الاجتماعي فى مصر لا زال يدعو الى زيادة الانجاب ويقوى من هذه الاتجاه تفشى الأمية فى المناطق الريفية حيث تؤثر مشكلة الأمية فى مشكلة التضخم السكانى وتتأثر بها حيث أوضحت الدراسات والبحوث الاجتماعية أن حجم الأسرة يتناسب عكسيا مع درجة تعلم الأم .

كذلك فان فهم الدين بطريقة سطحية وغير سليمة واقتران عملية الإنجاب بمفهوم الرجولة والأنوية وكذا العصبية الأسرية التى تشجع على زيادة حجم الأسرة وخاصة فى المجتمع الريفى الذي يقدس القيم والمفاهيم التى ترتبط بالزواج والحياة الأسرية وما للأبناء من عائد اقتصادى واعتقاد بعض الزوجات أن الانجاب الكثير يؤدى الى دوام الرابطة الزوجية . كل هذه الاتجاهات الثقافية تشكل جانبا من اسباب مشكلة التزايد السكانى فى المجتمعات الريفية المصرية . والأهم من ذلك أنها تعد من أهم معوقات التنمية الريفية والحد من انطلاقة تلك المجتمعات القروية المحلية .

تحديات التنمية في القرية المصرية :

ينظر بعض الباحثين والدارسين إلى التنمية الريفية - نظرة معتادة - على أنها تنمية قطاعية بقصد زيادة انتاج السلع من الوحدات الانتاجية الأرضية والحيوانية والسمكية مع زيادة الكفاءة الانتاجية للوحدة من الاستثمار بتطبيق الأساليب التكنولوجية على مستوى المزرعة ومستوى القطاع الزراعى ، واعتبرت هذه نظرة ضيقة للتنمية الريفية ، لأنها لا تتضمن الاهتمام بالعنصر البشرى وبعدالة توزيع الدخل ، كما أن هذا المفهوم لا يتضمن زيادة العمالة بنشر

صناعات تحويلية للسلع الزراعية فى الريف ، وبالمثل لا يتضمن نظام الحوافز الانتاجية ومشاركة سكان الريف فى عملية التنمية عن طريق تنظيمات محلية اجتماعية واقتصادية وسياسية، ولهذا فإن هذا المفهوم بوصفه تنمية قطاعية فى البنيان القومى لا يغطى التنمية الريفية المتكاملة .

ومن أجل تحقيق احداث تغييرات جوهرية فى المجتمعات الريفية المحلية نحتاج إلى توافر معلومات منظمة عن الواقع المحلى والسلوك الفعلى لسكان هذه المجتمعات على نحو يحقق توازنا أو تلاؤما بين التنمية على المستوى القومى وبين التنمية على المستوى المحلى [1] .

وهذا المدخل يميل الى تفضيل إحداث تغييرات أولية فى نسق القيم وخاصة القيم التى تقف عقبة دون تحقيق أهداف التنمية . وعمومًا فقد عانى الفلاح المصرى من استبداد المستعمرين والطغاة قرابة العشرين قرنا من الزمان ، فأولاً : الفترة من عام ١٧٠٠ ق.م الى عام ١٥٥٥ ق.م، وفيها احتل الهكسوس مصر، وتعرض الفلاح المصرى لطغيان شديد من الهكسوس ومن حكم أسرات غير معروفة، وثانيا الفترة من عام ٦٦٣ ق .م إلى عام ٥٢٥ ق.م وفيها عمت الفوضى والخراب والدمار فى جميع أرجاء مصر ، وثالثا الفترة من ٥٢٥ ق.م الى ٤٠٤ق.م، وهى فترة الاستعمار الفارسى الأول وما صاحبها من مظالم وافلاس للخزينة المصرية، وفيها قام الفلاح المصرى بثلاث ثورات ، فشلت اثنتان منها، ونجحت الثالثة بعد تدهور الحكم الفارسى ، ولكن عاد الاستعمار الفارسى مرة ثانية فى الفترة ما بين عام ٣٤١ ق .م إلى عام ٣٣٣ ق.م وعاث فى البلاد فسادا وخرابًا ، ورابعًا ، فترة الاستعمار الاغريقى والبطلمى من عام ٣٣١ ق.م إلى عام ٣١ ق .م فيها وصلت مصر الى الحضيض ، وتلى ذلك مباشرة فترة

---

(١) محمد ابراهيم كاظم ، التطور القيمى وتنمية المجتمعات الريفية، المجلة الاجتماعية القومية، المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية، سبتمبر ١٩٧٠م ، ص٦ ، وما بعدها.

الاستعمار الرومانى من عام ٣١ ق.م حتى عام ٦١٨ ميلادية ، وتسمى تلك الفترة بعصر الشهداء ، إذ شهدت تلك الحقبة الطويلة من تاريخ مصر عملية انتشار الدين المسيحى فى مصر وما صاحبها من حملات الاضطهاد الرهيبة الى قامت بها الامبراطورية الرومانية ضد الشعب المصرى ، وأخيراً فترة الاستعمار التركى والاستعمار الفرنسى والاستعمار البريطانى ، وهى الفترة التى امتدت إلى سبعة قرون من الزمان ، من عام ١٢٥٠ ميلادية حتى عام ١٩٥٢ ولا يجهل أحد الوان العذاب التى لقيها الفلاح المصرى على ايدى الاتراك [١] .

وهكذا عاش الفلاح المصرى طوال الفى عام ، وهو معدم ، لا يملك شيئًا ، ولا يعرف عن السلطة أو الحكومة الا السخرية وتحصيل الضرائب وتعنت الموظفين وفظاظة رجال الشرطة .

وإذا تجاوزنا - جانبًا - التاريخ الاجتماعى للفلاح المصرى وما به من سلبيات جسام واجهت طريقه نحو التنمية ، ونحو النهوض بأحواله الاجتماعية والثقافية والاقتصادية ، فإن أهم تحد يواجهه الآن هو معوقات التنمية الريفية فى الجوانب الاجتماعية من الثقافة وعلى وجه الخصوص في جانب القيم ، وذلك لانها الإطار المرجعى الذي يستمد منه الناس أحكامهم ، وعلى سبيل المثال فإن ارتباط المواطنين بالأرض وعدم التفريط فيها كقيمة يؤدى إلى الحد من الهجرة إلى المناطق المستصلحة ، كما أن المكانة والمرتبة الاجتماعية تؤدى إلى قبول عمل معين ورفض أعمال أخرى ، ويتعلق الرفض أو القبول بالقيم السائدة فى المجتمع، وخاصة بالنسبة للجماعات القرابية التى ينتمى اليها والتى يستمد منها مكانته الاجتماعية [٢] .

---

(١) سيد عويس ، من ملامح المجتمع المصرى ، دار مطابع الشعب ، القاهرة ، ١٩٦٩، ص ١٠ - ١٠٨ .

(٢) سالم عبدالعزيز ، العوامل المتحكمة فى التنمية الاجتماعية ، المركز التجريبى للتدريب على تقويم المشروعات الاجتماعية، معهد التخطيط القومى ، القاهرة ، ١٩٨١ ، ص ٩ .

وتصبح المشكلة الأساسية التى تواجه العاملين في مجال تنمية المجتمع الريفى كامنة فى احداث تغييرات عميقة فى نسق القيم الاجتماعية، وبناء التوقعات ومستويات التطلعات والاهتمامات ، ونموذج القيم العليا المسيطر على تفكير أبناء المجتمع .

وعن قصة الاصلاح الريفى بوجه عام فى مصر فلم تكن هناك مجهودات لتنمية المجتمع الريفى فى مصر حتى بداية القرن الماضى ، فقد كان الأمر متروكا لأهالى الريف أنفسهم ، ولكرم كبار الملاك الذين - هم فى حقيقة الأمر - كانوا يناوئون معظم حركات الاصلاح فى الريف ولا يسمحون إلا ببعض التعليم الدينى فى الكتاتيب ، وبعض مجهودات الاحسان غير المنظمة والتى تدعم سلطتهم في قراهم أكثر مما تفيد الفلاحين .

ومع بداية القرن التاسع عشر بدأت بعض حركات الاصلاح ، ففى عهد محمد على وسعيد واسماعيل - فى القرن التاسع عشر - ألغى نظام الالتزام وأدخلت كثير من الزراعات ، وشقت القنوات والترع ، ورروجع نظام الملكية . وفى عام ١٩٠٨ بدأت حركة الجمعيات التعاونية ، أو نقابات وشركات التعاون كما كان يطلق عليها فى ذلك الوقت ، وفى عام ١٩١٨ بدأت حركة المجالس القروية ، وفى عام ١٩٤١ بدأت حركة المراكز الاجتماعية ، وفى عام ١٩٥٤ بدأت حركة الوحدات المجمعة ، وفي عام ١٩٦٠ بدأت حركة المجالس القروية بصيغتها المتطورة، وفى عام ١٩٦٥ بدأت مشروعات استصلاح الأراضى نتيجة لانشاء السد العالى ، وفى عام ١٩٧٥ بدأت حركة المجالس المحلية بالقرى طبقا لقانون ٥٢ لسنة ١٩٧٥ ، كما تلا ذلك عدة حركات وقوانين أخرى بهدف دعم التنمية الريفية فى مصر .

وهذا وقد ظهرت مشروعات أخرى كان لها دورها فى تطوير الريف مثل مشروع القرية النموذجية ببهتيم ، ومشروع مركز التنظيم والتدريب بقليوب، ومشروع الهيئة المصرية الامريكية لإصلاح الريف ، ومشروع جمعيات الاصلاح

الريفى ، ومشروعات جمعيات التنمية الريفية .. الخ . ولا يعنى هذا أن كل الحركات والمشروعات الاصلاحية كانت من النوع التنظيمى العام فقد ظهرت أيضا مشروعات قطاعية مثل الوحدات الزراعية ، والوحدات الصحية ، والمدارس الريفية، كما انشئت بعض مكاتب البريد والتليفون ومهدت بعض الطرق وأنشئت بعض الخطوط الحديدية، ونظمت بعض المعارض الزراعية ، وقامت بعض الهيئات ببناء مساكن الفلاحين وغيرها .

وعلى اية حال فإن مشكلة تنمية وتطوير المجتمعات الريفية هى مشكلة متشعبة تهم كل مهنة ، فهى تهم رجال الاقتصاد والاجتماع والانثروبولوجيا والعمران والسياسة والإدارة كل فى مجال تخصصه ، أما المهتمين بالتنمية الريفية بشكل عام هم يهتمون بالمجتمع الريفى كوحدة أى أنهم لا يقصرون عنايتهم على جانب من جوانب التنمية ولكنهم يهتمون بتغيير القرية عامة، فينظرون للمجتمع المحلى على أنه وحدة حية متشابكة معقدة لا يمكن تقسيمها الي تخصصات ، بل إنهم يرون أن تخلف الريف فى بلدنا يرجع الى أن أغلب المشتغلين بالتنمية فى بلادنا قد دأبوا على معاملة الريف على أنه تخصصات زراعية وتعليمية وصحية .. الخ ، ولم يفطنوا الى حقيقة هامة ، وهى أن القرية وحدة اجتماعية مترابطة ولا يمكن معاملتها إلا على هذا الأساس [(1)].

ورغم وجود سمات عامة ومشتركة تميز القرى المصرية بوجه عام ، إلا أن هذه القرى كثيرا ما تختلف فيما بينها في بعض السمات الأساسية مثل الاساس الاقتصادى ومساحة الزمام وعدد السكان وعدد المتعلمين ونوعية الخدمات المتوافرة ... الخ ، وصحيح أن سكان القرية المصرية - كما هو الحال فى

---

(١) صلاح العبد ، موجز لتحديات التنمية فى البلدان النامية ، «العالم الثالث» وبالتركيز على العالم العربى ، فى ، الكتاب السنوى الأول فى التنمية الريفية، اشراف أ.د. صلاح العبد، دار المعرفة الجامعية ، الاسكندرية ، ١٩٨٠ ، ص ٩ - ١١٩ .

المجتمعات الزراعية فى العالم - يمكن وصفهم بأنهم قدريون ومتدينون ، وأنهم يتمسكون بالتقاليد ويحترمون كبار السن ، وأنهم يؤمنون بالغيب ولا يحترمون الوقت ، وصحيح أننا نعرف أن الاساس الاقتصادى للقرية المصرية زراعى وأن هذه الزراعة تقوم على أدوات ووسائل بدائية فى الحرث والبذر والرى والحصاد ، وصحيح أننا نعرف أن القرى المصرية مبنية بالطين وأنها تكاد تكون خالية من المراحيض وأن الفلاحين ينامون على الفرن .. كل هذا صحيح .. ولكن أين هذا الكلام العام من الدقة اللازمة للتعرف مقدما بقدر كبير من الثقة على نوعية استجابة أهالى مجتمع معين فى وقت معين وفى دراسة معينة.

إن الشيء الذى يجب أن نعترف به مقدما هو أننا نعرف القليل - والقليل جدا - عن الريف والريفيين ، وعن شعور الريفى وآماله ومخاوفه ، وإننا بعيدين كل البعد عن الالمام العلمى المفصل والمحقق بمقومات الحياة التقليدية فى الريف كالقيم والاتجاهات والمثل والدور والمكانة وتقسيم العمل ... الخ ، حتى الريف نفسه الذى لا يزال يعيش فى القرية فإن معرفته بحال مجتمعه لا تمثل إلا خبرة فرد معين ووجهة نظر فى لحظة معينة . ولهذا السبب أساسا - ولأننا نجهل الريف المصرى - كانت نتائج مجهودات التنمية الريفية بأشكالها المختلفة منذ مطلع هذا القرن حتى الآن ، نتائج لا تتناسب بأى حال من الأحوال مع الجهد والمال الذى بذل من أجلها .

فالقيم هى نتاج لخبرات تاريخية وموروثات اجتماعية وثقافية تناقلتها الأجيال ، وتجسدت فى النهاية فى شكل قواعد تنظم سلوك الناس وتعمل على توجيه هذا السلوك نحو غايات وأهداف معينة وفى مواقف معينة [1] .

القيم إذن عبارة عن صور تحدد معنى الحياة الإنسانية ، وتعطى الإطار أو

---

(١) احمد ابو زيد ، البناء الاجتماعى ، الجزء الاول ، المفهومات ، الهيئة المصرية العامة لكتاب ، الاسكندرية ، ١٩٧٥ .

المضمون الذى يمكن الأفراد من حل مشاكلهم اليومية على أساس من الاختيار، وتأسيسا على ذلك تتضح العلاقة الوثيقة بين القيم السائدة وبين برامج ومشروعات التنمية التى تصمم من أجل تنفيذها فى مجتمع محلى معين بحيث يمكن القول بأن القيم تلعب دوراً حاسمًا وأساسيا فى إنجاح أو عرقلة هذه البرامج والمشروعات .

ومن أمثلتها :

١ - قيم التماسك الاجتماعى والعائلى السائد بين الأفراد كنتيجة طبيعية لطبيعة العمل الزراعى فى الريف .

٢ - القيم الدينية والاقتصادية التى تعوق تكوين المدخرات أو الأوعية الادخارية داخل القرية باعتبار ان عائد المدخرات من البنوك يعد شيئا محرما، أما اقتصاديا فيفضل الاستثمار فى شراء الأرض الزراعية وشراء الماشية.

٣ - عدم مسايرة البرامج والمشروعات التنموية المنفذة للواقع الفعلى قد يؤى الى مقاومة الناس لها.

٤ - موقف الأهالى من التكنولوجيا الجديدة والأساليب المتطورة فى الانتاج بالرغم من سماعهم عن فائدتها الاقتصادية.

فالملاحظ أن العادات والتقاليد الضارة الجماعية تعتبر ألوانا من السلوك تنشأ وتنتشر تلقائيا بين الجماعات المختلفة ، يسود بعضها فى مناطق معينة، أو قد يصبح عاما فى مختلف المناطق ثم تتناقله الأجيال المختلفة فيصبح تقليدا يأخذها الخلف عن السلف دون تفكير أو تأمل بما يرتبط بها من قوة والزام تبلغ مداها فى بعض التقاليد التى تراها الجماعة أساسية لكيانها فتصبح عرفا لها تشتد فى معاقبة من يخرج على قواعده ، وجانب من هذه العادات والتقاليد حميد يوثق الصلات والروابط بين الأفراد والجماعات ويمكنهم من قضاء أمورهم فى يسر وسهولة ويكسف تصرفاتهم لونا من التجانس والترابط ومن أمثلة هذه العادات الكرم والتعاطف واحترام الوالدين وصلة ذوى القربى ومساعدة الغير

وفعل الخير وما إلى ذلك من عادات تسبغ على المجتمع طابعا تشيع فيه المحبة والمودة والسماحة وما يماثلها -من معان ايجابية يستمد منها المجتمع آدابه وقيمه الفاضله .

أما الجانب الآخر من العادات فضار يعمل على إشاعة التفكك والتخلف والتنافر وما إليها من عوامل سلبية تعوق نهوض المجتمع وضعف أنظمته الاجتماعية ومن أمثلة ذلك عادة الأخذ بالثأر والتبول والتبرز فى مجارى المياه، والتداوى بالسحر والأحجبة والزر ، والمغالاة فى الصرف على الافراح والمآتم والمكيفات ومخالفة آداب السلوك العام واحتقار العمل اليدوى وما إلى ذلك من أمور .

إلا أنه بالرغم من أن الكثير من هذه العادات يخالف الشرع والذوق وآداب السلوك كما يخالف القواعد الصحيحة والاقتصادية فان الأجيال المتلاحقة تتوارث عن بعضها التقاليد المرتبطة بهذه العادات الضارة دون تفكير أو تأمل وذلك نتيجة لسوء تفسير العامة للقدر البسيط من المعلومات الدينية والتقاليد التى تصل لعقولهم ورؤيتهم أسلافهم يتبعون هذه العادات وترويج بعض المستغلين الذين يستفيدون من ممارسة الناس لها وغير ذلك من العوامل .

وطول ممارسة الناس لهذه العادات وتشابك مجموعات العادات الضارة ببعضها جعلها تكتسب قيما معينة وترتبط فى أذهان الناس بضرورة القيام بها فى ظروف معينة، الأمر الذى أدى إلى الاعتقاد الشائع بأنه لا يمكن للدولة التدخل فى تغييرها .

إن رسم برامج تغيير العادات لمقاومة الضار وصيانة النافع قد أصبح ممكنا على ضوء انتشار وسائل الاتصال بالجماهير على نطاق عام عن طريق الاذاعة والصحافة والسينما والتليفزيون والنشرات والمطبوعات واللوحات إلى غير ذلك من الوسائل بجانب فهم عميق لمختلف العوامل والدوافع والظروف المحيطة بمختلف العادات والتقاليد .

هذا الفهم لابد أن يبنى على دراسات اجتماعية تحليلية لايضاح خصائص هذه العادات ومظاهرها ووظائفها وآثارها فى الحياة الاجتماعية ورأى الناس حولها ومدى تمسكهم بها وما إلى ذلك من بيانات ، ويمكن على ضوئها تحديد الاتجاه الذى ينصح باتباعه فى شأنها كما تبين الطرق المختلفة لتحقيق ما قد يلزم اجراؤه من تغيير سواء كان بالارشاد أم بتقديم خدمات من نوع خاص أو بالتشدد فى تطبيق تشريعات مالية أو سن تشريعات جديدة ، كما يمكن الاستعانة برأى القادة المحليين المستنيرين لمعرفة أنسب خطط تغيير العادات عمليا وعلى أن تعطى أولوية فى البحث للعادات المنتشرة بين الجماعات والفئات على نطاق عام وذات الأثر الواضح فى الحياة الاجتماعية [1].

وعلى الرغم من أن تقدم وسائل القياس فى البحث العلمى قد مكن من اخضاع الانماط السلوكية للناس للملاحظة الموضوعية ، وبما ساعد على كشف النقاب عن أسبابها ودوافعها ، إلا أن هناك تحدى منهجى يواجه الباحثين فى مجال القيم ويتمثل فى عدم ادراكهم المجتمع المدروس باعتباره بناءا اجتماعيا ويحتل كل نسق فرعى من القيم مكانا داخل هذا البنيان الاجتماعى كما يتفاعل مع غيره من الأنساق المعيارية الأخرى ويتوازن معها باستمرار ، أى عدم ادراك أن القيم تعد انعكاسا للبناء الاجتماعى لأنها نتاج مجتمعى خالص ، وبالتالى فان عزل القيم عن البناء الاجتماعى وعن السياق الموجدة فيه والنابعة عنه وعدم وضعها فى إطارها الثقافى والاجتماعى يتسبب فى مشكلات منهجية تكون بمثابة تحدى للجهود المبذولة فى كشف النقاب عن القيم المعوقة للتنمية خصوصا وأنها قد أصبحت بمثابة شيء ملموس يمكن دراسته وقياسه امبيريقيا ، وأصبح التعرف عليها بالطريقة العلمية الموضوعية مدخلا هاما للمخططين الاجتماعيين

---

(1) Wilbert E. Moore; Social Change, Englewood Cliffs, Printice-Hall, New York, 1974, p. 192.

وواضعي السياسة الاجتماعية لتخطيط وتصميم برامج ومشروعات تنموية يتوافر لها عند التنفيذ المزيد من فرص النجاح ، بحيث تصبح المسألة بمثابة إعادة تعليم للأهالي الذين يعيشون ثقافة تقليدية متخلفة إلى اشخاص ايجابيين متقلبين لنتائج التغيير المستهدفة وتلك مسئولية جميع الأجهزة القائمة داخل المجتمع، مع الإهتمام بالأساليب الاتصالية المناسبة .

تنمية وتحديث المجتمع القروي : وجهة نظر تحليلية :

يشير مفهوم التحديث في أبسط معانيه كما أوضحه ولبرت مور بأنه انتقال المجتمعات التقليدية والبسيطة إلى الاستعانة بنماذج التكنولوجيا والالية، وما يتبع ذلك من تغيرات في التنظيمات الاجتماعية والبنية الثقافية ، أو بمعنى آخر أن التحديث في نظره هو أن تأخذ المجتمعات البسيطة بأسباب التغير وصولا الى مماثلة حالة المجتمعات الغربية الصناعية في تنظيماتها وأسس حياتها المستقرة [1]. وهكذا ينظر إلى التحديث باعتباره نوعا من المحاكاة أو التقليد، تتنافس فيها المجتمعات في رأيه من أجل إدخال نظم مستحدثة على حساب نظم قديمة بالية ربما تكون قد فقدت دورها أو أدوارها الوظيفية نتيجة لانغلاقها وعدم اتصالها أو احتكاكها بالثقافات المختلفة .

وهكذا يكتسب التحديث معنى آخر في تزايد القدرة المعرفية لدى الإنسان من أجل تطويع البيئة المحلية لصالحه ، أي أن الانسان في نطاق التحديث يصبح أكثر قدرة على فهم الأسرار البيئية المتعايش معها، ومن ثم يبدأ في تطبيق تلك المعارف وتوظيف تلك الأسرار لصالحه الشخصي ولزمرته الاجتماعية، أي أن

---

(1) Wilbert E. Moore; Social Change, Englewood Cliffs, Printice-Hall, New York, 1974, p. 192.

التحديث من وجهة النظر هذه يشير إلى رغبة الإنسان فى التعلم [1] . وهذا قد يتحقق بفضل المظاهر والمؤثرات الجديدية للتصنيع وأثره فى بناء قيم جديدة الثورة التكنولوجية فى خلق وابتكار وسائل جديدة للاتصال بين الثقافات والشعوب، خطط التنمية الحكومية والأهلية المستهدفة الى تغييرات بنائية في المجتمع .

من أهم ما يؤكد عليه الأنثروبولوجيون أن المجتمعات والثقافات مهما بلغت درجة بساطتها وتقليديتها إلا أنها لا يمكن أن توصف بالجمود أو الركن أو الثبات الدائم والتجانس الدائم فى قيمها تجاه الحياه ، ومن ثم فلابد أن يكون لدى تلك المجتمعات قدر من التنوع والتغير . ولكن رغم ذلك يتساءل البعض لماذا تصبح بعض المجتمعات «حديثة» فتأخذ بأسباب التغير والتحديث ، بينما لا تصبح مجتمعات أخرى كذلك ؟

هنا يجب أن يبادر العلماء والباحثون إلى التفرقة بين ما هو محافظ ، وما هو لديه القابلية للتغير ، وكذلك الفرق بين التقليد Tradition والتقليدية Traditionalism حيث يشير التقليد الى التمسك بالممارسات والأساليب والأنماط السلوكية المنحدرة من الماضى وتمجيدها Nostalgic ، ولكن رغم التمسك بالماضى والافتخار به ، إلا أن التقاليد تتغير وتعمل على مسايرة الحياة الكلية للمجتمعات ، وذلك فى ضوء الاكتساب والاتصال الثقافى ، وهنا تتحدد قيم ذلك الماضى فى ضوء ما يمكن أن يقدمه أو يسهم به من أجل نفع الإنسان ورقيه، ولذلك فإن هذا يختلف باختلاف المجتمعات والشعوب وفى طريقة نظرتها إلي

---

(1) Marion Levy' Moderniz'tion and the Structure of Societies, Princeton University Press, New Jersy, 1969, p. 31 - 36.
- Szymon Chodak; Societal Development, Oxford University Pressm 1976, pp. 161 - 269.

ماضيها ، وفى الكيفية أو الطريقة التى يتعاملون بها مع ماضيهم .

ولذلك فإن هذه العملية المعقدة ما بين الانجذاب الى الماضى والتطلع نحو المستقبل بكل ما فيه من المقومات التى تحمل طرقا جديدة للحياة إنما تسمى «التحديث» ، والتى من خلالها تم الإرتقاء بالعديد من الأنماط التقيدية والخذ بأسباب تطور وارتقاء القيم الانسانية ، ولكن لم يتم ذلك الإرتقاء بدون أن يكون هناك ثمنا فادحا للتحديث على حساب المجتمع المستقر الآمن فى نمطه التقليدى لا سيما فى المجتمعات البسيطة والريفية حيث اهتزت القيم العائلية، وقيم التضامن وقيم الثقافة والتعلم ، وقيم الخصوصية الجماعية فى مقابل قيم الخصوصية الفردية وهكذا .

ولكن يبرر بعض العلماء والباحثين كل ذلك بما أسموه رغبة المجتمعات المحلية فى التغيير والتحديث ، أى أنه لابد أن يكون هناك الدافع نحو التحديث والأخذ بأسبابه كشرط للاتجاه نحو الحياة الحديثة ، وهذا لا يتحقق إلا من خلال ما أسموه أو أطلقوا عليه «الحاجة إلى الإنجاز» فى مجالات الاجتهاد ، والتعامل، والتجديد ، والابتكار الحقيقى [(١)] .

وإذا كانت التنمية هى عملية اجتماعية متعددة الجوانب ، متشعبة الأبعاد، فقد حرص الباحثون الاجتماعيون على دراسة قضاياها ، فى محاولة لتحديد أبعادها وتحليل عناصرها ، وعلى الرغم من الباحثين الاقتصاديين كانوا أسرع فى دراساتهم واهتمامهم بالتنمية ، إلا أن المفكرين والباحثين الاجتماعيين لم يتخاذلوا فى شأن دراستها ، فأقبلوا عليها من مختلف التخصصات محاولين ارتياد مجالاتها ، وتحديد أبعادها ، ومناقشة قضاياها المتعددة ، نذكر من هؤلاء ويلبرت مور W. Moore ، ودانييل ليرنر D. Lerner ، وتشارد آدمز R.Adams

(1) David C. McClelland, The Achieving Society, Van Nostrand Company, New Jersy, 1968, pp. 12 - 18.

كليفود جيرتز C. Geertz ، وجون جيلين J. Gillin وغيرهم.

ومن الدلائل الهامة على التحول فى الاهتمام بالتنمية من الجانب الاقتصادي إلى الجانب الاجتماعى ، أهمية البعد السوسوثقافى الذى فرض نفسه على عملية التنمية فى كل المجتمعات الانسانية، لا سيما النامية منها، حيث كانت تلك الاهتمامات فى بدايتها الأولى تركز فقط على متوسط دخل الفرد [١] ، كأساس ومعيار اقتصادى بحت لقياس مؤشرات التنمية دون مراعاة للظروف إن الاختلافات المتصلة بالبناء الاجتماعى والمستوى الحضارى لتلك المجتمعات ، ومن ثم اتجه العلماء والباحثون الى الاهتمام بمجموعة من المؤشرات الاجتماعية والثقافية من بينها المستوى الثقافى ، والتعليمى ، والصحة ، وظروف العمل وأدوات الإنتاج ، والإسكان ، والتأمين الاجتماعى ، والترويح، والثقافة الشعبية والقيم ، ودرجات التجانس أو عدم التجانس بين سكان المجتمع الواحد [٢].

ولهذا فان التنمية الاجتماعية ليست ضرورية فقط من أجل دفع عجلة التنمية الاقتصادية ، وإنما هى ضرورية لمعالجة المشكلات المترتبة على التنمية الاقتصادية، فمن المعروف أن التنمية السريعة التى تحدث في المدينة تؤدى الى وجود انفصام حضارى بين القرية والمدينة، كما أنها تدفع الريفيين الى الهجرة من الريف الى الحضر ، وهذا من شأنه أن يرفع نسب البطالة ، فضلا عن تركز المهاجرين الجدد للعيش فى الأحياء المتخلفة ، ومن ثم تكون اندفاعات التنمية غير المحسوبة مؤدية الى تكوين ما يسمى بالمجتمعات او الثقافات الفرعية داخل

---

(١) عبدالباسط محمد حسن ، التنمية الاجتماعية، معهد البحوث والدراسات العربية، القاهرة، ١٩٧٠ ، ص ١٦.

(2) United Nations Research Institute' The Level of Living Index, Report, No. 12, Geneve, 1978.

المجتمع الكبير [١] .

ولهذا فالمهمة الأساسية للتنمية الاجتماعية هى اهتمامها بالعنصر البشرى، والذى تجعله دائما محورا لها ، ترقى به وبتقدمه من خلال احداث تغييرات اجتماعية شاملة فى بناء المجتمع ووظائفه .

التنمية الريفية واختلاط الأدوار :

وأمام تعدد الجهات التى تقدم خدماتها لمواطنى القرى كان لابد من إيجاد جهاز يقوم بالتنسيق بينها ويشرف علي تنفيذ السياسة العامة للدولة ، كما يتولى مهام التطوير وإدخال التكنولوجيا الحديثة فى مجالات الانتاج والخدمات، وذلك ايمانا بأن القرية هى وحدة الانتاج الرئيسية التى يمكن عن طريقها زيادة الدخل القومى . ومن هنا نشأت فكرة جهاز بناء وتنمية القرية الذى صدر بشأنه القرار الجمهورى رقم ٨٩١ لسنة ١٩٧٣ فى ظل العمل بقانون الادارة المحلية رقم ٢٤ لسنة ١٩٦٠ والمعدل بالقانون ٧٥ لسنة ١٩٧١.

وقد كانت الحاجة ملحة لإنشاء مثل هذا الجهاز للعمل فى القرية بعد أن تفاقمت وتراكمت معوقات التنمية الريفية والتى يمكن أن نوجزها فيما يلى :

الإنفجار السكانى وتضخم كثافته - انتشار الأمية - انعدام وبطء تطور البنية والمرافق الاساسية - عدم وضوح سياسات تنمية القرية - التفاوت فى الاهتمام بين القرى التقليدية والقرى المستحدثة - ضعف المشاركة الشعبية - عدم التنسيق بين جهود المؤسسات العاملة على تنمية القرية - هجرة الموارد

(١) عبدالباسط محمد حسن ، التنمية الاجتماعية ، مرجع سابق ، ص ٢١ .

البشرية الريفية من الأيدى العاملة إلى خارج القرى - تخلف الادوات المستخدمة فى الزراعة - جمود العلاقة بين المالك والمستأجر - تخلف النظم الادارية داخل القرية.

فالمجتمعات الانسانية دائمة التغير اجتماعيا وثقافيا ، وتلك سمة ملازمة للحياة فى كل المجتمعات والثقافات ، وإن كانت هناك بعض الاختلافات فهى اختلافات فى الدرجة . وتسهم بعض العوامل داخليا وخارجيا فى عمليات التغير ، وغالبا ما يكون التغير نتيحة الاحتكاك وتواصل العاملين معا . ومن أهم العوامل الهادفة للتغير تلك العمليات المرتبطة بتنمية المجتمع وتحديثه ، وإذا كنا قد أشرنا من قبل إلى جوانب وعوامل ومقومات التحديث ، فإنه لا يمكن انكار دور التنمية المحلية وأثرها فى بنية عناصر الثقافة الشعبية، وقد عرفت هيئة الأمم المتحدة مفهوم التنمية المحلية بأنها تلك العملية أو العمليات التى يمكن بواسطتها توحيد جهود المواطنين والحكومة من أجل تحسين الأحوال الاقتصادية والاجتماعية والثقافية فى المجتمعات المحلية ، ولمساعدتها على الاندماج فى حياة المجتمع الاكبر ، والمساهمة فى تقدمه بأقصى قدر ممكن» ، ويعد مقوم الموارد البشرية من أهم العناصر والمقومات التى تسهم فى عملية التنمية المحلية، لدرجة أن المفاهيم والمصطلحات والتعريفات الجديدة للتنمية قد اتجهت الى ما يسمى بتنمية «الموارد البشرية»، فى المقام الأول ، كعامل وخاصية من أجل النهوض بالمجتمعات النامية، أضف الى ذلك أن التنمية قد بدأت تأخذ أشكالا أخرى فى تحقيق درجات الوعى ، والأخذ بأسباب الصيانة، وعدم الإهدار مع التخطيط السليم من أجل الحاجات الضروية والأساسية للمجتمع المحلى .

أما عن دور التنمية فى المجتمع القروى ، وعلاقة التنمية ونتائجها بالاطار الثقافى الشعبى لذلك المجتمع ، فيتمثل فى بناء القاعدة الاجتماعية والثقافية وتوسيعها بما يحقق أهداف وغايات التنمية لا سيما داخل المناطق والقرى الريفية

المستحدثة والتى تعقد عليها الشعوب والحكومات أملا كبيرا فى تجاوز السلبيات العالقة ببعض عناصر تراث الماضى ، ومن ثم تكون فى تلك المجتمعات الجديدة والمستحدثة الفرص المواتية من أجل صياغة المبادأة المحلية للارتقاء والتقدم والنهوض ، والمشاركة الشعبية جنبا الى جنب مع هيئات ومؤسسات الدولة العاملة فى تلك المجتمعات ، وهى المشاركة التى تتمثل فى بناء المدارس وأماكن العلم ، والوحدات الثقافية والاجتماعية والصحية والترويحية من أجل النهوض بمستوى الوعى المحلى فى تلك البلدان ، وأملا فى تكسير وتدمير بعض عناصر الثقافة الشعبية البالية والتى قد تعد أحد الأسباب الرئيسية المعوقة لمراحل التنمية ومجالاتها .

ولا يقتصر دور التنمية الريفية وعلاقتها بالثقافة الشعبية على ايجاد - فقط - مدخلات ومخرجات للتنمية ، بقدر ما تسعى عملية التنمية على إيجاد وخلق الظروف الملائمة والتى تجعل من أهالى الريف أكثر قدرة علي التكيف والتجارب والانتماء مع المتغيرات الجديدة ، وحتى يتخلى الفلاح عن الازدواجية الفكرية التى اتسم بها منذ أمد بعيد ، وأن يشارك فى اداء الادوار المجتمعة والتنظيمية دون أن يكون لديه احساس بفقد أو هدر دوره الشخصى في خضم الادوار الكثيرة المتعامل معها .

لا شك أن دخول القرية والحياة الريفية فى مصر إلى مجالات المشروعات التنموية اقتصاديا واجتماعيا وثقافيا فى الآونة الأخيرة، والتى تمثلت فى ادوار الأجهزة المعنية والمشاركة فى عملية التنمية مثل : الوحدات المحلية القروية ، وجمعيات تنمية المجتمع الريفى ، والجمعيات التعاونية الزراعية ، وجهاز بناء وتنمية القرية المصرية ، وبنك القرية والتسليف والائتمان الزراعى ، ومؤسسات الارشاد الزراعى ، ومحو الأمية الأبجدية ، ومؤسسات الرعاية الصحية، وأجهزة رعاية الشباب ... إلخ ، فإن كل ذلك قد أتاح للفلاح التخلص من بعض أدواره ، أو على الأقل جاء إليه من يشاركه الرأى واتخاذ القرار دون أن يسلب منه أو

ينتقص من قدره فى احتفاظه بسلطته فى اتخاذ القرار المناسب لنفسه .

وفى كل الأحوال فان الفلاح المصرى بدأ يتحدث بلغة جديدة فى الحوار اليومى ، أقر من جانبه بعد معايشتها بأهمية دور العلم والثقافة الواعية في كل ما يتصل بشئون حياته . كما شعر الفلاح المصرى أن وجود مثل تلك المؤسسات والهيئات العاملة فى المشروعات التنموية الريفية بأهميتها لا على مستوى المشاركة الفردية من جانبه هو فقط ، وإنما بأهميتها ودورها الوظيفى فى حياة أسرته ككل ، حيث أصبحت الادوار والقرارات ذات فاعلية وتأثير فى حدود الأسرة والحياة العائلية القروية قبل أن تكون ذات تأثير نظامى أو فردى فقط .

وهكذا تم إعادة حسابات توزيع الأدوار فى المجتمع القروى وبما يتلاءم مع طبيعة الأعمال التى تؤدى بحيث لا يطغى بعضها عن بعض ، ولأول مرة الفلاح ومن معه بأهمية وقيمة وقت الفراغ فى المجتمع القروى شأنه فى ذلك شأن الأوقات المخصصة لأعمال الاشراف والتدريب ، والانتاج وغير ذلك ، وهكذا أدرك القرويون تدريجيا أهمية الطابع الجديد لحياتهم وظروفهم لا سيما وإن كانت فى مجتمع جديد ومستحدث يتشكل بداخله بناء اجتماعى وثقافى وإدارى على درجة كبيرة من التمايز عن بقية المجتمعات الريفية التقليدية فى مصر .

مؤثرات الثقافة الحضرية المتاخمة للريف :

وتتميز المجتمعات القروية ببعض المحكات أو المعايير التى تتخذ أساسا للتفرقة بين المناطق الحضرية والمناطق الريفية، على النحو التالى :

١ - حالة العمران والوضع الإدارى ، حيث تعتبر عواصم المحافظات وبنادر المراكز والبلدان التى تفرض فيها ضرائب عقارية على المبانى - كما هو الحال فى مصر - حضرا باعتبار أن تلك المناطق قد وصلت إلى درجة من التحضر والعمران

تجعلها أقرب الى الحضر منها الى الريف .

٢ - المقياس الاحصائي لعدد السكان وكثافتهم ، حيث تستند وجهة النظر هذه إلى أن كبر حجم المجتمع وزيادة عدد سكانه يرتبط عادة بقيام العديد من المنظمات الاجتماعية والاقتصادية والمرافق والخدمات العامة المختلفة ، ووجود الكثير من أوجه النشاط الاجتماعى والاقتصادى والسياسى والادارى والتعليمى والترويحى مما يصبغ المنطقة بصفات وخواص حضرية.

٣ - المهنة أو النشاط ، حيث يميل بعض الباحثين الى اعتبار المهنة التى يشتغل بها الشخص من أهم المحكات والعوامل التى تعكس وتنعكس فى نفس الوقت على منطقة إقامته ، وبصفة خاصة إذا تميزت تلك المهنة بالتجانس وممارسة عدد كبير من الجماعات الاجتماعية كلها ، كما تصطبغ المنطقة بطابع خاص آذا كان المقيمون بها يرتبطون بنوع معين ، أن انواع معينة من النشاطات الاقتصادية التى تعتبر ذات أساس معيارى فى التفرقة بين الريف والحضر . وعليه يكون المجتمع الريفى هو ذلك المجتمع الذى يغلب به عدد المشتغلين بالزراعة والمهن الزراعية إذا ما قورنوا بعدد العاملين المقيمين في القرية فى بعض المجالات والانشطة والمهن الاخرى .

٤ - البعد الاجتماعى والثقافى ، ويشير الى طبيعة العلاقات الاجتماعية السائدة بين الاشخاص والجماعات فى ذلك المجتمع ، وما يسود به من عادات وتقاليد وأعراف يكون لها من القوة والإلزام فى توجيه أفعال الاشخاص مع أنفسهم ومع الآخرين أثناء تفاعلهم بعضهم ببعض ، أى النظر إلى طبيعة تلك العلاقات وما تتميز به من ضوابط اجتماعية تكون محكومة بالمثل والأعراف السائدة [١] . ويشير هذا البعد أو المقياس أنه كلما زادت رسمية العلاقات

---

(١) انظر فى ذلك

Neil J, Smelser; Toward a Theory of Modernizatio; In' George Dalton, (ed.), Tribal and Peasant Economies, The Natural History Press, New York, 1967, pp. 38 - 41.

الاجتماعية كلما كانت العلاقات الانسانية أقرب إلى نموذج العلاقات الحضرية، أما اذا كان العكس من ذلك إقتراب ذلك النموذج من طبيعة المجتمعات القروية.

وعن رؤية الانثروبولوجيين وتحليلاتهم لكل من المجتمع القروى وثقافة الفلاحين يرى كل من ريموند فيرث R. Rirth ودانييل ثورنر D.Thorner بأن وحدة التمايز الأساسية فى حياة الفلاح هى محكاته الاقتصادية الخالصة، والتى ترتبط بالأرض الزراعية ، والاقتصاد الفلاحى أو الزراعى ، وبحيث تنعكس الانتاجية الزراعية على كل نظمه ومعارفه المجتمعية [1] . أما كل من ردفيلد Redfield وجورج فوستر G, Foster فيؤكدان على أهمية انساق القيم المميزة للفلاح ، ورؤيتها فى إطار النسق الأوسع والأعم للقيم الإنسانية ، والتى تشمل كل من القيم الريفية ، والقيم الحضرية على السواء ، وأنه قد وصل الأمر بروبرت ردفيلد إلى القول بأن حياة الفلاحين قد تمثل أنماطا أو مجتمعات جزئية ذات ثقافات فرعية Sub Cultures داخل المجتمع الأكبر ، أما جورج فوستر فجاء مؤكدا على فكرة ضرورة ربط المجتمع المحلى بالمجتمع القومى الكبير ويرى أنه إذا كانت المجتمعات القروية أو الريفية قد نمت وتطورت من خلال علاقات تبادلية بين البيئة والنظم الاجتماعية والثقافية ، إلا أن هناك جوانب لها أهميتها فى تشكيل حياة الفلاحين والتأثير فيها ، ألا وهى «الثقافة الحضرية» المتمثلة فى السوق الاقتصادى الحضرى لكافة ألوان السلع التى يحتاج اليها القرويون ، ومن ثم فإن جورج فوستر قد أعطى أهمية كبرى للعوامل الخارجية المؤثرة فى حياة القرية وثقافتها ، لا سيما إن كانت تلك المؤثرات قادمة إليها من أقرب المدن

---

(١) انظر فى ذلك :
- D. Thorner, Peasant Economy as a Category in Economic History, The Free Press, Macmillan Company, London, 1968.

المحيطة بها [١].

هذا الجانب في حياة المجتمع القروى ، وعلى الرغم من أهميته المنهجية والموضوعية ، فقد حظى باهتمامات منهجية مبكرة جاءت فى نطاق ما يعرف بالتفرقة بين السمات الحضرية والريفية، أو الفروق الريفية - الحضرية ، الأمر الذى أدى بعلماء الانثروبولوجيا والاثنولوجيا إلى الاهتمام منهجيا ، بما أسموه «العلم المقارن لدراسة القروية» ، وكان القصد من وراءه اظهار مدى التوافق والاختلاف فى طبيعة الادوار والوظائف والتى تعد فروقا فى أداء النظم والمكونات البنائية للمجتمعات الحضرية من جهة ، والمجتمعات الريفية من جهة أخرى . أما على الجانب الموضوعى للدراسة فقد ظلت دراسات تأثيرات المدينة والحياة والثقافة الحضرية فى الريف تتميز بالتباطو والتلكؤ ، لا سيما وأن ذلك يتطلب جهدا كبيرا وعمل فريق متكامل من الباحثين فى إطار الدراسات «المونوجرافية» لموضوعات ذات صفة و صفات متمايزة من شأنها أن تظهر جوانب الاتفاق والاختلاف ودرجات التأثير فى الجوانب المختلفة لحياة كل من الريف والمدينة ، وذلك من خلال التركيز على موضوعات وظاهرات بعينها كالاقتصاد ، والقانون ، والمشاركة السياسية، ودرجات التثقف ، والنظرة الى الماضى والحاضر، والتطلعات المستقبلية .. إلى غير ذلك من الموضوعات التى لم تحظ بالاهتمام المرجو من قبل الانثروبولوجيين والاجتماعيين .

وتؤدى مؤثرات الثقافة الحضرية الى التغير فى بنية الأنماط الفكرية للجيل الجديد من أبناء المجتمع القروى ، والذى تخلى كثيرا عن بعض جوانب وعناصر الثقافة الشعبية المتوارثة ، وأصبح جانب المفاضلة بين كل من الثقافة الحضرية،

---

(١) انظر فى ذلك ، الاسهامات القيمة التى جاء بها جورج فوستر فى هذا الشأن والتى نذكر منها:

- George M. Foster' Tzintzuntzan: MexicanPeasants in A Changing World, Chicago University Press, 1967.
- George M. Foster' Peasant Society and the Image of Limited Good, In; American Anthropologist, Vol. 2, 1967, pp. 293 - 315.

والثقافة الريفية يحسم لصالح الأخذ بأسباب ومقومات الثقافة الحضرية دون ما يسمى بالصراع الثقافى أو المعاناة فى الأخذ بين ثقافتين ، علي ما يقل ليزلى وايت Leslie A. White بأنه رغم ضرورة ربط الانسان بموطن أو اقليم يتصل به بفضل الأدوات ، والاتجاهات والمعتقدات ، وغيرها من عمليات الحياة المنظمة للوجود الانسانى ، إلا أن الإنسان فى نطاق الثقافة والمؤثرات الثقافية، هو الذى يضفى على المعانى ، والأفكار والأشياء والقوانين والاتجاهات المؤثرة والمتأثرة معنى خاصا ترتبط بمضامين العناصر السلوكية التى يعيشها الانسان من جانبين جانبه الشخصى Somatic Context ، وعناصر ها أو مضامينها الخارجية Extra Somatic لواقعة خارج حدود الدائرة الشخصية للانسان (١).

ومن الملاحظ أن عملية التحديث تسعى دائما إلى محاكاة نموذج المجتمعات الصناعية، فتسعى إلى الإدماج المتزايد للنشاطات الاقتصادية غير النقدية فى دائرة القطاعات الاقتصادية النقدية من خلال السياسات المؤسسة والرسمية، وإلى الحد الذى أصبحت تعتبر كثير من الممارسات التقليدية فى المجتمعات القروية، والتى تتم عن طريق تعامل الجوار ، وتبادل العون والخدمات ، وأدوار الأسرة، والحكم والمأثورات الشعبية فى مواجهة الأزمات من الأمور المتخلفة التى ينبغى التخلص منها من اجل التحديث والحداثة والمدنية (٢) .

وهكذا أصبح التحديث مشوها لكثير من القيم الاجتماعية والأخلاقية التى عاشها المجتمع القروى يأمن بها ومن خلالها أشد الأزمات التى تعرض لها ، وهى القيم والأخلاقيات والثقافات الشعبية التى تكمن وراء المعاملات والعلاقات

---

(١) انظر فى ذلك :
Leslie A. White, The Science of Culture, Burgess Publishing Company, Minnesota, 192, pp. 133 - 138.

(٢) انظر : دراسة للدكتور حامد عمار حول القيم الاقتصادية والقيم المعنوية فى التنمية العربية ، فى كتابه بعنوان : فى بناء الانسان العربى ، دراسة فى التوظيف القومى للفكرالاجتماعى والتربوى، دار لمعرفة الجامعية ، الاسكندرية ، ١٩٨٨ ، ص ٣ وما بعدها.

غير النقدية فى مجالات الانتاج والاستهلاك والتبادل ، وكما يرى البعض بأن الحال وصل بنا الى وصف المجتمعات الريفية التي يصنع أفرادها الحصير من سعف النخيل بأنها قرى متخلفة لأنها لا تشترى الحصير الجاهز المصنوع من خيوط النايلون من الاسواق الحضرية، بل والإكثر من ذلك أن الأم – الريفية – التى ترضع وليدها من ثديها توصف بالفقر وهى أم غير متحضرة ، مالم تشترى له وتطعمه الألبان الصناعية ، وفى هذا الحوار الجدلى بين ما هو تقليدى وما هو مستحدث ثم تفضيل وتحديث ركوب السيارة كأفضل من المشى والحركة حتى فى قطع المسافات القصيرة .

خاتمــة

لا شك أن التناسق بين الصفات الاجتماعية للمجتمع ومقتضيات التحديث والتنمية أمر فى غاية الأهمية ، لأنه ما لم يتحقق التآلف بين الإطار الاجتماعى الثقافى والإطار الاقتصادى لن تأتى التنمية وعوامل التحديث بما يرجى منهما من تقدم وتطور ، ذلك لأنهما تهدفان الى التوسع فى استثمار الموارد الاقتصادية واستغلال الموارد استغلالا أو فى ، فيتحقق لهما النجاح أو الفشل بدرجات مسايرة لتطور أو عدم تطور العلاقات الاجتماعية فى المجتمع .

ولذلك فإن أى تطور فى الجوانب المادية لا يراعى معه التطور فى الجوانب المعنوية ، إنما قد يؤدى الى خلل في البناء الاجتماعى والثقافى يتمثل على الاقل فيما يسمى بالفراغ أو الفجوة الثقافية Cultural lag ، فضلا عن وجود أو احداث خلل فى العلاقات الاجتماعية ، ومن ثم تصبح القيم والجوانب المعنوية فى الثقافة والاتجاهات والانماط السلوكية غير متمشية مع التطور فى الجانب المادي للثقافة .

المراجع الاجنبية

- Ackroyd, Stephen & Hughes, John A., Data Collection in Context, Longman, London, 1981.
- Bascom, William; "Four Functions of Folklore", In; Dundes, A., (ed.); The Study of Folklore, Prentice Hall Inc., New Jersy, 1965.
- Broom, Leonard & Selznick, Philip, Sociology: A Text with Adapted Readings, Harper and Row, New York, 1977.
- Chodak, Szymon; Societal development, Oxford University Press, 1976.
- Dundes, A.; (ed.); The Study of Folklore, Prentice 0 Hall, Inc., New Jersy, 1965.
- Foster, George M., Tzintzuntzan: Mexican Peasants in Changing World, Chicago University Press, 1967.
- Foster, George M., Peasant Society and the Image of Limited Good, In, American Anthropologist, Vol. 2, 1967.

Kroeber, A.L., Anthropology, Harcourt and Brace, New York, 1948.

- Levey, Marion; Modernization and the Structure of Societies Princeton University Press, New Jersy, 1969.
- Lewis, Oscar, "Urbanization without Breakdown: A Case Study, in; Scientific Monographs, No. 75, 1952.
- Malinowski, B.; A Scientific Theory of Culture, North Caroina, Chapel Hill, 1944.
- McClelland, David G., The Achieving Society, Van Nostrand Company, New Jersy, 1968.
- Moore, Wilbert E.; Social Change, Englewood Cliffs, Prentice-Hill, New York 1974.
- Redfield; Robert; Little Community, Chicago University Press, 1959.
- Redfield, Robert' Peasant Society and Culture, An Anthropological Approach to Civilization, University of Chicago Press, 1956.

- Redfield, Robert; & Milton, S.B., City and Countryside: Cultural Independance; In Peasants and Peasant Societies, (ed.,) By; Teoder Shanin. New York, 1973.

- Smelser, Neil J.; Toward a Theory of Modernization; In; George Dalton. (ed.); Tribal and Peasant Economies, The Natural History Press, New York, 1967.

- Sumner, William G., Folkways: A Study of the Sociological Importance of Usages, Manners, Customs, Mores and Morals, New York, 1940.

- Swartz J., "Cultural Sharing and Cultural Theory: Some Findings of a Five-Society Study", In; American Anthropologist, Vol. 84, No.2, June, 1982.

- Taylor, F., & Stohr, W.; Development from Above or Below, John Wiley, New York, 1982.

- Thorner, D.; Peasant Economy as a Category in Economic History, The Free Press, Macmillan Company London, 1968.

- United Nations; World Population Confrence, The Center of Economic and Social Information, November, 197.

- United Nations Research Institute; The Level Index, Report, No 12, Geneve, 1978.

- White, Leslie A.; The Evolution of Culture, McGraw Hill Book Company, New York, 1959.

---------------------; The Science of Culture, Burgess Publishing Company, Minnesota, 1972.

- Willcocks, W. & Craig, J., Egyptian Irrigation, London. 1913.

الفصل الخامس

الانثروبولوجيا الحضرية النظرية والمنهج *

* كتب هذا الفصل د. محمد احمد غنيم

الفصل الخامس
الأنثروبولوجيا الحضرية_النظرية والمنهج

البحث الانثروبولوجي في المدينة :

أن بداية العمران أخذ شكل التجمع الانسانى فى مراكز صغيرة اتسمت بالاستقرار ، كانت النواة لقيام المدينة ، فلقد جاءت تلك المراكز لتعبر عن خلاصة تجارب ذلك التجمع من البشر الذى اتخذها موطنا له ، وهى تعد بذلك انعكاس لتجاربهم الاجتماعية والاقتصادية والثقافية المتداخلة .

واذا كان ظهور المدن الكبرى أو العواصم يعد أحد نتائج التطور الطبيعى للشكل الاقتصادى من اقتصاد القرية الى اقتصاد البلدة ، الى اقتصاد المدينة العاصمة مثلما يرى الاقتصاديون ، فيجب ان نتساءل هل هذا هو العامل الحاسم فى قيام المدن ؟ وهل هذا هو الشكل او النمط الحديث الذى ستظل المدينة قائمة عليه ؟ [1] .

فيذكر لويس ممفورد Mumford فى هذا الصدد ، أنه رغم كثير من التحليلات والدراسات المتصلة بتطور المدن المعاصرة فقد ذهبت الى اعتبار أن شكل المدينة المعاصرة يشير إلى آخر مرحلة من مراحل تطورها ، رغم أن هناك تطلعات للوصول بالمدينة الى مرحلة المدينة العظمى ، فان هذا يصعب التسليم به مع وجود عوامل معاصرة لا تساعد على دوام استمرار الشكل المعاصر للمدينة،

* كتب هذا الفصل د. محمد احمد غنيم.

(١) أحمد النكلاوى ، الانسان والتحديث – نهضة الشرق ، القاهرة ، ١٩٨٠ ، ص ٢٢٠ .

أو حتى تضمن تحقيق الوصول الى مرحلة المدينة الكبرى «العظمى» والتى تصبح خيالا مع وجود عوامل تتجمع بداخلها تجعل من الصعوبة أن تقوم بوظائفها [1] .

فالمدينة اذا تتكون وتتشكل وتقوى وتضعف وتتوسع وتنكمش .. الخ، وهى خلال هذه التغيرات تسجل سير الاحداث على جدران مبانيها ، فى منعطفات طرقاتها وشوارعها لتكون شواهد على ما مرت به من بتدلات وتطورات ، فالمدينة اذا تنمو وتتطور من خلال بعدين أساسيين هما الزمان والمكان ، بمعنى: (أ) أن البعد الزمنى الذى يمثله تطور الأحداث التاريخية مسئول الى حد كبير عن فهمنا بطبيعة مؤثرات قيام المدن وإنحطاطها سواء أكانت بشرية أم طبيعية ، (ب) والبعد الثانى المتمثل فى المكان ليس إلا تعبيرا من أهمية العوامل الجغرافية والمواقع فى نشأة المدن وتغير أدوارها ووظائفها عبر البعد الزمنى [2] .

فالمدينة أساسا كانت محل اهتمام المهندسين والمعماريين الذين كانت تنصب اهتماماته على نواحى البناء والتشييد، كما اهتم بها بعض الفلاسفة والمفكرين كل حسب طريقته وفلسفته ونظرته إليها .

وفى القرن الماضى تحولت المدينة إلى موضوع أكاديمى يشغل بال الكثيرين فى حقول العلم والمعرفة، ومن العلوم التى شاركت المدينة أبحاثها ودراساتها علوم الاجتماع والانثروبولوجيا والجرافيا والتخطيط [3] .

وبعد الاهتمام الانثروبولوجى بالمدن شيئا حديثا نسبيا ، وما زال فى أول الطريق وسوف يتضح لنا أنه لا يوجد اجماع على التساؤلات الحضرية التى يجب

---

(1) Lewis Mumford; The Culture of Cities, N.Y., Hocourt Briace and Co. INC., 1936, p. 223.

(٢) عبدالاله أبو عياش - أزمة المدينة العربية ، دار القلم - بيروت - الطبعة الاولى -١٩٨ ، ص ٨٦ .

(٣) نفس المرجع السابق ، ص ٨١ .

أن يسألها الانثروبولوجيون الحضريون والمشكلات التى تستطيع الانثروبولوجيا تناولها بصفة خاصة [١] .

والدراسات الانثروبولوجية الحضرية التى بدأت قبل الحرب العالمية الثانية بفترة وجيزة وبشكل بطيء قد أصبحت فى اعقاب الفترة الاستعمارية وأثناء حركة الحقوق المدنية الامريكية بحثا شاملا يسير بخطى واسعة ، ومع ذلك فان توافر امكانيات البحث الحضرى ، وظهور اتجاهات أو مجالات جديدة فى الانثروبولوجيا قد أدى الى تنوع المداخل فى الانثروبولوجيا الحضرية والتركيز على مجموعة من البيانات والمعلومات الحقلية بدلا من الاعتماد على التحليل النظرى [٢].

وعادة ما يبحث الانثروبولوجيون فى الخلفيات الثقافية لسكان المدن ، وكيف تنعكس هذه الخلفيات على أنماط استيطانهم ، وعلى استجاباتهم وتصرفاتهم، كما يدلى علماء النفس بآرائهم واجتهاداتهم فى هذه الأزمات النفسية التى يعانى منها سكان المدن ، ويلعب المخططون الدور الأكبر فى أعادة صياغة حياة المدينة، وهم يبدأون بمحاولة ثم تتعقد المحاولات ، فالمتغيرات المؤثرة فى حياة المدينة تزداد مع مر الأيام ، ومع كل تزايد لابد أن تتغير الاساليب لمعالجتها [٣] .

فالانثروبولوجيا كعلم لها محور عام يختص بالأفكار المتعلقة بالمجتمع الانسانى والثقافة الخاصة به ، وطبيعة الانثروبولوجيا ايضا كعلم له من.اهجه فى جمع البيانات والمعلومات والفروض والأفكار النظرية وأسلوب الاستدلال والبرهنة الخاصة بها ، كل هذه ينبع من تطورها الأكاديمى فى دراسة العالم البدائى ، وهذه هى الخصائص الاساسية لمدخل الانثروبولوجيا فى درسة المناطق الحضرية،

(1) Roll Wages, Jack, Introduction Urban Anthropology, V'I spring New York, 1975, p. 2.

(2) Ibid. p. 3.

(٣) عبدالاله أبو عياش – أزمة المدينة العربية – مرجع سابق ، ص ٨٦.

وأسهامها في دراسة المدينة ، وأصبح من الإفكار الهامة والسائدة بين الانثروبولوجيين الحضريين بصفة خاصة اعتبار المدن مناطق او مجالات هامة للبحث، وأن الانثروبولوجيا قادرة على القيام باسهامات نظرية ومنهجية في مجال دراسة المناطق الحضرية [١] .

وهكذا فان الاسهام الذي يمكن ن يقدمه الانثروبولوجيون في الدراسات الحضرية ولو جزئيا تطبيق المناهج الاثنوجرافية في دراسة البيئة الحضرية، إلا أنه من المهم أن نذكر أن الانثروبولوجيين قد وصلوا الى درجة عالية من الكفاية في استخدام المناهج الاحصائية ، وجمع البيانات الكمية والانتفاع بها حتى في الدراسات المعاصرة التي تجرى على المجتمعات القبلية والريفية والحضرية، وقد بدأ الانثروبولوجيون في الوصول الى تطبيقات جديدة للمناهج الاحصائية على البيانات الكيفية [٢] .

وتستهدف مناهج البحث الانثروبولوجية تحديد وتحليل الابنية الاجتماعية غير الرسمية أو الأطر التنظيمية للمجتمع ، وقد تناول ابشتاين A.L. Apstein تصنيفا لهذه الابنية في افريقيا على النحو التالي : العلاقات الوثيقة ، والعلاقات النوعية ، والعلاقات الرسمية ، وتتضمن الفئة الاولى شبكة العلاقات الاجتماعية مع الجيران وزملاء العمل والاصدقاء والمعارف ، ويرى ابشتاين أن نواة هذه الشبكات من العلاقات متداخلة في شبكات القرابة أو في الاصول القبلية المشتركة ، ويبدو أن هذه المفهومات ليست عديمة الصلة بالوضع في الولايات المتحدة ، فقد ذكرت احدى الابحاث التي أجريت على المصانع الصغيرة أن ٤٠٪ من العاملين في تلك المصانع قد جاءوا من مدينة واحدة في المكسيك،

---

(١) محمد الجوهرى - الانثروبولوجيا أسس نظرية وعملية - مرجع سابق - ص ٢٩٤.

(٢) محمد الجوهرى - نفس المرجع السابق ، ص ٢٩٠ .

أما العلاقات النوعية فتضم تلك العلاقات التى تمثل طريقة أو اخرى من الجماعات التصنيفية ، وقد يرجع هذا النوع من العلاقات ايضا فى افريقيا الي أصول قبلية مشتركة ، فقد تقوم هذه التصنيفات على أشياء مثل الانتماد العنصرى ، أو مكان الاقامة أو المهنة ، أما النوع الاخير من العلاقات فهو العلاقات الرسمية ، وقد تناولها عدد من الانثروبولوجيين فى افريقيا ، وفى بعض مدن امريكا اللاتينية ، وتقوم مثل هذه العلاقات أو الارتباطات على ما هو غير رسمى ، ولكنه لا يمكن الكشف عن حقيقته الا من خلال وسائل غير مباشرة، ويوضح ذلك وجود نظام «غير رسمى» له أهمية قصوى فى حياة المجتمع كأن يختل أحد أفراد المجتمع منزلة كبيرة وبطريقة غير مباشرة ، ويحظى بنفوذ كبير وأن لم يحظ بالاحترام مثلا [1] .

وعلى الرغم من أن البحث قد يأخذ بعدا جغرافيا واضحا ، وعلى أن الظروف او المجتمعات الانسانية التى تخضع لدراسة تتدرج من أكثر المجتمعات بدائية ، حتى تصل إلى إعقد المجتمعات الحضرية الصناعية ، فالانثروبولوجيون قد رأوا ان المحددات الاساسية للانماط المعيشية المختلفة لدى الانسان هى نمط السلوك الاجتماعى ، والقواعد التى كانت تحكم ذلك السلوك داخل أى مجتمع بمعزل عن التكوين السيكولوجى للفرد ، والانتماء السلالى ، ولأن هذه القواعد وأنماط الاتصال الاجتماعى تحدد شكل مجتمع بأكمله وتجعله متميزا ، فان الباحث الانثروبولوجى يمكن أن يفهم بشكل أفضل اى مجتمع عن طريق دراسته ككل، وهذا المدخل الكلى يرتكز على مفهومين أساسيين يقبلهما العديد من الانثروبولوجيين : أولهما ز أي مجتمع يشكل نسقا اجتماعيا متكاملا . وثانيهما ان ثقافته يمكن تحليلها بمعزل عن العديد من الأفراد الذين يمارسون

(1) A.L, epstein, Urbanizatio and Social Change in africa, Current, Anthropology 1967, pp, 272 - 296.

نشاطهم فى داخله [(١)] .

وقد يوضح ذلك ما يذكره رادكليف براون عندما يتحدث عن الوظيفية فيذكر أنه يقصد بها الجزء الذى يلعبه هذا النظام فى النسق الكلى للتكامل الاجتماعى الذى يدخل هذا النظام فى تكوينه ، وحين استخدم كلمة التكامل الاجتماعى فانه افترض زن وظيفة الثقافة ككل هى أنها تربط أفراد الناس في ابنية اجتماعية ثابتة إلى حد ما ، أى فى انساق ثابتة من الجماعات التى تحدد وتنظم العلاقة بين هؤلاء الافراد بعضهم البعض وتهيء الفرصة للتكيف الخارجى مع البيئة الفيزيقية، وكذلك للتكيف الداخلى بين الأفراد والجماعات التى يدخلون فى تكوينها بحيث يصبح من الميسور قيام الحياة الاجتماعية المنتظمة [(٢)] .

ودراسة أحد المجتمعات كنسق اجتماعى متكامل تفترض أن المجتمعات ليست مجرد مجموعات عشوائية من الناس وإنما تفترض ان المجتمعات توجد بها أنماط مستمرة من العلاقات وأنماط السلوك التى ترسخ بين الاعضاء من خلال التفاعل على المدى الطويل ، ومثل هذه الانماط السلوكية التى تنتقل عبر الاجيال ، كان يتم تعديلها أحيانا بشكل جزئي او كلى تشكل التنظيم الاجتماعى او البناء الاجتماعى للمجتمع، وعلى سبيل المثال فالانماط السلوكية المرتبطة بالعائلة والجوانب التفاعلية للسياسة وأساليب تنظيم الممارسة الدينية فى الكنائس والشعائر «الطقسية»الاخرى ، ومثل هذه المؤسسات أو الابنية تختلف من مجتمع إلى اخر ، ومن خلال نظرة الباحث الانثروبولوجى الى التنظيم الاجتماعى فى أى مجتمع سوف يتبين أن هذه المؤسسات تشير الى الاختلافات الموجودة بين النوير وقبائل البمبا Bemba مثلا أو مدى الاختلاف بين حضارة الهندو Hindu والمجتمع

(1) Richard, G. F.X., Urban Anthropology Cities in Their Cultural Setting, pp. 45.

(٢) احمد ابو زيد - البناء الاجتماعى - المفهومات ، الطبعة الرابعة المصرية العامة للكتاب ، ص ٩٠ .

الامريكى ، ولأ الانثروبولوجى يعامل المجتمع على أنه نسق اجتماعى منظم ، فان مؤسساته بالتالى تعتبر متشابكة ومتساندة وظيفيا «وأن كان هذا التكامل الوظيفى شيء مبالغ فيه» وتنظيم المؤسسات الدينية يؤثر على تنظيم العائلة والتغير فى الموسسات السياسية فى المجتمع يمكن أن يؤثر على بقية النظام الاجتماعى [(١)] .

فنجد أن القواعد التى تلزم السلوك تنبع من النمط الايديولوجى للمجتمع فالهندوس نباتيون والكواكيوتيل يحرقون الممتلكات ويسرفون فى أقامة الاحتفالات والمسلمون يجب أن يقوموا بفرض الحجاب على نسائهم ويجب ألا يشربوا الخمر ، ومجموع هذه القواعد ككل «سواء كانت ذات جذور «ايديولوجية او تنولوجية» تحدد سلوك الفرد كعضو فى مجتمع ما ، وتساعد على خلق تمائل فى الفكر والعمل ، وهو ما يجعل الهندوس يعملون بشكل مماثل للهندوس الآخرين ، وليس بشكل مماثل للأمريكيين أو البوشمن. أو الكواكيوتيل ، والانثروبولوجيون يشيرون الى مجموع هذه القواعد على انها ثقافة مجتمع ما ، ويستخدمون هذا المفهوم لتبرير النظر الى المجتمعات على أنها انساق اجتماعية منظمة، أنها تعمل وتمارس نشاطها ككيانات أو أبنية متساندة ومترابطة، وهم يتناولون كما لو كانوا يفعلون ذلك بمعزل عن الافراد الذين يشكلون عناصرها المكونة لها بالمعنى البيولوجى ، فيدرسون آلاف الافراد وبالتالى ملايين من أشكال السلوك الفردى التى تشكل المؤسسات فى أى مجتمع [(٢)] .

أن العلم الذى يؤكد ان كل مجتمع له ثقافة متمايزة وتنظيم اجتماعى محدد

---

(1) Kro ber, A. and Clyde Kluckhohn: Culture: A Critical Revioewof cancepts and Definitions. Cambridge Massachusolts, The Museum, 1952, pp. 1-5.

(2) John, Gulick; Urban Anthopology Its present and Future in Readings in Anthropology, 2nd Edition Morton H. Fried, New York, Thumas Y. Cronell C., 1958, pp. 60 - 561.

قد يتحول الى مجرد وصف للتمايز الاجتماعي الانساني الذي يوجد في أنحاء العالم ، والمقارنة الثقافية للتنظيم الاجتماعي تمثل «المنهج» الذى حاولت الانثروبولوجيا أن تنظر به نظرة عامة الى التطور الانساني ، وهم فى مقارنتهم الثقافية المعاصرة حريصون للغاية على عدم انتزاع اى بناء من سياق مجتمعه وثقافته والمقارنة بين هذا البناد وبناء فى مجتمع آخر بمعزل عن نمطه الثقافى ، ولكى تصبح المقارنات هادفة ولها معنى يجب أن ترتكز على النظرة الكلية للمجتمعات والأنماط الثقافية «وه مدخل يظهر فى دراسة الشعوب البدائية» بصفة خاصة هو ما يجعل الانثروبولوجيا علم أكاديمى متمايز، ولتحقيق هدفين للانثروبولوجيا الحضية «وهى الفرع من الانثروبولوجيا الذى يقوم بدراسة المدن» يجب التمسك بهذه النظرة الكلية فى دراسة المناطق الحضرية على حد زعم Thomas Y. Crowell وعلاقاتها بالمجتمعات والثقافات المرتبطة بالاماكن الحضرية [1] .

يقول R. Fox سوف نرى أن الانثروبولوجيين بسرعون للدفاع عن العديد من التفسيرات المختلفة المتعلقة بالدور الاكاديمى لهذه الإهداف فى دراسة المدينة ولكن البعض الاخر ادعى بأن البحث الذى يتم القيام به في المدن على هذا النحو لا يمكن أن يكون انثروبولوجيا ، ولكننا نتسائل لماذا هذا الانكار لدور الانثروبولوجيا فى دراسة المدينة ؟ ثم يستطرد ريتشارد فيقول ان هذا يرجع الي حد ما الى الصعوبات التى تكتنفها متابعة المعالجة الثقافية أو المعالجة الكلية الظاهرة معقدة وهى ظاهرة الميل الى التحضر [2].

وللاجابة على هذا التساؤل يقول Kingsely Davis يجب أن نعود قليلا الى بدايا القرن التاسع عشر عندما بدأ العالم يشهد نموا سكانيا لم يشهد مثله من

---

(1) Ibid., p. 562.

(2) Richard G Fox, Urban Antrhopooogy. op.cit., pp 8 - 9.

قبل ، حتى أطلق الباحثون مصطلح «الثورة السكانية» على هذه الظاهرة الديموجرفية ، فالنمو السكانى الذى طرأ علي المدن كان أعلى بكثير من ذلك الذى طرأ علي السكان بوجه عام ، اذا فهناك ثورة حضرية شهدها مطلع القرن التاسع عشر ، فقبل سنة ٥٨٠ لم يعرف العالم دولة حضرية بالمعنى الحديث لذلك المفهوم ، وفى سنة ١٩٠٠ أصبحت بريطانيا الدولة الحضرية الوحيدة فى العالم، وبعد مرور ثمانين عاما تقريبا تحولت معظم الدول الاوروبية الى دول صناعية حضرية حيث ارتفعت فيها نسبة السكان الحضرين حتى تجاوزت نسبة السكان الريفيين [١] .

ويقول فيليب هاوزر F. Hawzer ان التحضر العالمى فى القرن التاسع عشر كان نتيجة لتركز السكان فى مدن أوربا وأمريكا الشمالية. أما فى القرن العشرين «وهو قرن التحضر» فأننا نجد أن معدل التحضر العالمى قد تدعم وازداد نتيجة للزيادة السريعة فى نسبة سكان الحصر فى الدول النامية ، وعلى الأخص آسيا وافريقيا وأمريكا اللاتينية [٢] .

وبينما نجد الدول الصناعية المتقدمه تصل خلال هذا القرن الى نقطة التشبع الحضرى ، فتشهد الدول النامية تدفقا سكانيا هائلا من المناطق الريفية الى المناطق الحضرية [٣].

ان الحديث عن هذا التجمع البشرى فى المناطق الحضرية المسماة بالمدن يقودنا الى أهم المشكلات التى واجهت عملية تحديد المفاهيم بالتعريفات المحددة

---

(1) Kingaley Davis, The Urbanixation of the Human Population in Geral Brecse (ed): The city in Newely developing. Princetion Univ Press, 1972, pp. 5 - 20.

(٢) السيد محمد الحسنى - المدينة دراسة فى علم الاجتماع الحضرية - مرجع سابق ، ص ١٤٤ .

(٣) فيليب هاولزر - مشكلات التحضر السريع ترجمة السيد الحسينى ، دراسات فى علم الاجتماع الريفي والحضرى ، دار الكتاب للتوزيع ،القاهرة ١٩٧٩ ، ص ٩١.

للمدينة، والتى اختلفت وتباينت بحكم تنوع المعالجات والآراء ، ربما لأن المدينة تختلف في حجمها عن القرية، فلقد استخدم البعض الحجم السكانى كمؤشر لقياس ذلك التجمع الاستيطانى وتسميته بمدينة أم لا ، واختلفت المعايير بين الدول فى تحديد المدينة وحجمها ، فقد كانت فرنسا تعرف المدينة على أنها أى تجمع استيطانى بشرى لا يقل عن ألفى شخص ، وكذلك فعلت تركيا وأما الولايات المتحدة فقد اعتبرت انه لابد من وجود ٢٥٠٠ نسمة للدلالة علي حجم المدينة، وحددت كل من اسبانيا واليونان حجم المدينة بعشرة الاف نسمة ، وفى بريطانيا حدد الحجم السكانى للمدينة بما لا يقل عن خمسة الآف نسمة وكذلك فعلت الهند، أما فى العالم العربى فقد استخدمت مصر الحجم السكانى للمدينة بأحد عشر الفا ، واستخدمت الاردن عشرة الآلف نسمة كحد أدنى لتعريف المدينة ، اما الأمم المتحدة فانها تميل الى استخدام العدد السكانى الذى لا يقل عن عشرين ألف نسمة ، وهناك دول مثل كوريا تعتبر المدينة هى المكان الذى لا يقل سكانه عن أربعين ألف نسمة [١] .

وسوف نرى ذلك بوضوح عند الحديث عن تطور المدن القديمة ونموها تباعا للتعرف على الدلالات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التى تشير اليها هذه المعدلات الحالية من التحضر .

ان الآلاف من المدن تضم الملايين من الناس ومئات الثقافات التى توجد حاليا ، واذا وضعنا فى الاعتبار مدن الثقافات الماضية سوف يتضاعف هذا الرقم عدة مرات ، والارقام البحتة الموجودة في الحياة الحضرية ، وتعقد المؤسسات الاجتماعية وتنوع أنماط الحياة الحضرية ، كل هذا يشكل تحديا أمام المدخل الثقافى الكلى للباحث الانثروبولوجي ، وأمام التصميمات الثقافية والمتقاطعة ،

---

(١) محمد السيد غلاب ويسرى الجوهرى – جغرافية الحضر ، دار الكتب الجامعية ، القاهرة ١٩٧٢، ص ٤٣ ، ٦٠.

والتى قد تكون ناجحة فى المجتمعات البدائية ، والنتيجة هي تنوع وجهات النظر في الانثروبولوجيا الحضرية ، وبالتالى فان بعض الانثروبولوجيين الحضريين قد تخلوا عن مدخل النظرة الكلية وقاموا باستخدام المقارنة الثقافية فى البحث الحضرى ، وبدلا من ذلك فه يركزون على الخصائص الاخرى للانثروبولوجيا التى برزت في مجالها العلمى الذى كان يهتم بدراسة المجتمعات البدائية ، وهذه المجتمعات بصفة عامة كانت صغيرة ومستقلة بذاتها والمناهج التى قامت الانثروبولوجيا بتطويرها لدراسة هذه المجتمعات فى أوائل القرن العشرين قد ركزت على الاتصالات الطويلة التى يقوم بها الباحث بمراقبة الانشطة التى يمارسها أهالى هذه المجتمعات ، والمشاركة فيها بقدر الامكان أو بدلا من الاعتماد على عمليات المسح بالعينة وتصنيف المعلومات ، ومن ثم عاش الانثروبولوجيون بين سكان المجتمعات البدائية التى قاموا بدراستها وهم اعضاء فى تلك المجتمعات ، والفائدة من هذا البحث المكلف كانت تتمثل فى أن الباحث الانثروبولوجى قد تمكن من متابعة ممارسة الأهالى لحياتهم الاجتماعية ، فه يرى المودة والعداوة بين الافراد والعائلات والجماعات القرابية وأسلوبهم المعيشى واختلافه فى المواسم والدورات الطقسية ، وهو ايضا يتساءل عن كل ما يراه من معتقدات قد تتناقش مع بعضها البعض فى حياتهم اليومية والطقوس التى يمارسها الناس الذين يعايشهم الباحث مثل طقوس الاعياد والزواج وشعائر التكريس الحروب (١).

والملاحظة بالمشاركة والنظرة الكلية يعتبران من أدوات البحث المنهجية فى الانثروبولوجيا ، فبعد العديد من الدراسات والتحليلات حول العديد من الثقافات اتضحت بصمات المنهج الانثروبولوجى الذى يستخدم الملاحظة بالمشاركة

(1) Richarl Basham, Urban Anthropology, The Cross Cultural Study of Complex Societies; Un. of Sydney Mayfield Publishing Co., 1978, p. 25.

والنظرة الكلية ، والحقيقية أن البحث الحقلى الاثنوجرافى يتطلب معايشة المبحوثين ومشاركتهم فى حياتهم ، والملاحظة بالمشاركة منهج يوفر ذلك ، فهو يجعل الباحث يهتم بالتفاصيل اليومية لحياة المبحوثين ، وهذا العمل ليس بالذى يستهان به ، فعندما يباشره الباحث يستلزم مجهودا كبيرا فى جمع المادة الاثنوجرافية (١) .

استراتيجية البحث الميداني :

أ - الاستقرار فى منطقة البحث على الرغم من أن الباحث الميدانى يواجه مشكلات مختلفة فى تعريف الجماعة المراد دراستها فى الطبقات الريفية والحضرية، فان صعوبات الاستقرار والعثور على مكان للمعيشة ومواجهة الصدمة الثقافية وارساء دعائم الصداقة مع الاخباريين بعد العثور عليهم ، هذه الصعوبات لا خلاف عليها حيث أنها تبقى كما هي ، فالدراسة الحقلية للقرية تفرض على الباحث الانثروبولوجى أو يعيش مع عائلة أو يستأجر مسكنا فى وسط تلك القرية ، وفى كلتا الحالتين فهو يقيم بين الناس الذين يدرسهم وبالتالى يستطيع ملاحظة حياتهم اليومية باستمرار ، أما فى المدينة فتجد ان الترتيبات على هذا النحو يصعب تحقيقها ، فالباحث قد يصادف منطقة حضرية مزدحمة بالسكان ويجد العائلات التى يريد دراستها تقيم فى أحياء ذات كثافة عالية ومن ثم يجد صعوبة فى الاقامة بينهم ولذا نجدة يؤثر التركيز على ضاحية بعينها أو حى معين أو منطقة هامشية، ويسعى جاهدا من أجل مكان يأويه يسهل منه الاتصال باخبارية ، وهذا الترتيب للامور له عدة مزايا وعدة عيوب تنعكس آثارها على البحث ، فمن ناحية سوف نجد الباحث باختياره سكنا منفصلا عن الاخباريين والسكان فانه يحقق نوعا من السرية وهى ميزة لا يتمتع بها فى

---

(1) Ibid., p. 25.

المناطق القبلية او الريفية حيث يكون الباحث فريسة لفضولهم وحب استطلاعم ، وعندما يشعر الباحث بالارهاق تنتابه الرغبة فى الابتعاد عن اخبارية لبعض الوقت ليركن الى الراحة فينبغى أن ندرك أن الأهالى يؤثرون الابتعاد عن الباحث الذى لا يرتبط معهم وجدانيا ويعيش منعزلا عنهم [١] .

بيد أن غالبية الباحثين فى المدينة يتعين عليهم أن يقابلوا المبحوثين بشكل رسمى * ويتعين عليهم أيضا أن يعيشوا على بعد مكانى مناسب من المبحوثين ، والنتيجة التى نستخلصها هى أنه ليس هنا مكان بعينه يجب على الباحث ان يختاره للمعيشة فى اثناء اجراء البحث فى تلك المناطق الحضرية [٢] .

ب – مقابلة الاخباريين : عندما يبدأ الباحث الانثروبولوجى لمجتمع ما فانه يقوم بالاتصالات اللازمة مع الذين يستطيعون بدورهم أن يقدموه للاخرين ، وفى الأيام الأولى لتواجده فى منطقة البحث يتجول فى الشوارع ويتحدث مع العديد من الأهالى ، ويحاول بناد العلاقات والصداقات ، وقد يضطر للاجابة على استفساراتهم وتبرير سبب مجيئه ، ما يأمل فى انجازه ، ويمكن اعتبار معظم الأهالى الذين يقابلهم بمثابة اخباريين له ، هذا في المجتمع التقليدى ، وعلى خلاف ذلك سوف نجد أن القليل من السكان الذين يقابلهم الباحث الانثروبولوجى فى المجتمع الحضرى يمكن اعتبارهم اخباريين ، وعلى الرغم من أن بعض المصادفات حسبما يشير «سمييك» Semiek قد تعطى رؤى جديدة لحياة المدينة فان الباحث يجب أن يعمل على بناء شبكة من الاخباريين يعتمد عليهم [٣] .

---

(1) George M. Foster & Robert V. Kemper, Onthropologists in Cities Little. Brown and Co. Boston, 1974, p. 9.

* على الاقل فى بداية الحديثة .

(2) Ibid., p. 10.

(3) Ibid., p. 10.

وبناء على تلك المجموعة من الاخباريين سوف يشعر تدريجيا بعدم الغربة والألفة معهم رغم ان فهمه لهم لن يكون فطريا ، وان كان تعامله مع هؤلاء الاخباريين قد يذهب بالحيرة والارتباك والتى تعد بحق الخبرة الاولى للباحث فى منطقة البحث ، وهى بالتالى التى تطبع علي تفكيره الداخلي صورة ثقافة ذلك المجتمع لكى تتضح بعيدا عن ثقافته [١] .

وعلى الرغم من أسلوب البحث الشخصى المحدود هو السمة المميزة للانثروبولوجيا ، إلا أن هذا الاسلوب قد طرأت عليه بعض التعديلات عندما انتقل الانثروبولوجيون من دراسة المجتمعات البدائية الى دراسة المجتمعات الريفية ثم انتقلو بعد ذلك الى دراسة المناطق الحضرية ، وبخاصة فى دراستهم لمجتمعات الهند وامريكا اللاتينية والصين ، فمن ثم أقام الباحثون فى هذه المجتمعات القروية الريفية أو الحضرية التى تشكل مجتمعات معقدة تستحق الدراسة، ومن الجدير بالذكر أن النظر الى هذه الأنماط من المجتمعات على أنها منعزلة مثلا قد أصبح شيئا غير ملائم ، حيث أدرك الانثروبولوجيون أن هذه المجتمعات رغم بعدها فلها روابط سياسية واقتصادية وايديولوجية بالأمة والقاليم التابعة لهما ، وعن طريق التركيز على الحياة الاجتماعية لقرية ما مثلا سوف نجد أن الانثروبولوجيين قد واجهوا صعوبات شديدة فى فهم أو تصور التنظيم الاجتماعى والانماط الثقافية فى المجتمع ككل ، والدراسات القروية فى السنوات الأخيرة قد تخلت عن النظرة التقليدية للمجتمعات الريفية على أنها مجتمعات منعزلة ، وأخذت تنظر اليها على أنها ترتبط بالمجتمع الكبير بمجموعة من العلاقات ، وفى نفس الوقت هى تشكل جزءا منه ، وعلى الرغم من هذا التعديل فان الانثروبولجيين تمسكوا بمدخلهم وأسلوبهم المكثف فى الملاحظة

(1) Richard Basham, Uban Anthropology op.cit., p. 62.

بالمشاركة والتى تعد بحق جوهر الدراسة الحقلية Filed Work* ، فالانثروبولوجيا قديما وحديثا تعتمد فى المحل الاول على هذا المنهج [1] .

ونرى بوضوح النظرة التكاملية الكلية الشاملة التى توجت هذه البحوث والتى حاول الانثروبولوجيون تحقيقها فى دراساتهم ، فأى ثقافة من الثقافات تؤلف نسقا متكاملا ، ومهمة الانثروبولوجى هى دراسة النظم الاجتماعية المختلفة على أنها أجزاء فى هذا النسق ، وليس من شك فى أنه من الاسهل رؤية المجتمع البدائى كوحدة كلية ، كما انه من الايسر ايضا ملاحظة تداخل النظم الاجتماعية ، تفاعلها احداها مع الأخرى فى المجتمعات البدائية البسيطة عن ملاحظة ذلك فى المجتمعات المتحضرة المعقدة ، فالمجتمع البدائى يمتاز بأنه أكثر بساطة فى بنائه الاجتماعى وأكثر تجانسا ، فهو أصغر فى المساحة وأقل فى عدد السكان ، وفى تشعب العلاقات الاجتماعية التى يمكن أن تقوم بين أفراده أو

---

* والالتجاء الى الدراسة الحقلية تطور حديثا نسبيا فى تاريخ الانثروبولوجيا ، فقد كان الانثروبولوجيين الاوائل كما ذكرنا يعتمدون على كتابات الرحالة والمبشرين ، والشيء اللفت للنشر أن العدد الأكبر من الانثروبولوجيا فى القرن الماضى من امثال فريزر Frizer وماكليتان Mclenan والاب سميت F. Schamid وغيرهم من أئمة التفكير النظرى لم يخطر ببالهم قط أن يزوروا إحدى تلك القبائل التى كانوا يكتبون عنها ، وما يقال عن هؤلاء بصدق علي دور كيم Darkheim الذى أثرت نظرياته تأثيرا كبيرا فى تطور وتبلور تفكير راد كليف براون ومدرسته . أما بعض هؤلاء الانثروبولوجيين الأوائل أمثال تايلور Tylour وباستيان Bastian الذين قاموابرحلات كثيرة زاروا أثناءها عددا كبيرا من الشعوب القبائل ، فلم يقم واحد منهم بدراسة منهجية مركزة Intensive لأى شعب واحد منها على وجه التخصيص ويرجع الفضل فى التنبيه الى أهمية الدراسات الحقلية الى بعثة جامعة كمبردج فى أواخر القرن الماضى ١٨٨٨ لدراسة جزر مضايق توريس Torees Starits الواقعة بين غينيا الجديدة وشمال استراليا ، انظر: أحمد أبو زيد – الطريقة الانثروبولوجية لدراسة المجتمع – مجلة كلية الآداب ، جامعة الاسكندرية ، ص ٩٥ .

(1) Richarb G' Fox Urban Anthropology, op.cit., p. 8.

حتى انعدامه وسذاجة الالات والادوات متى يعتمد عليها [١] .

وهكذا يتضح ان المدخل الكلى في الدراسة الانثروبولوجية الاصلية للمجتمعات البدائية قد اقترن بأسلوب البحث المكثف ، ولسوء الحظ فان هذين الاسلوبين لايتلاءمان معا بشكل تام فى بحث تعقيدات المؤسسات الاجتماعية وأنماط الحياة ، وانما سوف نجد أنهما يتناقضان . وأن الباحث الانثروبولوجى من خلال تحديد الاسلوب الذى ستتبعه محاولا التوفيق بينهما (النظرة الكلية والاعتماد على منهج الملاحظة بالمشاركة) سوف نجد أنه يختار الظواهر الاجتماعية المختلفة للدراسة ثم يقوم بوضع نتائجه واعدادها للمجال الاكاديمى ، وهناك فرق او جانب آخر فى الانثروبولوجيا الحضرية ينبع من البعد الزمنى الذى يتم الاعتماد عليه فى دراسات المدينة ، معظم المجتمعات البدائية كانت أمية لا تعرف الكتابة ولذلك فهى تفتقر الى التاريخ المدون كشىء متمايز عن النقل الشفاهى » [٢] .

وعلى الرغم من أن بعض الانثروبولوجيين الرواد فى القرن ١٩ قد تتبعوا أصول المؤسسات الاجتماعية والانتشار التاريخى للثقافة المادية ، ولكن فروضهم النظرية كانت غير كافية، ومثل هذا الاتجاه قد دفع الانثروبولوجيا فى تطورها العلمى المبكر إلى نبذ هذا التاريخ الزائف والتركيز على مدخل متزامن أو النظرة المتزامنة «وهى تشير الى نظرة الباحث الى أحد المجتمعات فى زمن محدد» فالمجتمع يفرض حدودا زمنية ووقتية ، وأيا كان الأمر فان هذا المدخل الذى قام الانثروبولوجيون باستخدامه فى دراسة المجتمعات البدائية كان يعبر عن نبذ التاريخ الظنى وتصور المجتمع كنسق اجتماعى معاصر ، وعلى الرغم من أن هذا الإسلوب فى دراسات المجتمعات البدائية كان له ما يدعمة إلا أن استخدام هذا

---

(١) أحمد أبو زيد - الطريقة الانثروبولوجية - مرجع سابق ، ص ٧٨ .

(2) Ericr, Wolf, Peasants, Englewood Cliffs, New Jersy prentce Hah, Inc., 1977. p. 1-5.

الإسلوب فى القيام ببحث عن المدينة يحول دون الادراك الكامل من جانب الباحث الانثروبولوجى لكيفية تطور المدن الحالية ، ويعمل على استبعاد انماط المدينة التى لم تعد توجد من تحليل . وعلى أى حال فان بعض الانثروبولوجين لا يواصلون هذا التحليل وفقا لذلك المدخل فى بحثهم الحضرى لأنهم يتناولون مشكلات مثل التحضر فى اقطار العالم الثالث فى الوقت الحاضر ومثل هذه المشكلات المعاصرة لا يمكن اخضاعها للمنظور الزمنى المتتابع الذى يتناول المجتمعات فى تغيرها عبر الزمن ذلك قد امتزج بسهولة الملاحظة سوف نجد أن التحليل الزمنى ذلك قد امتزج بسهولة بالمنظور الكلى فى انثروبولوجيا المجتمعات البدائية ، ولكن هذا التحليل لا يمتزج بالمنظور الكلى بسهولة فى البحث الحضرى ، والانثروبولوجيون الذين يتبعون الاسلوب أو المنظور الكلى يسلكون اتجاها آخر مخالفا لا تجاه الذين يتبعون المدخل التزامنى فى المدنية، وهناك سبب آخر لاهتمام الانثروبولوجيا بالعالم البدائى وهو تتبع السلوك الانسانى المختلف والغريب ، ولهذا فقد اعتبر الانثربولوجيون أنفسهم كمتخصصين فى مجموعة كبيرة من الانماط الاجتماعية التى توجد فيما بين الأنواع البشرية ، كما أنهم اعتبروا أنفسهم العارفين الوحيدين بالتراث الخاص بالمجتمعات الانسانية البعيدة [1]، وهذه المتابعة للمسات الغربية فى المجتمعات الانسانية قد أفادت الانثربولوجيا فقد أعطتها عمقا فى المشاركة التعرف على الأنماط السلوكية ، لم تستطع العلوم الاجتماعية الاخرى فى أن تحققه فضلا عن الكشف عن أنماط الحياة التى كانت معرضة للزوال والانقراض ، ولقد أخضعت الانثوبولوجيا مجموعة كبيرة من الأنماط الثقافية والمجتمعية للحفص الدقيق، ومن ثم عملت على تطوير التحليل الثقافى المتقاطع وعدلت من نزعة التمركز

---

(1) G. William; Skinner, Chiness Peasauts and the Closed Community An Open and Shut Caut, Comarative Studies in Society and History. XIII (1971) p. 272.

حول العرق ، والتى كانت متأصلة فى العديد فى العلوم الاجتماعية والتى أخذت المجتمع الغربى كنموذج ، ولعل التأثير بالنزعة الرومانسية يمكن وراء التركيز على سكان الأقليات أو المهاجرين حديثا الى المدينة ، وهذا التأثير يظهر وبوضوح فى الانثروبولوجيا الحضرية فى دراستها للقطاعات التجارية فى المجتمع الامريكى الصناعى أو فى المناطق التقليدية والبدائية من مستعمرات افريقيا حيث نجد الباحث يعمل على تجديد وتدعيم دوره التقليدى فى دراسة الشعوب التى يهتم بها أى علم آخر ،هذا التجديد يتم في قلب حضرى [١] .

يقول Gulick فى كتابه بعنوان الانثروبولوجيا الحضرية : أن الانثروبولوجيا يجب أن تعالج المشكلات الناجمة عن التحديث والتحضر والثقافات المرتبطة ، ورغم أن بعض الانثروبولوجيين الحضريين مازالوا متمسكين بالنزعة الرومانسية فى دراسة المجتمعات القديمة ، وهم يدرسون العالم الحضرى المعاصر ، ومتجاهلين الطبقات الاجتماعية والسياسية الرئيسية فى المدينة ، إلا أن هذا المدخل يعتبر مغايرا لأنه يؤدى الى التمسك بالسمة التقليدية للانثروبولوجيا على حساب التطور فى الانثروبولوجيا لمواجهة متطلبات البحث الحضرى ، ومتابعة الانثروبولوجيا أو تمسكها بالنظرة الرومانسية قد يكون هو العمل الهام الذى جعلها تتخلى عن الاهتمام بالمدن حتى عهد قريب ، وهو أيضا السبب فى أن فائدة البحث الحضرى وجدواه وأهميته مازالت موضوعا مطروحا للنقاش بالنسبة للعديد من الانثروبولوجيين حتى الان ، وخاصة لسيطرة الفكرة القديمة عن نظرة الانثروبولوجيين المتميزة التى تتبع ارتباطها بالعالم البدائى [٢] .

اذا فالنظرة الكلية والمقارنة الثقافية والملاحظ بالمشاركة والمدخل التزامنى ،

(1) Ibid, p. 274.
(2) John Gulick: Urban Anthropology: Its present and Future in Readings in Anthropology, 2nd Edition, Morton H. Fried Ed., New York, Thaomas P. Crowell Co., 1978, p. 561.

كل هذه الاساليب والادوات امتزجت فى الدراسات المبكرة ، وقد شكلت هذه الاساليب والمناهج البحث فى مجال السلوك الانسانى بما فيه من متناقضات ، ولسوء الحظ فهذه العناصر المختلفة لا تبقى فى حالة امتزاج عندما يقوم الانثروبولوجيون بدراسة المجتمعات المعقدة والمدن ، وعن اختيار النظرة الكلية أو الملاحظة بالمشاركة أو المدخل التزامنى ، سوف نجد أن الانثروبولوجيين يحددون أهداف بحثهم بشكل مختلف نتيجة لاختلاف تخصصهم ومناطق بحثهم ، فيذهبون الى المدن المختلفة ويدرسونها فى ضوء منظورات انثروبولوجية حضرية ، قد تأخذ اشكالا وصياغات متنوعة لما يمكن ان تقوم به الدراسات الحضرية فى الانثروبولوجيا [1] .

الانثروبولوجيا الحضرية اتجاهات متعددة :

يذكر ريتشارد فوكس Richard G. Fox * أن التحدث عن انثروبولوجيا حضرية واحدة فى الوقت الحالى معناه إعطاء انطباع زائف وغير حقيقى عن وجود اتفاق على ذلك . فهناك العديد من الانثروبولوجيات الحضرية المختلفة والمتعارضة وكل واحدة منها تركز على خصائص معينة للانثروبولوجيا وتنكر الخصائص الاخرى ، وهذا التنوع يعكس الى حد ما حداثة الانثروبولوجيا الحضرية وحالتها الغير مستقرة أو الغير متبلورة وإلى حد ما تعكس هذه الاختلافات اتجاهات مستقلة ومنصلة عن بعضها البعض فى إطار الانثروبولوجيا، وعلى سبيل المثال نحن ندرك أن هناك اختلافات ايضا متواجدة بين ثلاثة اتجاهات فى الانثروبولوجيا الحضرية الآن :

---

(1) Ibid, . 461.

* استاذ الانثروبولوجيا الحضرية المعاصر بجامعة Durhan Duke بنورث كارو لينا بنيوجيرسى بالولايات المتحدة ، وله العديد من الدراسات والعديد من الاسهامات النظرية فى مجال الانثروبولوجيا الحضرية .

١ – انثروبولوجيا النزعة الحضرية rbanism

٢ – انثروبولوجيا التحضر Urbanization

٣ – انثروبولوجيا التجمعات الحضرية الفقيرة Poveriy

وسوف نحاول ان نناقش امكانيات هذه الاتجاهات الثلاثة وأوجه قصورها وتميزها في دراسة أنواع معينة من المدن في ضوء توجيهات نظرية مختلفة [١] .

أ – انثروبولوجيا النزعة الحضرية :

وهو اتجاه يمثل البداية الأولى للانثروبولوجيا الحضرية التي كانت تركز على المدخل الكلي في الدراسة وأيضا المنظور الثقافي ، ولعل كتاب ردفيلد R.Rdfield عن الثقافة الشعبية ليوكاتانThe Folk Culture of Yucatan (١٩٤١) قد أشار الى أن المدينة يمكن ان تكون مكانا مناسبا للبحث الانثروبولوجي ، وفي هذا الكتاب تم اعتبار المتصل الريفي – الحضري Folk-Urban على أنه مدخل كلي «وفكرة المتصل تفترض تدرجا في المجتمعات بين قطبي الريفي والحضري بحيث يمكن تصنيف المجتمعات على نقط مختلفة من هذه المتصل» وعلى هذا الأساس تم اختيار النموذج الثقافي لبحثه ، وفكرة ردفيلد مؤدها أن المجتمعات الشعبية في تطورها الى مجتمعات حضرية قد تحولت الى مناطق اجتماعية تقليدية ومنعزلة ومستقلة وصغيرة ، وغير متجانسة وقام ردفيلد بدراسته على أربعة مجتمعات هي مدينة Merida في جزيرة يوكاتان Yu-catan ثم قرية توسيك Tusik وهي مجتمع قبلي صغير ، ثم مجتمع شانكومShankom وديتاس Deitas ، وتبدأ فكرة المتصل بمجتمع الفولك

(1) Richard G. Fox: Urpan Anthropology. Cities in Pheir Cultural Cetins, Prautice hall, Enc, Englwdod Clifis, New Jerse, 1977, p. 7.

«الريفى - أو الشعبى» الممثل فى قرية «توسيك» ثم فى الوسط «شانكوم» و «ديتاس» ثم ينتهى بمدينة «ميريدا» وهى الأكثر تحضرا [1] .

والمجتمعات الاربعة تعطى انطباعا بالاختلاف المرحلى أو التدريجى الذى يمثل فكرة ردفيلد عن هذا المتصل ، مراحل متدرجة فى عملية التطور الحضرى ولقد كشفت المقارنة عن عدة متغيرات تميز كل مجتمع عن الآخر بما لديه من الخصائص التى يتفرد بها ذلك المجتمع عن الاخر *، ولقد ردفيلد إلى أن أهم ما يميز المجتمع الحضرى تفكك المجتمع كما تؤى الحضرية إلى المزيد من اتجاه المجتمع نحو العلمانية أو اللادينيوية وانتشار الفردية والروح الاستقلالية [2] .

وجاء من يعارض ردفيلد ، ويتضح ذلك من دراسات جدعون جويبرج G. Sojobe rg واوسكار لويس O. Lewis فقد كانت معارضتهما بناء على قبوله بشكل ضمنى للمبدأ اعتبار المدن الصناعية «نموذجا حضريا عالميا» وهكذا فان

---

(1) Robert Redfield, The Folk Culture of Yucatan , Chicago, Unv,. of Chicago Pres, 1941, pp. 19 - 52.

* أيا كان الأمر إن المقارنة أوضحت خصائص كل مجتمع على حدة بمعنى أنه يحدد طبقا لما يأتى :
- أنه اقل - أو اكثر - ارتباطا بالعالم الخارجى .
- انه أقل - أو أكثر - تغايرا ..
- - أنه أقل - أو أكثر - تقسيما للعمل .
- أنه اقل - أو أكثر - تطويرا لاقتصاد السوق والمال .
- أنه اقل - أو أكثر - احتواء على تخصصات مهنية وعلمانية أكثر .
- أنه اقل - أو اكثر - بعدا على الاعتماد على الروابط والنظم القرابية
- أنه أقل - أو أكثر - اعتماد على مؤسسات ذات طابع رسمى للضبط .
- أنه اقل - أو أكثر - تمسكا بالعقيدة الكاثوليكية أو بالاصل الهندى .
- أنه اقل - أو اكثر - بعدا عن التمسك بالعادات والتقاليد القديمة.
- انه اقل - او اكثر - تسامحا وتأكيدا للحرية الفردية فى الفعل والاختيار .

(2) Robert Redfield, The Folk Sodiety, The American Journal of Sociology, T II, 4, 1947, pp. 307 - 308.

جوبيرج يميز بين المدن الصناعية وما قبل الصناعية مؤكدا أن المدن الصناعية لا تشترك فى خصائص العمومية والدنيوية وضخامة الحجم ، وهو ما يفترضه المتصل الريفى - الحضرى أو (الفولك - حضرى) [(1)] .

بيد أن الخصائص التى قدمها ردفيلد لوصف المجتمع الشعبى كان لها أبلغ الأثر فى تطور دراسة الفروق الريفية الحضرية ، فالمجتمع الشعبى كما يذكر «صغير ، منعزل وتسوده الأمية والتجانس ، يربط بين أعضائه احساس قوى بالتضامن والسلوك فيه تقليدى وتلقائى وشخصى ، وفى هذا المجتمع يطغى على كل ما هو مقدس وعلى كل ما هو علمانى ، كما ان الاقتصاد يعتمد على المكانة أكثر من اعتماده على السوق» وإذا كان ردفيلد قد أشار إلى أن ملامح المجتمع الحضرى يمكن أن تتحدد بالنظر الى الخصائص المميزة للمجتمع الشعبى ، فان لويس ويرث L. Wirth قد حدد الخصائص التى تميز المجتمع الحضرى فى مقابل تلك التى حددها ردفيلد للمجتمع الشعبى ، فكلما زاد عدد السكان وارتفعت معدلات كثافتهم ، وعظم تباينهم ، عبر ذلك عن الخصائص المرتبطة بالحضرية تلك التى تتمثل فى ضعف روابط القرابة والجيرة وتضاولها [(2)] .

ونتيجة لذلك تظهر المنافسة ووسائل الضبط الاجتماعى الرسمى لتحل محل روابط التضامن ، كذلك فان العلاقات السائدة بين أفراد المدينة تبدو ثانوية وسطحية وانتقالية وانقسامية ، ومن ناحية أخرى نجد أوسكار لويس عند دراسته للمهاجرين الى مدينة المكسيك وجدانهم لم يعانو من تدهور العائلة وهو ما يميز المناطق الحضرية على حد تعبيره ، وعلي الرغم أن صورة الاتجاه الحضرى والتى أوضحها المتصل الريفى - الحضرى ارتبطت الى حد بعيد بالمدن الغربية الصناعية

---

(1) Gideon Sjoberg. The Preindustiral City, Past and Present, New York, The Free Press, 197=60, pp. 7 - 13.

(٢) السيد محمد الحسينى ، المدينة دراسة فى علم الاجتماع الحضرى مرجع سابق ، ص ١٧ .

ذلك حسبما أدرك ردفيلد بعد فترة قصيرة إلى أن مدخله الى المدينة ونظرته ليها كمستوى جديد للتطور الثقافى او كمؤسسة اجتماعية متطورة ، هذا المدخل د حدد النظرة الانثربولوجية الأولى للمدينة [1].

وعلى الرغم من الأهميـة النظرية التى تنطوى عليها الثنائيات إلا أن كثيرا من دارسى التحضر يرون أنها لا تمثل سوى وسيلة مبدئية يصعب الاعتماد عليها كلية فى التمييز بين الريف والحضر لأنها تغفل عاملا هاما من عوامل تشكيل هذه المجتمعات وهو التغيير ، ولعل ذلك يفسر لنا كثرة التحفظات التى أثيرت حول ثنائية الريفى - حضرى فى كثير من الكتابات المتعلقة بهذا الموضوع ، فعلى سبيل المثال نجد سوروكين Sorokin وزيمرمان Zimmerman يذهبان الى أن التحول من المجتمع المحلى الريفى الخاص الى مجتمع حضرى لا يتم فجأة، ولكنه يحدث بشكل تدريجى ، فليس ثمة خط أو حد مطلق يستطيع أن يكشف لنا عن وجود فارق فاصل بين المجتمع الريفى والمجتمع الحضرى [2] .

وهناك دارسون آخرون مثل ميلتون سنجر Milton Singer وهوارس ماينر Horace Miner وكونرارد ارنزبيرج Conarad Arensberg ، وجون جوليك John Gulic وانطونى ليدز Anthany Laeds يواصلون بحث سمات وخصائص الحياة الحضرية ، والمؤسسات الاجتماعية التى تميز المجتمعات الحضرية عن المجتمعات البدائية والمجتمعات الريفية واهتمام هؤلاء الانثروبولوجيين الحضريين بالسمات الخاصة المميزة لاتجاه الحضرى بدفعهم إلى تبنى النظرة الكلية عن كيفية ارتباط المدن بالمجتمعات التى توجد فيها هذه المدن .

---

(1) Richard G. Fox, Urban Authropology, op.cit., p. 10-12.

(٢) السيد محمد الحسنى وآخرون ، الفروق الريفية الحضرية - فى بعض الخصائص السكانية - تحليل أحصائى - الحلقة الدراسية الأولى لعلم الاجتماع الريفى فى مصر - منشورات المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية - القاهرة - ١٩٧١ .

وفى هذا المدخل تبدو المدن كمجالات للحياة الاجتماعية ترتبط بشكل لا مفر منه بمؤسسات وقيم المجتمع الذى توجد فيه هذه المجالات ، أنهم يبحثون الادوار الثقافية التى تلعبها المدن فى اطار مجتمعاتها ، إلى جانب الاشكال الفيزيقية المتمايزة ، والتنظيمات الداخلية ، وعلى سبيل المثال سوف نجد ان ردفيلد وسنجر فى محاولتها تصحيح وأعادة صياغة المعادلة الحضرية قاما بابراز وتحديد دورين ثقافيين تقم بهما المناطق الحضرية ، وأن كان هذا يتم بدرجات متفاوتة فالمدن التى كان لها وظائف Orthogentic أورتوجنيه أو تقويمية ، تعمل كمراكز لتقنين وارساء قواعد المجتمع ككل ، وفى مثل هذه المناطق الحضرية سوف نجد أن كوادر الادباء والمثقفين يقومون بترشيد الكثير من الاداء الثقافى والايديولوجى واشاعته فى المجتمع ككل ، فالرسالة الثقافية التى تخرج من المدن الكبرى الى المدن الصغرى ، يكون لها وظائف تتمثل فى تطوير وتنسيق التقاليد القافية وضمان الاستقرار [1] .

وتلك المدن التى كان لها وظائف غير متجانسة تعتبر مراكز للتغير الاقتصادى والتكنولوجى ودورها الثقافى يعتمد على ادخال الافكار الجديدة، إلى المجتمع الاكبر ، كما يحدث فى مدن مثل لندن وباريس ونيويورك ، أن ردفيلد فى صياغته الاصلية للابنية الشعبية الحضرية وفى دراسته مع سنجر عن الادوار التقويمية ، صبغ دراسة المدن بالصبغة الانثروبولوجية [2] . التى وجدت مجالا حصبا فى مناطق كثيرة مثل الهند وجنوب شرق آسيا وامريكا اللاتينية وبدان العالم الثالث ، ولا شك أن هذه المدن والمجتمعات تتميز بتقاليد ثقافية راسخة، ومن ثم أصبحت مجالا خصبا للدراسة الانثروبولوجية ، وأصبحت تشكل مدخلا

---

(1) Milton Singer, The Expansion of Society and Its Cultural Implications in City Invinclble: A Symp sium on Urbanization and Cultural development in theAncient Near East Carl. T. Kraeling and Robert M; Admas ed. Chicago Press, 1970, p. 20.
(2) Ibid., 21.

اساسيا انثروبولوجيا النزعة الحضرية [1] .

أن الجيل الحالى من الانثروبولوجيين الذي يهتم بالاماكن الحضرية أبطأ فى استخدام مفاهيم ردفيلد وسنجر ، وهذا مرده إلى أن انثروبولوجيا الاتجاه الحضرى تصل الى ذروة ضعفها عندما يتم تصور المدينة كمزيج يتكون من الجماعات المختلفة، والطبقات الاقتصادية والاتحادات أو النقابات السياسية ، والاتجاه او النظرة الكلية التى دفعت وردفيلد أو سنجر إلى التركيز على الأدوار الثقافية فى المدن ، هذه النظرة استندت الى الافتراض الخاص بالتجانس الحضرى ، والذى يعمل على تجاهل الاقليات والمهاجرين الحضريين والصراعات العرقية والاختلافات السلوكية والايديولوجية الاخرى التى تميز المراكز الحضرية [2] .

واذا كان أسلوب البحث المكثف التقليدى للباحث الانثروبولوجى شىء متفق عليه فكيف يمكن لهذا التطور أن يتم فى القطاع الحضرى المحدود وحينما واجه الانثرولوجيون الحضريون مدنا صناعية غير متجانسة ، وهى المدن التى يسود فيها انماط النمو السريع ار المدن التى تكونت عن طريق السيطرة الاستعمارية ، سوف نجد أن هؤلاء الانثروبولوجيين قد قاموا بتطوير مفاهيم أخرى ومناهج فى دراستهم للمناطق الحضرية .

ب - انثروبولوجيا التحضر : Urbanization

وهذا الاتجاه يتسم بهجرة الريفيين الى المدن ، ومحاولات هؤلاء السكان الوافدين للتكيف مع البيئة الحضرية الجديدة ، والتحضر هنا يمكن أن يوصف بأنه العملية التى بها تصبح الحضرية أسلوبا مميزا للحياة ، والحضرية بالتالى هي نوع

---

(1) Robert Redfield and Milton Singer, The Cultural Role of Cities. Economic Development and Cultural Change, III, 1954, p. 58.
(2) Ibid., p. 59.
(3) Richard G. Fox Urban Anthropology, op.cit., pp. 10 - 16.

من التكيف أو التلاؤم مع حياة مغايرة ، وللتحضر مظهران أولهما : الانتقال من حياة الريف الى حياة المدينة ، وارتباط ذلك بالتغيرات المصاحبة في نوع المهنة والابتعاد عن الزراعة والاقبال على أعمال اخرى متنوعة ومتخصصة داخل البيئة الحضرية الجديدة وثانيهما : التغير فى اسلوب الحياة من نمط معين الى نمط آخر مغاير، وهكذا نجد ان التحضر عملية تتميز بالخصائص التالية تحرك الناس من البيئة الريفية والزراعية الى المدينة وكذلك تغير الوظيفة من العمل بالزراعة الى مهن اخرى تختلف فى البيئة الحضرية وارتباط ذلك بالتغير فى مستوى المعيشة ، فضلا عن انتقال الافراد من بيئة يكثر فيها التأثر بقوى البيئة الطبيعية الى بيئة اخرى لا تصبح فيها لهذة القوى الطبيعية نفس الاهمية ، وبالتالى يصبح لها -أي القوى الطبيعية - تأثير محدود على نشاط الافراد حيث يصبح الانسان هو الذى يصوغ أو يشكل الحياة المحيطة به [(١)] .

واذا كان التحضر هو الانتقال من الحياة الريفية الى حياة الحضر ، أى المعيشة فى المدن كما أسلفنا منذ قليل ، فان هذا الانتقال قد يرتبط بالهجرة ، وفى هذه الحالة يتعين على الشخص أو الجماعة ان تتكيف بالنظم والقيم السائدة فى المدينة ويترتب على الفشل فى هذا التكيف تدهور الحالة المادية والمعنوية أو الانحراف او الارتداد الى القرية [(٢)] .

يذهب كلايد ميتشل *C. Mitchell فى مقال له بعنوان التوجيهات النظرية فى الدراسات الحضرية الافريقية «أنه عندما يقوم الباحث الانثروبولوجى بملاحظة سلوك المهاجرين فى المدينة فعلية ألا يغفل الاهتمام بخلفية الانماط الريفية أوالقبلية لهؤلاء المهاجرين وأنه بالأحرى سوف يجد ان كلا النمطين الريفى

---

(1) Chester A. American Society in transition Merdith Corporation, New York, 197o, p. 35.

(٢) السيد محمد بدوى ، مادة تحضر في معجم الاجتماعية - الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٥ ، ص ١٢٣.

× استاذ الانثربولوجيا الحضرية فى جمعة اكسفورد منذ سنوات قليلة قبل رحيله .

والحضرى للمهاجر يرتبطان معا وفى سياق واحد وأنه من الصعب أن ينفصل أحدهما عن الاخر [1] **.

وقد يكون التحضر بسبب اتساع نطاق المدن ووصول أساليب الحياة الحضرية الى بعض المناطق الريفية ، وفى هذه الحالة يكون الانتقال متدرجا ومع ذلك فانه هذا لا يعنى وجود صراع مستمر لفترة من الوقت بين القيم الريفية الحضرية فيظل التمسك ببعض العادات والتقاليد الموروثة قائما عند بعض الأسر العريقة أو المحافظة بالرغم من. تدفق أساليب الحياة المادية والاجتماعية الحديثة ويبدو الصراع واضحا فى عملية التحضر بين جيل الشباب وجيل الشيوخ ، وتثير عملية التحضر كثيرا من المشكلات النفسية والاجتماعية ، بل قد تؤدى أحيانا الى تفكك البيت الريفى ، ومن ناحية أخرى فان مفهوم التحضر Urbanisztion يستخدم للاشارة الى التغيرات الطارئة على المناطق الريفية بادخال شكال وتنظيمات وأساليب الحياة الحضية أما بانشاء المدن فى منطقة كانت خالية منها من قبل وأما باعادة تنظيم البيئة الفردية القروية ، وفى الحالة الأولى يتم التحضر بنمو المدن الذى يرتبط أساسا بادخال أشكال جديدة من الانتاج والتبادل وهذا ما حدث فى مناطق مثل افريقيا وسيبريا [2] .

أما فى الحالة الثانية فيؤخذ فى الاعتبار العمليات المختلفة لتحويل المناطق

---

(1) Clyde Mitchell: Theartical Orientotions in african Urban Studies in Micheal Banton (ed) The Social Anthropology of Comples Socieites. T. Vistock Publication. London, 1972, p. 37.

** وسوف نرى ذلك بوضوح فى دراستنا الحقلية فى الفصول الاخيرة .

(2) G. Brese, Urbaniztion in Newly developing Countries. Prent C, Hall, Inc, N. J. 1966. p. 3.

الريفية الى مدن بزيادة عدد السكان وإنشاء اشكال غير زراعية للانتاج وإقامة المشروعات وتشييد المساكن وتوزيع الخدمات العامة ، ومن مجموع هذه العمليات يظهر شكل جديد للتحضر ليكون لدينا فى النهاية أحياء سكنية ومراكز تجارية ومنشآت ادارية وتعليمية وترويحية ، وفى كلتا الحالتين يتغير المجتمع تغيرا جذريا لتغير الهيكل المهنى بحيث تضعف انواع النشاط الزراعى لتفسح مجالا للنشاط الصناعى والتجارى والمالى والادارى كما يتسع محيط الخدمات العامة، وقد يتم التحضر طفرة بادخال وسائل تقنية واقتصادية تؤدى الى النمو الحضرى مثل تصنيع منطقة كانت من قبل خالية من المدن [١] .

وما دمنا نعنى بالتحضر فى البلدان حديثة النمو فلعله من الافضل ان نوضح الفروق والتمايز بين بعض المفاهيم المرتبطة والمتداخلة والتى نجد بينهما كما يقول ميتشيل كثيرا من التداخل مثل مفاهيم التحضر والتفكك القبلى والتوطين والتسكين باعتباره عملية استقرار سكانى [٢] * .

---

(1) Clyde Mitchell, rbauization Detribalization stablizatio and Urban Commitement in South Africa, Tovistock Publication London, 1960, p. 43.

(٢) محمد عبده محجوب ، الانثروبولوجيا ومشكلات التحضر ، دراسات حقلية فى منطقة الخليج ، الكتاب الاول ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، الاسكندرية ١٩٧٩ ، ص ١١.

* فالتحضر كما ذكرنا من قبل لديه يعنى عملية التحول الى حضرى ، أما التفكك القبلى فيرجعه ميتشل إلى نوعين من العوامل العامل الديموجرافى الذى يرجع احيانا الى الاختلافات فى الخصائص العمرية والنوعية أى نسبة الجنس بين المناطق الحضرية والريفية أو فى الاحياء الاخرى نجده يرجع الى التحرك من المناطق القبلية الى المناطق الحضرية ، اما العامل السوسيولوجى فيتضمن الانتقال من المناطق الخاضعة للزعماء الذين يدين لهم المهاجرون بالتبعية والالتزامات القاسية الي الاستقلال الاقتصادى عن الاقارب الريفيين ، أما مصطلح التوطين او التسكين او الاستقرار السكانى فيرى ميتشيل انهما يعبران عن استقرار المهاجر من فى المناطق السكنية المستقرة ، أما كلمة التحضر هنا فهى تعرب عن وصف نمو النماذج ومستويات السلوك الغربية فى هذه المناطق والتفكك القبلى يعنى التحول من القبيلة الى مستويات السلوك الغربى - محمد عبده محجوب ، الانثربولوجيا ومشكلات التحضر ، جـ ١ ، مرجع سابق ، ص ١٢.

ويشير أحمد أبو زيد إلى تعقد مفهوم أو فكرة التحضر Urbanization فيقول أنه يصعب تحقيقها في الحياة الواقعية بمجرد ادخال صناعات جديدة، وما يترتب على ذلك من ظهور المدن أو بمجرد المعيشة والاقامة فى المدن مهما بلغ حجمها من البر والضخامة، وأن التحضر شيء أكبر من الوجود الفيزيقى أو الاقامة الفيزيقية فى المدينة [١] . وأنه إسلوب الحياه للتميز بمواقف واتجاهات ونشاطات وعلاقات واشباعات وأفكار وجزاءات وقيم خاصة، وهو بالاضافة الى ذلك كله عملية اجتماعية طويلة ومعقدة تهدف ليس إلى إلغاء أو تعديل أسلوب الحياة الريفى فقط بل أنها تهدف الى فرض ونشر أسلوبها الخاص ، فالتحضر يتطلب الفهم العميق والتمثيل الكامل لاسلوب الحياة الحضرية بكل ملامحها المميزة وهذا لا يتسنى تحقيقه إلا عن طريق التربية والاعداد الطويلين اللذين يساعدان الناس على فهم المعنى الحقيقى للحياة الحضرية بكل معانيها ، وعلى السلوك والتصرف تبعا لذلك وبدون تقبل وتمثل المبادىء الاساسية للحياة الحضرية، فلن يكون لهذه الجهود أي قيمة على الإطلاق وان معايير التمييز بين المجتمعات الحضرية وغير الحضرية فى الغرب لا يمكن تطبيقها كاملة على المدن العربية [٢] .

ويذكر السيد الحسينى انه من خلال السنوات الأخيرة ظهرت محاولات نظرية عديدة للتعرف لى ظروف نشأة التحضر ، وربما كانت أشهر هذه المحاولات تلك التى قدمها جوردن تشايلد Child حيث نجده يحدد بعض ملامح ما أطلق عليه «الثورة الحضرية المبكرة» ومن بين هذه الملامح : الاستيطان الدائم فى صورة تجمعات كثيفة ، وبداية العمل بالنشاطات غير الزراعية وفرض الضرائب وتراكم رؤوس الاموال وأقامة المبانى العامة الضخمة ، وظهور طبقة حاكمة مسيطرة ،

---

(١) أحمد أبو زيد - الثورة الحضرية الجديدة فى العالم العربى - محاضرة القيت فى جامعة اسكندرية ، ٢٨ نوفمبر ١٩٦٧، ص ١١.

(٢) احمد أبو زيد - نفس المرجع ، ص ٢٣.

وتطور فنون الكتابة وتعلم مبادىء الحساب والهندسة واكتساب القدرة على التعبير الفنى ونمو التجارة ورغم أن هناك انتقادات عديدة وجهت لهذه المحاولة النظرية إلا أنها تعد خطوة أولى نحو دراسة الظروف المهيئة لنشأة المدن [(١)] .

لقد تعددت اذن مداخل الدراسة الحضرية كنقطة انطلاق رئيسية لفهم المدينة ونمط الحياة الحضرية فيها ، وتمثل نظرية لويس ويرث عن الحضرية كأسلوب للحياة Urban sam as a way of life والتى نشرت عام (١٩٣٩) فى المجلة الامريكية لعلم الاجتماع أهم الدعائم الاساسية التى تستند اليها الدراسات الحضرية ، وكذا فانها تفيد معظم الباحثين المهتمين بعمليات التحضر ونشأة المجتمعات الحضرية الناجمة عن التصنيع وبرامج التنمية ، لقد أقام ويرث تفرقة واضحة التى تفهم على انها مجموعة من التنظيمات الاجتماعية والاتجاهات وانماط السلوك التى توجد حين يقيم الناس بصفة دائمة فى تجمعات غير متجانسة. والتحضر الذى عرف بأنه الوجد الفيزيقى للمدينة، ولقد أوضح ويرث كا سنشير بعد قليل - عدد من السمات التى اعتبرها مرتبطة أو ضرورية للحياة الحضرية ، إلا ان الكتابات السيسولوجية التالية قد تناولت هذه السمات التى اعتبرها مرتبطة أو ضرورية للحياة الحضرية ، إلا أن الكتابات السسيولوجية التالية قد تناولت هذه السمات من منظور نقدى الأمر الذى يسير الى أن تلك السمات لا تتميز بالشمول فى كافة المجتمعات الحضرية [(٢)] .

ان الفكرة الاساسية عند ويرث تقوم علي وجود سمات معينة للحضرية، وان تلك السمات قد تختلف من مجتمع لآخر بحيث يمكن القول انه لا يوجد نوع واحد

---

(١) السيد الحسينى ، المدينة ، مرجع سابق ، ص ١٤ .

C.Child, What Happened in History, Dagain Books, London, 1946.

(2) Louis, wirth, Urbanism as a Way of Life, American Journal of Sociology, Vol, 44, July, 1938, p. 1 - 10.

من الحضرية يسود كافة المجتمعات الحضرية ، ولقد أوضح ايضا ان المدينة هى حصيلة عملية نمو اكثر مما هى نتيجة خلق فجائي ، فانه من غير المتوقع أن تستطيع التأثيرات التى تمارسها على أشكال الحياة من أزالة أشكال التجمع الانسانى التى كانت سائدة من قبل ومحوها تماما لذا فان حياتنا الاجتماعية لا تزال تحمل بشكل أو بإخر بصمات المجتمع التقليدى الذى كان موجودا فى الماضى والذى كانت المزرعة والقرية تمثل الاشكال السكنية التقليدية المميزة له ويوضح ذلك أن السكان القاطنين للمدينة ذاتها ينتمون إلى أصول تمتد إلى القرية [١] .

أن لويس ويرث فى تناوله للمجتمعات والنماذج الحضرية أسهم الى حد كبير بتلك الدراسات التى تناولت الحياة الحضرية والتحضر ولهذا فاننا لا نجد كتابا تناول دراسة المدينة أو الحياة الحضرية إلا تعرض لمقالة ويرث سواء بالقبول أو بالرفض أو بالتعديل لأن ويرث حاول من خلال نظريته تلك أ يصل إلى مقياس مقبول وواقعى يمكن ان يكون من الناحية المقارنة صالحا لتمييز أنواع أو انماط متعددة من الحياة الاجتماعية التى ينطوى عليها المجتمع الحديث ، وينبغى أن ندرك أن كثيرا من الباحثين فى المجتمع الحضرى وجدوا أن نظريته تلك يمكن ان تكون مدخلا مناسبا يتم على ضوئه تفسير وتحليل ديناميات الحياة الحضرية [٢] .

فيرى ويرث أن الحضرية ترتبط بالمعيشة فى المدينة ولها نفس الصفات التى تتصف بها المدينة التى تتميز عند ويرث بالخصائص التالية :

أ - الحجم المتزايد فى عدد السكان .

ب - الكثافة Density العالية .

---

(1) Ibid., p. 12.

(٢) محمد عاطف غيث - علم الاجتماع الحضرى ، مدخل نظرى ، دار المعرفة الجامعية ، الاسكندرية ، ١٩٧٩ ، ص ٤ .

جـ - ظهور حالة اللاتجانس Heterogeneans بين سكان المدينة.

ولقد اعتبرت ويرث هذه القضايا هى المحددات الاساسية للحياة الحضرية فهو يرى ان هذه السمات الثلاث : الحجم ، الكثافة ، التغيير ، اذا تواجدت فإنها ستغير طابع الحياة الاجتماعية فى ظهور طريقة جديدة للحياة الحضرية ونحن فى دراستنا هذه قد تبينا الفكرة الاساسية عند لويس ويرث والتى تقوم كما قلنا على وجود سمات معينة للحياة الحضرية ، وأن تلك السمات تنشأ وتظهر نتيجة للاقامة فى المدينة ، أى نتيجة للتحضر بصرف النظر عن نوعية تلك السمات التى قد نجدها مختلفة من مجتمع لآخر [1] .

إننا نستطيع القول في النهاية أنه لا يوجد نوع واحد من الحضرية يسود كافة المجتمعات ذات الطابع الحضرى ، أن درجة التحضر فى مدينة ما تتوقف ليس فقط على الحجم والكثافة والتغاير وإنما نجدها تتوقف على مدى تأثر المدينة بالمجتمع المحيط [2] .

يقول L. Wirth ان مدينة صغيرة تسودها السمات الحضرية إلى حد بعيد تقع بين عدد من المدن الريفية وينتحل سكانها صفة الحياة الحضرية أكثر من سكان أى مدينة أخرى كبيرة ،على أية حال فان تحليل ويرث Wirth تضمن من غير شك قدرا كبيرا من التجريد أو بمعنى أصح نوعا من النموذج المثالى الذى لا ينطبق على مدينة بالذات وانما يصبح كاطار للتحليل تقترب منه المدن أو تبتعد حسب ظروفها وتاريخها وخصائصها [3] .

وهكذا نرى أن الانثروبولوجيين فى هذا الاتجاه (اتجاه انثروبولوجيا التحضر) يحاولون عبور الهوة بين القرية والمدينة ، من خلال البحوث العديدة التى أجريت داخل القارة الافريقية والتى قام بتنفيذها الانثروبولوجيون البريطانيون بصفة

---

(1) L. Wirth Urbanism as a Way of Life, op.cit., pp. 1- 24.
(2) Ibid., pp. 1 - 24.
(٣) محمد عاطف غيث - علم الاجتماع الحضرى ، مرجع سابق ، ص ١٣ .

خاصة ، والامريكيون فى أمريكا اللاتينية ، ومن ثم كان إهتمامهم بدراسة هذه المدن التى تتميز بمعدلات عالية من الهجرة الريفية أدت فى السنوات الأخيرة إلى نمو حضرى ملحوظ أو «مشكلات حضرية متفجرة» ، يقول Richard Fox أن مهمة الباحث تدور حول دراسة هذه العمليات وما يكتنفها من صراعات وتناقضات بين أنماط الحياة المتباينة والتى يجب على المهاجر الوافد أن يتكيف معها طالما أنه يتفاعل مع الآخرين فى إطار المجال الحضرى [١] .

وهذه الانثروبولوجيا الخاصة بالتحضر تركز على البناء الاجتماعى المتغير والروابط الشخصية والحياة الجماعية والكيان القبلى أو العرقى الذى يزداد وضوحا ونموا عندما يصبح الرجل القبلى أو الريفى متحضرا وارتباطه بمجموعة من. الأنماط الرسمية للنظم المغايرة ، والتى تحدد للفرد دوره وتطلعه على أنماط السلوك المرغوبة وغير المرغوبة ، وتعرفه على وسائل الضبط الاجتماعى والطرق الشعبية أو السنن الاجتماعية ، وأنماط التفكير التى تعمل بدورها على خلق نوع من التجانس أو المشابهة [٢] .

وهكذا سوف نجد أن الخصائص المميزة للمدينة الغير متجانسة ترتبط بالمهاجرين الوافدين اليها ، فعلى سبيل المثال أن الفكرة التى مؤداها «أن الاقامة الحضرية تؤدى الى وجود أنماط للعائلة النووية» قد تم دحضها فى العديد من مناطق العالم فالكيانات القبلية والجماعات لا تحول دون التحضر ، ولكنها تعتبر كقنوات هامة يمكن من خلالها الرجل الحضرى أن يجد مكانه فى داخل المدينة [٣] .

---

(1) Richard G. Fox, Urban Anthropology, op.cit., pp. 16 - 13.

(٢) فاروق مصطفى اسماعيل ، العلاقات الاجتماعية بين الجماعات العرقية ، دراسة فى التكيف والتمثيل الثقافى ، الهيئة المصرية العامة للكتاب فرع الاسكندرية ، ١٩٧٥ ، ص ٦٧

(3) Richasrd Basliam, Urban Anthropology, op.cit., p, 25.

ولعل الصعوبات التى تواجه انثروبولوجيا التحضر تبرز من الأفكار المنهجية المرتبطة بالانثروبولوجيا التقليدية ، فعندما يتعامل الباحث مع القطاع الحضرى والتكيفات الحادثة ، سوف يجد صعوبة نتيجة لاعتماده على الاسلوب أو الوسائل التى كان يستخدمها في المناطق التقليدية أو البدائية أو التجمعات السكانية التى تقع فى الأكواخ على أطراف المدنية الأمر الذى يترتب عليه تناول المدينة من جوانبها الهامشية ، وعلى الرغم من أن هذه المناطق تشكل وحدات بحث مناسبة بالنسبة للباحث الانثروبولوجى ، إلا أنها لا تمثل اطارا واقعيا للعلاقات الاجتماعية بالنسبة للمهاجرين الجدد ، ودراسات التحضر تحاول تجنب أو تلافى هذه النظرة الضيقة عن طريق التعامل مع مجال العلاقات الاجتماعية، والذى يمكن ان يتخطى حدود مجتمعات أو جماعات السكان المتحضرين حديثا والوجود الحضرى عن طريق الاعتماد على الشبكات الاجتماعية فى أى مركز حضرى ، ولذلك فان انثروبولوجيا التحضر مثل الانثروبولوجيا التى تهتم بدراسة التجمعات الحضرية الفقيرة «الاتجاه الثالث» ويتقاربان فى استخدام مفهوم معين ووسيلة الدراسة العملية عند دراسة نوع معين من التحضر «المقصود فى هذه الحالة هو المدن فى الدول النامية» مع وجود نمط خاص للعلاقة بين القطاع الحضرى والريفى وهو ما يؤدى الى حدوث مستويات عالية من الهجرة الى المدينة [1].

جـ – انثروبولوجيا التجمعات الحضرية الفقيرة :

إن انثروبولوجيا التجمعات الحضرية الفقيرة تمثل اتجاها آخر فى البحث الذى يقوم الانثربولوجيون بمتابعته ، وهذا الاتجاه يرتكز على وجود إرتباط أكبر

---

(1) Chen, Abner, Custom and Politics in Urban Africa. A study of Housa Migrants in Youba Towns, Borkeley Univ. of California Press, 1979, pp. 1-5.

بالمناهج الانثروبولوجية التقليدية بصورة أوضح مما تفعله انثروبولوجيا الاتجاه الحضرى ، وإن كانت تستبعد المدخل الكلى من مجال الانثروبولوجيا الحضرية ، وتقوم بدراسة سكان الأقليات والثقافات الفرعية العرقية وعمليات التكيف الاجتماعى الحضرى ، يقول Richard Fox ان مثل هذه الدراسات سوف تتيح الفرصة لاعادة صياغة المناهج المحددة التقليدية للانثروبولوجيا القبلية أو الريفية فى إطار المدينة [(١)] .

ويقول Leeds ان الشخص الفقير فى بورتوريكو ونيويورك والبلو الذين يشربون الخمر فى المناطق الحضرية . والسود الملونين الذين يقفون على ناصية الطرق فى واشنطن والهنود الحمر فى أنحاء الولايات المتحدة ، كل هؤلاء كانوا هدفا للانثروبولوجيا الحضرية والتى ترى المدينة من خلال أحياء الاقليات وتنظر الى الرجل المتحضر على أنه انعكاس لتقاليد وعادات الرجل الفقير [(٢)] .

بيد أن جاذبية مدخل دراسة الأقليات بالنسبة للانثروبولوجيا الحضرية كانت كبيرة لأنها تشكل ارتباطات والتزاما منهجيا بالاسلوب التقليدى للانثروبولوجيا ، كما أنها تعطى توجيها مباشرا للباحث الاكاديمى فيما يتعلق بمشاكل التحضر ، وهذا المدخل يتناول المدينة كمجال أو دائرة مستقلة لها ديناميتها فى اطار المجتمع الاكبر وخصوصا بالنسبة لسكان الاقليات أو «السكارى» الحضريين الذين يعيشون بطريقة مغايرة لأسلوب الحياة الحضرية وأخلاقياتها ، ان سكان هذه المجمعات يعيشون فى حالة اغتراب عن المجتمع الحضرى الذى يتمركزون داخله أو حوله [(٣)] .

---

(1) Richard G. Fox, Urban Anthropology, op.ci.m pp 12 - 20.

(2) Anthony Leeds, The Anthropology of Cities: Some Methodological Isues, in Urban Anthropology Reacharch Perspectives and Strateges Southern Anthropological Proceeding Number, Elizabethe M. Eddy, ed. Athens, U,N. of Georgia Press, 1988, p. 30.

(3) Ibid., p. 81.

ولأن الانثروبولوجيا الحضرية تركز على الجماعات الاجتماعية فى المدينة، ومن ثم درست مشكلات الفقراء والجماعات العرقية * ، والعقيدات أو المشكلات الاجتماعية لحياة الأقليات وطبيعة السكان المنبوذين والمجردين من حقوقهم والذين يقيمون فى المناطق الحضية، وهكذا فان العديد من الأفكار والفروض النظرية للانثروبولوجيا الحضرية تركزت على مشكلات الفقر والشعوبية بدرجة أكبر من تركيزها على طبيعة الاتجاه أو الميل الحضرى ، وإذا كان من الممكن إثبات أن سكان الأقليات متمايزين بشكل جوهرى عن القطاع الحضرى أو الحياة الحضرية عموما فان هذا يبرر هذا الاهتمام ، كما حدث فى العديد من المجتمعات مثل سكان التروبرياند والكواكيتوتل أو النوير ، لقد أوضح أوسكارلويس Oscar Lewis أن الفقراء المتحضرين يعيشون فى إطار ثقافة الفقر والتى توجد بشكل مستقل عن عزلتهم ، ومشاكلهم السياسية والاقتصادية والتى ترتبط بالتنظيم العائلى وأنماط التفكير وسلوك العمل المناقض لقيم المجتمع الاكبر، بمعنى أن هناك ثقافة فقر متميزة ذات صفات مشتركة بغض النظر عن المجتمع الذى يوجد فيه هذا الفقر ، فهو يخلق ثقافة خاصة به ذات عناصر مشتركة بين الفقراء أينما وجدوا ، ومن سمات هذه الثقافة أنها تخلق نفسها بنفسها ، أى أن خصائصها تنتقل من جيل الى الجيل التالى وهى تمثل أسلوبا مستقلا فى الحياة ذا خصائص مشتركة تصادفها أينما وجدت ، ولكنها فى نفس الوقت ثقافة فرعية داخل الاطار الثقافى الكبير الذي توجد فيه أينما كانت [1] . وهذا المدخل يعتبر

---

* مصطلح الجماعة العرقية يعنى كما يذكر د. فاروق اسماعيل انه يتكون من أشخاص يرتبطون معا بملامح وخصائص ثقافية وفيزيقية تحدد لهم مركزا او وصفا مختلفا عن الجماعة الغالبة التى يعيشون فى نطاقها او هى تلك الجماعة المتمايزة سلاليا أو يقافيا أو قوميا - مزيد من التفصيلات : راجع العلاقات الاجتماعية بين الجماعات العرقية - مرجع سابق - لفاروق مصطفى اسماعيل .

(١) محمد الجوهرى - الانثروبولوجيا أسس نظرية - مرجع سابق ، ص ٢٩٨ .

مدخلا للباحث الانثروبولوجى الى العديد من الجماعات التى جعلت من المستحيل دراسة المدينة بالطريقة الكلية السابق الاشارة إليها ، ولقد تعرض أوسكار لويس للهجوم على عدة مستويات ، وذلك لأن رأيه عن ثقافة الفقر يغير بشكل جوهرى عن الفكرة الانثروبولوجية ، عن الثقافة ، وبالتالى يناقض العديد من مظاهر أو سمات حياة الاقليات ، وأنه أيضا ينظر إلي التكيف الانتقالى أو المؤقت مع الظروف الصعبة التى تكتنف الحياة الحضرية القاسية على أنه سلوك مقنن ، على كل حال فان المفهوم فى أفضل الأحوال يرتبط بالمجتمعات المعاصرة وانماطها الحضرية ، وقد يصبح مفهومه ذلك فى أسوأ الاحوال مجرد عبارة ليس لها ما يبررها ، وتعمل على زيادة السلبية السياسية نحو الفقراء [(١)] .

أما الانثروبولوجيون المهتمون بسكان الاقليات قد بحثوا عن اطار إدراكى أو تصورى يوجه الحياة بين الفقراء المتحضرين ، ومن تلك الدراسات التى تناولت الاقليات دراسة جيمس سبرادلى James P. Spradley التى قام بها فى مدينة ستيل Seatle الامريكية بين مدمنى الخمور ، وهو يركز فى دراسته على سمة عدم التجانس بين أسلوب حياتهم والأسلوب الشائع بين أغلبية سكان المدينة الى حد أنه يعتبر أن هؤلاء الافراد ينتمون الى ثقافة فرعية خاصة بهم حيث أنه يصفهم احيانا بأنهم الرعاة الحضريون مشيرا بذلك إلى اتساع المسافة الثقافية التى تفصل بينهم وبين السكان العاديين الذين يقطنون معهم فى نفس المدينة، والذين ينظرون اليهم ليس فقط نظرات استغراب لسلوكهم وإنما أيضا نظرة استنكار لهم ، ولكن الباحث لا يشارك السكان العاديين نظرة الاستنكار هذه ، وإنما يهدف إلى تأكيد معنى النسبية الثقافية فى

---

(1) Richard G. Fox, Urban Anthropology. op.cit., pp. 12 - 20.

- Oscar Lewis. La Vida, A Buertorican Familu in the Culture of Poverty. Sanjuan and New York, Vintage Books, A Dividision of Randam House, 1968.

الحياة الامريكية وثقافاتها الفرعية المتمايزة [1] .

ومن هذا القبيل ما ذهب اليه اسبرادلى شأنه فى ذلك شأن أولف هاندز Alf Hannedrs للذين تابعا هذا الاهتمام العلمى والميدانى ، ويذهب أولف هاندرز من خلال تحليله الروح السائدة بين السود الملونين الذين يسكنون فى واشنطون لالقاء الضوء على أسلوب حياتهم ، واتخاذه نماطا خاصا يميزه عن الاسلوب العام المميز للمدينة بأثرها ، وهو يذكر أن من المهام الاساسية للانثروبولوجيا أن توضح لنا مدى التشابه أو الاختلاف بين أساليب الحياة المختلفة وان اصطبغت دراسته بالوصف ، وقد ميز بين أربعة أنواع من أساليب الحياة بين الزنوج انفسهم :

أولا : أسلوب حياة الاغلبية التى يتميز أفرادها بأنهم من ذوى الاعمال الثابتة ، والحياة العائلية المستقرة ، ومن ثم فانهم يكونون أكثر أقترانا من غيرهم بالنسبة لأسلوب الحياة التقليدى فى المدينة ككل ، وهذا يبدو واضحا فى أسلوبهم الاستهلاكى وتنظيم مساكنهم * واهتمامهم بألا يصدر عنهم ما يحط من شأن مكانتهم الاجتماعية ، وأن تكون لهم أهداف طبيعية فى الحياة يسعون لتحقيقها.

ثانيا : أسلوب حياة غير المتزوجين ، أولئك الذين ينتقلون سريعا من عمل إلى آخر ، ولا يستقرون فى اقامة ثابتة وتتميز علاقاتهم الشخصية بالسطحية بما فى ذلك «الروابط القرابية» الضعيفة نسبيا ، يتجمعون فى أوقات صاخبة ثم يتفرقون ليجتمعوا من جديد ومن ثم تتسع دائرة معرفتهم بغيرهم . ولكنها لا تصل الى مستوى الارتباط الوثيق .

ثالثا : أسلوب حياة عائلات الزنوج والتى تجمع بين أجيال عدة ويكون للكبار فيها وخاصة من النساء الكلمة النافذة ، وغالبا ما تكون هذه العائلات

(1) James Spradley; You own Yourself a Drunk; En Ethonography of Urban Nomads. Boston, Litle Brown and Company, 1970, pp. 1-20.

واقعة تحت وطأة الفقر الشديد نتيجة البطالة أو العمل فى مهن لا تتطلب مهارات معينة، والروابط العائلية نتيجة الفقر الشديد معرضة للتفكك والانهيار بسهولة وخاصة بين الازواج ، وزوجاتهم ، وان كان الرجال يميلون إلى الدخول فى علاقات وثيقة منعزلين الى حد ما عن نسائهم .

رابعا : واخيرا فان هناك أسلوب حياة متمايز ويرتبط ارتباطا وثيقا بالمهاجرين الوافدين من الجنوب واغلبهم من العمال غير المهرة ، والذين يعانون البطالة والأمية وهم يتجمعون فى أركان الشوارع وزوايا المنازل وأماكن أخرى ، يلعبون القمار ويحتسون أردأ المشروبات ويتفقون فيما بينهم على أعمال السرقة والسلب وكيفية مواصلة حياتهم دون ان يقعوا فى قبضة رجال الشرطة ، وهذه الانماط المتنوعة من أساليب الحياة توضح إلى أىّ حد يمكن ان يصبح السلوك غير المقبول اجتماعيا من جانب الاغلبية من سكان المدينة مقبولا من جانب فئات معينة كنوع من التكيف المؤقت مع حالة الفقر ، والعمل غير المستقر المميز لحياتهم بالرغم من دقة الباحث فى عرض هذا التنوع فى أساليب الحياة . إلا أن هذه الدراسة لم ترتبط بالمجالات الأخرى التى تسمح باستخلاص رؤية شمولية لهذه الاساليب من حيث مدى امكان وجود سمات مشتركة بينأساليب الزنوج كفئة هامشية داخل هذا الحى ، وبين فئات هامشية أخرى بنفس المدينة أو بينها وبين أساليب الزنوج الذين يعيشون فى أحياء أخرى فى غير مدينة واشنطون [١].

وتلك الدراستان توضحان أن ظاهرة عدم التجانس هى السمة الاساسية للمدينة فى المجتمعات المتقدمه من حيث تنوع الطبقات الاجتماعية والفئات المهنية والطوائف الدينية والانتماءات السياسية والعرقية بالاضافة الى التنوع

---

(1) Ulf. Hannerz, Soulside; Inquir es into Ghetto Culture and Community, New york, Columbia Uiversity Press, 1969, pp. 1 - 50.

الواضح في الانشطة المختلفة ، وبالرغم من ذلك يتميز بوفرة وسائل الاتصال التى تجمع هذا اللاتجانس داخل شبكة اجتماعية واحدة . ومن ثم يصبح معنى عدم التجانس قائما على التخصص الوظيفى فى مجالات العمل - التعليم - السياسة - الانتاج والاستهلاك ، وهذا كله يوضح الى أى حد تكون الحياة الاجتماعية في المدن الصناعية معقدة ومركبة ، وهذا التعقيد من شأنه ان يساعد على أن تأخذ سمة اللاتجانس في هذه المدن الصناعية صورة الانفصال والاستقلالية الذاتية بل والتعصب أو التميز أحيانا بين بعض الاطراف الاخرى، ويلاحظ مثلا أن ذوى المؤهلات العليا يميلون الى اختيار شريكات حياتهم من المتعلات تعليما عليا ايضا ، كما ان بعض الاندية ذات المستوى المعين تشترط في قبول اعضاء جدد ألا يقلوا عن هذا المستوى ، وقد يصل الأمر إلى ان تجد بعض الطوائف أو الفئات نفسها تأخذ وضعا هامشيا بالنسبة لحياة المدينة الصناعية ككل نتيجة بعض الفروق الاقتصادية أو العرقية أو الدينية «كما فى حالات اليهود» ولقد اهتم علماء الانثروبولوجيا بدراسة هذا اللاتجانس ، وخاصة بالنسبة لهذه التميزات بين الجماعات البشرية وردود الافعال التى يستجيب لها أفراد هذه الجماعات كنوع الحياة التى يعشونها ، وقد ساعد ذلك على أن تظهر هذه الدراسات تنوعات كبيرة فى اساليب الحياة وإنماط التنشئة الاجتماعية وانماط السلوك العرقى داخل الاطار الحضرى للمدينة ، بيد ان هناك نقدا يوجه إلى مثل هذه الدراسات ومؤداة أنها تركز اهتمامها على هذه الاحياء الفقيرة وأساليب الحياة فيها ، وكأنها معزولة عما يحيط بها فى حين كان من الضرورى ان تتخذ مثل هذه الدراسات كخطوة للوصول الى دراسة اشمل للمجالات الثقافية الخاصة بالمدينة ككل ، والتى تمثل هذه الاحياء بعض جوانبها ، وهذا ما ذهب اليه تشارلز فالنتين Charles Valentine فى كتاب له عن الثقافة والفقر يقول «ان الفهم الكامل لمشاكل الفقراء لا ينبع من الدراسة فى احياء الاقليات وحدها ولكنه ايضا ينبع من البحث بين السكان الاثرياء وذوى السلطة السياسية ايضا ، وبالمثل فان

التحدث عن وضع المدن فى منظور ثقافى مقارن وتناولها بشكل تتابعى كموضوع يخضع لتغيرات اساسية تتطلب رؤية كلية اكثر شمولية [١] .

وأخيرا فان الاتجاهات الحضرية الثلاثة ، انثروبولوجيا النزعة الحضرية وانثروبولوجيا التحضر ، وانثوبولوجيا التجمعات الحضرية الفقيرة التى سبق مناقشتها يركزون على دور الانثروبولوجيا فى المدينة ، وقد يكون لدى كل اتجاه بعضا من القصور على حد زعم R. Fox يعوضه بالالتجاء الى الاتجاه الآخر، وقد يتطلب من الباحثين الانثروبولوجيين المزج بين الميل الى التحضر وانثروبولوجيا التجمعات الحضرية الفقيرة او التحضر كمداخل للدراسة ووضعها فى إطار عام لتحليل المدن [٢] .

---

(1) Charles A, Valentine: Culture and Poverty: Craitique and Counter Proposals (Chicago; University of Chicago Press). 1968.
(2) Recahrd G. Fox Urban Anthropology, op.cit., pp. 20 - 22.

الفصل السادس
انثروبولوجيا القرابة والأسرة *

* كتب هذا الفصل د. فاتن محمد شريف ، كلية الآداب ، جامعة المنصورة .

الفصل السابع
انثروبولوجيا الأسرة*

مقدمه :

يحتل نسق القرابة وما يتصل به من نظم ازواج والاسرة ، أهمية كبيرة فى الدراسات الانثروبولوجية ، ذلك ان معظم علماء الانثروبولوجيا الذين حققوا اسهامات فى مجال الانثروبولوجيا تناولت مؤلفاتهم العلاقات القرابية أمثال ريفرز E.G. Rivers وكروبر Kroger وراد كليف براون R. Brawn وليفى ستروس Levi Strauss ، وتتجلى اهمية القرابة فى مجال الانثروبولوجيا في عبارة روبن فوكس Robin Fox من ان دراسة القرابة بالنسبة للانثروبولوجى كالمنطق بالنسبة للفيلسوف [1] .

تعد القرابة المحور الاساسى للبناء الاجتماعى خاصة في المجتمعات التقليدية الريفية والبدوية ، لارتباطها بشبكة من العلاقات المتداخلة مع الانساق الاجتماعية الاخرى ، ويمكنا من خلال التعرف على انماط السلوك المتبادل بين الاعضاء في كل من تلك المجتمعات . ويمكن للباحث الانثروبولوجى فى دراسته للمجتمع تفسير جوانب هامة من تطورات الحياة الاجتماعية من خلال دراسة السلوك القرابى النمطى ، داخل العلاقات القرابية المختلفة، حيث تعطى العلاقات القرابية النمطية نوعا من الانتظام والقدرة على التنبؤ ، بالاضافة الى ان الجماعات القرابية تختلق روابط اجتماعية ونوعا من التكامل فى المجتمع [2] ، ويقوم نسق القرابة فى اساسه على نوعين من العلاقات هما علاقات الدم وهى التى تربط بين أشخاص ينحدرون من نفس السلف سواء من خلال خط الذكور وتسمى قرابة عاصبة ، أو خط الاناث وستمى قرابة أمومية ، وعلاقات المصاهرة

---

* كتب هذا الفصل د . فاتن محمد شريف .

(1) Needham, Rodney, Rethinking Kinship and Mrriage, Tavistock press, London, 1971, p.1.

(2) Stephen, William, The Family in Cross-Cultural Perspective,

او الزواج وهى التى تربط بين الزوج او الزوجة بعائلة الشريك الآخر، وهناك نوع ثالث من العلاقات القرابية غير الحقيقية ومثال ذلك الابوة الاجتماعية التى من خلالها يمارس الشخص دوره كأب لطفل لم ينجبه اما بالتبني أو تولى رعايته وتنشئته لظروف اجتماعية معينة .

وعلي الرغم من ان دراسة الزواج والعائلة تعتبر المدخل الطبيعى لدراسة انساق القرابة ، الا ان الاهتمام بوضوع علاقات القرابة ، اهتمام حديث نسبيا ، على عكس الحال بالنسبة الى الزواج والعائلة ، وعلى الرغم من ان ابن خلدون سبق له ان انتبه الى نسق القرابة فى حديثه عن العصبية * ، ووضع بذور نظرية متماسكة نقلها عنه كثير من المستشرقين وبخاصة ايفانز بريتشارد وتلاميذه الذين اهتموا بدراسة انساق القرابة في افريقيا والعالم العربى ، ولكن لم يتح لنظرية ابن خلدون وآرائه ان تجد من يهتم بها أو يعمل على تطويرها ، نظرا

* يرى ابن خلدون ان العصبية تنتج عن النسب ومضمن هذه الفكرة تتخلص فيما يلي :

(١) ان العصبية هى صلة الدم .

(٢) العصبية خاصية للمجتمع البدوى فحسب لكى تحفظ نظام صلة الدم وتحدد شكل العلاقات القرابية بين الجماعات فى المجتمع البدوى .

(٣) ان العصبية اساس التنظيم السياسى للمجتمع البدوى وأساس النفوذ السياسى لزعماد القبائل وشيخوخها .

(٤) ان اصطلاح العصبية يستخدم لبيان كيفية الارتباط داخل العشيرة او القبيلة وتحديد الاقارب.

المرجع : سفتيلانا بانسيفا ، العمران البشرى فى مقدمة ابن خلدون ، (ترجمة عن الروسية رضوان ابراهيم ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٦ ، ص ٢٠٧ ، ٣٠٨).

كماربط ابن خلدون فى مقدمته بين النسب والعصبية فهو يذكر ان صلة الرحم طبيعية فى البشر الا فى الاقل ، ومن صلتها النعرء - أى التعصب لذى الارجل ونجدتهم والحرب عليهم - على ذوى القربى وأهل الأرحم ان ينالهم ضيم أو تصيبهم هلكة ، فان القريب يجد فى نفسه غضاضة من ظلم قريبه او الاعتداء عليه ، ويود لو يحول بينه وبين ما يصله من المعاطب والمهالك : نزعة طبيعية فى الشرمن كانوا » .

وهو هنايرى أن القرابة تفرض على الاقارب التزامات تجاه بعضهم البعض ويدعو =

= الى الرحمة والمودة فيما بينهم . كما يذكر ان القوة فى العصبية اما احياء البدو

لاكتفا المشتغلين بالعلوم الاجتماعية فى العالم العربى بالكتابة عن نظم الزواج واشكال العادلة وترديد التقسيمات والتصنيفات التى تمتلىء بها كتب علم الاجتماع الامريكى بوجه خاص ، وقد يكون لعلماء الغرب عذرهم في اغفال الكلام عن نظم القرابة والعلاقات القرابية والاكتفاء بدراسة العائلة والزواج على اعتبار أن القرابة بمعناها الواسع لا تلعب دورا هاما فى الحياة اليومية فى المجتمعات الغربية ، وذلك على العكس من الحال فى مجتمعاتنا ، وبخاصة فى المجتمعات الريفية والبدوية ذات التنظيم القبلى [1].

وسوف نتناول من خلال هذا الفصل ، إسهام الانثروبولوجيا فى تطور دراسات الأسرة ،ونظريات القرابة فى ضوء دراسة البناء الاجتماعى واسهامات كل من رادكليف براون وليفى ستروس ، كما نتعرض للعلاقة بين البناء الاجتماعى وبنية الاسرة من خلال متطلبات نسق الاسرة ، وعلاقته بالانساق الاجتماعية الأخرى ، ثم نستعرض الانماط المتمايزة للبناء الأسرى .

اسهام الانثروبولوجيا في تطور دراسة الاسرة :

يواجه المهتمون بدراسة الاسرة ، بتناقض غريب ، حيث نجد من ناحية أن كل مجالات الفكر الشعبى تبين عن اهتمام مكثف ومتزايد بشئون الأسرة ، من خلال الروايات ، والقصص ، والأفلام ، والمسرحيات ، كما تؤكد الكتب المقدسة باستمرار على أهمية الأسرة ، فى نمو الشخصية الفردية ، والكيان الاجتماعى ،

فلا يصدق دفاعهم وزيادهم الا اذا كانوا عصبية وأهل نسب واحد ، لانهم بذلك تشتد شوكتهم ويخشى جانبهم ، اذ ان نعرة كل واحد على نسبه وعصبيته أهم ، وما جعل الله فى قلوب عبادة من الشفقة والنعرة ، على ذوى ارحامهم وقربائهم موجودة فى الطبائع البشرية ، وبها يكون التعاضد والتناصر ، وتعظم رهبة العدو لهم» .

المرجع : على عبدالواحد وافى ، مقدمة ابن خلدون ، جـ ٢ ، لجنة البيان العربى ، القاهرة، ١٩٥٨ ، ص ص ٢٢٣ - ٢٢٤ .

(١) احمد ابو زيد ، البناء الاجتماعى «الانساق» ، المرجع السابق ، ص ٢٧٤ - ٢٧٥ .

مما يؤكد لنا ، أن الاسرة هى النظام الأكثر جوهرية وعالمية ، بين النظم الاجتماعية المتمايزة ، ومع ذلك نجد على الجانب الآ خر ، فى عالم العلوم الاجتماعية، صورة مختلفة تماما ، حيث كان هناك اهمال شديد للأسرة، بالمقارنة بما لقيته النظم الاقتصادية والسياسية والتربوية ، من اهتمام مكثف ، ولعله من المعروف تماما أن العلوم الاجتماعية ، كالاقتصاد ، والعلوم السياسية ، قد سبقت فى نموها ، علم متمايز للعلاقات الأسرية ، وهو ما يطلق عليه فى الوقت الحاضر علم الاجتماع العائلي Doméstic Science [1] . ولذا فان دراسات الأسرة، لم تنتعش الا فى أواخر القرن التاسع عشر ، وأوائل القرن العشرين ، على يد علماء الانثروبولوجيا ، وعلماء الآثار ، الذين اهتموا بدراسة الأسرة فى الثقافات البدائية، وفى الحضارات القديمة ، ومنذ ذلك الوقت بدأت دراسات الأسرة ، تحتل مكانة هامة فى العلوم الاجتماعية [2] .

النزعة التطورية وأصل العائلة البشرية :

سيطرت الأفكار الداروينية Darwinism ، على المفكرين الاجتماعيين ، فى أواخر القرن التاسع عشر ، وكانت أهم المشكلات التى يتناولونها ، هى البحث عن أصل العائلة البشرية وتطورها ، مما قد يتطلب استخدام ، التأويلات التاريخية ، والآساطير ، والفولكلور ، وقد جرى دراستها فى اطار واسع فى المجتمعات البدائية ، وكانت العائلة المعاصرة هى ذروة العملية التطورية ، ولا تحتاج الى دراسة مباشرة . وقد كشف مورجان Morgan وانجلز Engles ، عن

---

(١) محمد عبده محجوب ، أنثروبولوجيا الزواج والأسرة والقرابة ، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية ، ١٩٨٥ ، ص ٣٦ .

(٢) سناء الخولى ، الزواج والعلاقات الاسرية ، دار المعرفة الجامعية ، الاسكندرية ، ١٩٩٠ ، ص ٣٧ .

أمثلة للاباحية والزواج الجماعى فى المجتمعات البدائية ، كما قدم وسترمارك Westermark فى دراسته تاريخ الزواج الانسانى The history of Human Marriage أمثلة عديدة على أن العائلة البدائية والقردة العليا كانت أحادية النسب ، ولديها الاخلاص فى علاقاتها الزواجية ، وبينما نجد سيرهنرى Sir Henry Main ، قد أوضح فى بحثه أن النزعة الأبوية كانت توجد فى الاشكال الأولية للعائلة ، فان باخوفن Bachofen وبريفولت Briffault أكدا فى دراستهما على ان النزعة الأمومية سبقت النزعة الأبوية ، الا ان الجانبين لم يقدما ، أدلة تؤكد وتدعم وجهة نظرهما [1] ، وقد انفصلت تلك الدراسات التاريخية ، انفصالا يكاد يكون تاما عن الواقع الأسرى القائم ، فى المجتمعات المعاصرة ، كما تفتقر افتقارا كليا ، الى تصور متكامل ، معتمد على أسس امبيريقية، عن تطور أشكال الأسرة والزواج فى المجتمعات المعاصرة [2] .

النظرية الوظيفية :

لقد أسهم هربرت سبنسر H. Spencer فى قيام النظرية الوظيفية لدراسة المجتمع فى منتصف القرن التاسع عشر ، فهو يرى أن المجتمع كائن عضوى ، يتكون من أبنية متميزة ومترابطة فى وحدة كلية ، وأجزاء متساندة ، وأن أى تغير يحدث فى اى جزء منها يؤدى الى تغييرات فى الكائن العضوى ، وتعد العائلة أحد تلك الأجزاء أو الأبنية المكونة للمجتمع ككل [3] .

ومع التغييرات الاجتماعية والاقتصادية التى تعرض لها العالم فى أواخر القرن التاسع عشر اتجهت الدراسات الاجتماعية الى التركيز على الظروف

---

(1) Bell, Norman & Vogel, Ezra, The Family, The Free Press of Glencoe, Illinois, U.S.A, 1966, p.3
(2) Farmer, Mary The Family, Longman, London, 1980, p. 212.
(3) Bell, & Vogel, op.cit., p.4.

الاقتصادية للعائلة ، وتجاهلت العمليات الاجتماعية ، وبناء المجتمع الأكبر أو مناقشتها فى ضوء عوامل استاتيكية مثل المكان والطابع السلالى والحقوق تجاه المجتمع وصاحب العمل او الحكومة ، وقد قام لبلاى Leplay وزملاؤ Zimmer-man وبلاك Black فى أمريكا باتخاذ الاسرة كوحدة دراسية للملاحظة المباشرة ، وقد اشار لبلاى فى دراسته الى أن العمال ليسوا فقط وحدات للعمل ، ولكنهم أيضا عائلات [1]. كما أوضح من خلال المادة الامبيريقية، التى تم جمعها، من ستة بلدان أوربية، ان خبرات العائلة ، تؤثر على انجاز العمل ، وبالتالى على اقتصاد المجتمع . وقد وجدت دراسته ان هناك علاقة بين الاحباط الوظيفى ، والسلوك التسلطى فى المنزل . وتتمثل الاضافة المنهجية ، للوبلاى، فيما يعرف اليوم ، بمنهج «دراسة الحالة» ، حيث يقوم بملاحظة دقيقة واعية للظاهرة المدروسة فى ضوء اطار موحد، متخذا من الأسرة ، وحدة للمقارنة [٢]. ومع أوائل القرن العشرين تزايدت معدلات الطلاق والانفصال ، وتدهورت معدلات المواليد ، وأصبحت النساء تعملن وقتا اطول خارج المنزل . واهتمت الدراسات الاجتماعية فى تلك الفترة ببحث السلوك الاجتماعى للعائلة المعاصرة [٣].

وقد كان المدخل السوسيولوجى لفهم انماط الزواج والأسرة يتم من خلال دراسة الاطار الاجتماعى ، الذى يشكل سلوك الناس ، حيث أكد العلماء فى تلك المرحلة على أن جوهر المنظور السوسيولوجى هو أن السلوك البشرى لا يمكن فهمه، بعيدا عن المجال الاجتماعى ، والثقافى الذى يحدث من خلاله هذا السلوك، فأنماط السلوك البشرى تختلف من مجتمع الى آخر ، ويمكن بحثها من خلال عدسة تصور عادات اعضاء المجتمع وإفكارهم حول واجباتهم وحقوقهم

---

(1) Farmer, Mary, Op.cti., p. 212.

(٢) علياء شكرى ، الاتجاهات المعاصرة فى دراسة الأسرة ، دار المعرفة الجامعية ، الاسكندرية ، ١٩٨٠ ، ص ١٨.

(3) Bell & Vogel, op.cit., p.4.

وأسلوب الحياة الذى يعكس معتقداتهم وقيمهم (كطرق تنظيم أنفسهم ومحدداتهم البيئية والتكنولوجية) [1] .

ثم تناول الباحثون دراسة الأسرة كمؤسسة اجتماعية ، من. خلال القيم والسلوكيات والمشاعر والعلاقات بين الرجل والمرأة ، وبين الوالدين والابناء، وظهرت أبحاث عن الأسلوب الافضل للاختيار الزواجى ، والسن المناسب للزواج وأفضل انماط التفاعل لتحقيق العلاقات الطيبة ووسائل تحقيق السعادة كبداية لحياة عائلية ناجحة ، من تلك الدراسات دراسةLandis & Landis لبحث الأدوار التى يقوم بها الاشخاص فى العائلة [2] .

كما برزت فى دراسات الأسرة اتجاه التفاعل الرمزى Symbolic interaction والذى يركز على الذات من. خلال سياق الأسرة وتفاعلها فى الأدوار ، ويتضمن الدور توقعات السلوك ويأخذ معنى عندما يرتبط بدور آخر ، كما نجد فى العلاقة بين الأم والطفل .

ويمثل اتجاه التفاعل الرمزى أهمية خاصة للباحثين المهتمين بدراسة التوترات والأزمات واختلال التنظيم فى حياة العائلة، ويتخذ المدخل التنموى-Develop mental approach من دورة حياة العائلة إطار مرجعى لتأكيد افتراضاته، من منطلق الحقيقة التى مؤداها ان كل من العائلة والمجتمع فى حالة ديناميكية، وان العلاقات المتغيرة فى اطار العائلة تعكس سلسلة من الادوار المتغيرة المرتبطة بالاتجاهات التنموية الملائمة لكل مرحلة فى دورة حياة العائلة ، وهناك تغير مستمر للادوار والمكانات من خلال الدورة ، ويتطلب كل تغير تكيف من جانب كل اعضاء الاسرة [3] . ومن خلال تحليل التغيرات فى الادوار المواجهة للحاجات

---

(1) Henslin, James, Marriage and Family in Changing Society, A Division of Macmillan, Inc., N.Y., 1985, p. 7.
(2) Nye, Ivan, F.; Fifty years of Family Research; in Journal of Marriage and the Family; 50; May; 1988; p. 305.
(3) Farmer, Mary; op.cit., p. 215.

المختلفة والمسئوليات المرتبطة بكل مرحلة من مراحل نمو الاسرة ، يمكننا تفسير الظروف العائلية الداخلية والخارجية التى تحدث التغيرات فى إطارها. ولقد أسهم المدخل التنموى فى مجال دراسات الأسرة وخاصة المتعلقة بالأزمات التى تتعرض لها الأسرة وتكيف الادوار . كما لعبت نظرية الدور دورا هاما فى مجال العلوم الاجتماعية بصفة عامة ودراسات الأسرة بصفة خاصة .

وهناك اتجاهين أساسيين فى تطوير تحليل الدور ، الاتجاه الأول يركز على الدور فى ضوء المراكز التى توجد فى البناء الاجتماعى ، أى العلاقة بينها وتحقيق التكامل بينها فى اطار النسق الاجتماعى ، وأسلوب اختيار الأفراد الممارسين لهذه الادوار ، وهذا الاتجاه يتطابق جزئيا مع النظرية الوظيفية ، الاتجاه الثانى وخاصة فى دراسة جوفمان حيث التركيز على الممارس الاجتماعى الذى يلعب دوره ، وقد حاول رالف ترنر تطوير مدخل نظرى للعائلة من خلال تحقيق التكامل بين هذين الإتجاهين لنظرية الدور ، ويمكن القول ان نظرية الدور لا تنكر وجود القيود فى المجتمع من اجل تحقيق الضبط الاجتماعى ، وإنما تؤكد على دراسة كيفية امتثال الممارسين لتلك القيود [1] ، ثم قامت دراسات عديدة لبحث العائلة كنسق اجتماعى وأهتمت بالعلاقة بين وظيفة البناء العائلى والانساق الأخرى .

الاتجاه البنيوي الوظيفي لدراسة الاسرة :

لقد توصل الاهتمام السوسيولوجى بالأسرة مع تأصل الاتجاه البنيوى الوظيفى الذى يرى ان المجتمع فى تنافسه مع المجتمعات الأخرى ، لا يستطيع الاستمرار فى الحياة الا اذا استطاع اعضاؤه من خلال نشاطاتهم المتنوعة ، ان

(1) Morgan, D.H., Social Theory and the family, Roultledge and Kegan paul, London, 1980, pp. 55 - 56.

يقوموا بوظائفهم الاجتماعية بطريقة متسقة ، وبالنسبة للأسرة فأننا نجد مركبا تنظيميا مهيئا لمواجهة الحاجة المجتمعية لاستمرار تعريض «الفاقد» فى العضوية الاجتماعية، وبالتأكيد هذا التعويض أو الاحلال ينطوى على جوانب متعددة، كالأنجاب الفيزيقى للأفراد «الاعضاء الجدد» وكذلك رعاية وحماية هؤلاء الأعضاء أثناء طفولتهم وصباهم ووضعهم فى نسق المراكز الاجتماعية [(١)] .

ويعتبر الاتجاه النبائى الوظيفى فى تحليل نسق الأسرة من. أحدث التحليلات فى هذا المجال ، وهو يتناول بالبحث «التكامل» بين الاسرة والنظم الاخرى ، كما يحلل الوظائف التى تقوم بها هذه الوحدة البنائية (الاسرة) فى المجتمع الصناعى الحديث [(٢)] .

درلسة تالكوت بارسونزT. Parsons للبناء الوظيفي للاسرة :

تعد دراسته من اشمل تطبيقات تلك النظرية ، حيث يرى بارسونز أن التحليل الوظيفى للاسرة يتسم بجانبين ، الأول التنشئة الاجتماعية ، حيث تقوم الاسرة النووية بالتنشئة الاجتماعية بالنيابة عن النسق الاجتماعى وهو يعتبر الشخصية نسقا فرعيا فى نسق العائلة ، والعائلة بدورها نسقا فرعيا للنسق الاجتماعى الاكبر، وقد أكد على أن الاسرة ليست وحدة منعزلة عن النسق الكلى ، فهى ترتبط بالنسق الأكبر ، من خلال دور الأب فى المجال المهنى ، كما انها ليست كيانا ثابتا ، ولكنها تتغير عبر الزمان فمن خلال قاعدة تحريم الزنا بالمحارم فان الابناء عندما يصبحون بالغين يكونون أسرا نووية خاصة بهم ، (وينتقل الابن بذلك من اسرة التوجيه الى أسرة الانجاب) .

---

(١) محمد عبده محجوب ، المرجع السابق ، ص ٤٩ - ٥٠.

(٢) سناء الخولى ، الاسرة فى عالم متغير ، الهيئة العامة للكتاب ، الاسكندرية ، ١٩٧٤ ، ص ٧٠.

والجانب الثانى للتحليل الوظيفى للأسرة عند بارسونز يتمثل في محددات الدور طبقا للنوع داخل الاسرة ، فالرجل يختص بالادوار الوسيلية التى تربط الأسرة بالمجتمع الخارجي ، وتعمل على استمرارها كوحدة كائنة فى البيئة المحيطة بها بمعنى ان مهنة الأب ووظيفته فى المجتمع ، هى التى تحدد المركز الاجتماعى للأسرة ككل. أما المرأة فهى تختص بالأدوار المعبرة، وهذا يرجع كما يذكر بارسونز T. Parsons الى العامل البيولوجي ، لأن عملية الانجاب والرضاعة هى علميات خاصة بالمرأة ، كما ان هدفها تحقيق الاستقرار والتماسك الأسرى والعناية بالأطفال ، ومنح المشاعر العاطفية لزوجها . وهذا التباين فى ادوار اعضاء الاسرة له أهمية وظيفية بالنسبة للافراد والنسق ككل [1].

كما استخدمت روزكوزر R. Coser الاطار الوظيفى فى دراستها للاسرة فهى ترى أن الأسرة نظام عالمى ، الا أ تلك العالمية «لا يمكن تفسيرها من خلال الوظائف الظاهرة المتمثلة فى الانجاب والانشطة الاقتصادية والتنشئة الاجتماعية للابناء» . فهى ترى ان تلك الوظائف يتم تحقيقها خارج نظام الأسرة، وقد حددت Coser أهم وظائف الاسرة التى تتمثل فيما يلى :

١ - توكيد الأبوة الاجتماعية

٢ - توطيد الزواج من خارج قرابة الدم

٣ - التزام الكائن العضوىBiological Organism بالمعايير الاجتماعية .

٤ - منح الذاتية الاجتماعية لأعضاء الأسرة.

ويتضح لنا من تلك الوظائف أنها تؤكد على العامل الاجتماعى أكثر من العامل البيولوجى وتتسم الوظيفتان الأوليان بسمعة «العالمية» حيث تقوم الوظيفة الأولى على مبدأ الشرعية Principle of Legitimacy عند مالينوفسكى، بينما تقوم الوظيفة الثانية على مبدأ التبادلية Principle of

(1) Morgan, D.H.J., Social Theory and the Family, op.cit, p. 30-35.

Reciprocity عند ليفي ستروس Levi-Strauss المبدأ الأول يقوم على أن كل طفل يجب ان يكون له اب ، والتأكيد هنا علي الأبوة الاجتماعية، التى تعتبرها Coser أهم من الأبوة البيولوجية، أما المبدأ الثانى فانه يدور حول نظرية عامة عن تحريم الزواج بالمحارم ، حيث تؤكد على النمط التبادلى للزواج، وبذلك تكون الحياة الاجتماعية محتملة» ، كما ترى أن للقيم والمعايير الاجتماعية أهمية كبيرة لاعضاء المجتمع ، وأن الاسرة انعكاس للمجتمع الذى تنتمى اليه ، وهى بدورها تمنح اعضاءها الانتماء الاجتماعى [1] .

كما يؤكد بل وفوجل Bell & Vogell على العلاقات التبادلية بين الأسرة كنظام اجتماعى والنظم الاجتماعية الأخرى فى المجتمع مثل النظام أو النسق الاقتصادى ونسق القيم وتأثير تلك النظم او الانساق على الأسرة ، ومدى تأثير الأسرة عليها ، ويؤدى هذا التأثير المتبادل الى أن البناء الأسرى يرتبط بالتغيرات الاجتماعية والاقتصادية ، التى تتعرض لها الانساق الفرعية المكونة للبناء الاجتماعى فى المجتمع [2] ، مثال ذلك النسق الاقتصادى الذى يعرفه فوجل Vogell بعمليتى الانتاج وتوزيع السلع والخدمات وتساهم الأسرة في النسق الاقتصادى من خلال تزويد أعضائها بمستوى معين من المهارات الفنية لأداء عمل انتاجى معين ، وتتلقى الاسرة بالمقابل السلع والخدمات الاقتصادية. كما يؤثر الاقتصاد وتوافر السلع على نوع وكيفية الاستهلاك داخل الاسرة، كما نجد من ناحية أخرى أن رغبة الأسرة فى سلع معينة دون غيرها تدفع بعض الشركات لاجراء تعديل فى تلك السلع دون غيرها ، وقد تدفع بعض الشركات الى اجراء تعديل فى انتاجها لكى تتلائم مع رغبات الأسر الاستهلاكية .

اما عن علاقة الأسرة بنسق القيم ، فان التزام الأسرة وقبولها لمعايير ذلك

(1) Ibid., pp. 22-23.
(2) Ibid., P. 54.

النسق يعمل على بقائه ودعمه ، كما ان الوظيفة الكامنة لذلك الالتزام من قبل الاعضاء هى زيادة درجة التماسك داخل النسق الاسرى [١].

أى ان بل وفوجل يؤكدان على العلاقات التبادلية بين نسق الأسرة والانساق المختلفة التى تكون المجتمع مما يؤدى الى تغييرات مستمرة فى البناء الاسرى تبعا للتغيرات التى يتعرض لها البناء الاجتماعى .

كما تناول وليام جوود W.Goode الأسرة كعنصر جوهرى فى البناء الاجتماعى لأى مجتمع ، فالفرد داخل الأسرة يمارس حياته من خلال شبكة واسعة من الحقوق والواجبات ، التى يكون ملتزما بها ، كما ان الاسرة تعد النظام الاجتماعى الوحيد المسئول عن تحويل الفرد من كائن عضوى بيولوجى الى كائن اجتماعى ، فهى تضفى عليه السمة الاجتماعية ، وتدربه على كيفية ممارسة الأدوار الاجتماعية [٢] .

ويمكننا بناء على ذلك ان نلخص أهم الملامح الرئيسية لتطور الاتجاهات النظرية فى دراسة الأسرة ، ابتداء بالنظرية التطورية التى سيطرت من خلالها النزعة الداروينية الاجتماعية على المفكرين الاجتماعيين ، فاهتموا بالبحث عن أصل العائلة البشرية وتطورها وقد اعتمدوا علي التأويلات التاريخية والأساطير والفولكلور ، ومن أصحاب هذا الاتجاه التطورى مورجان وانجلز ووستر مارك وسيرهنرى مين وباخوفن .

ثم ظهرت النظرية الوظيفية من خلال آراء هربرت سبنسر حول مماثلة المجتمع بالكائن العضوى فى أنه مكون من أبنية متميزة مترابطة ، وأن أى تغير فى احداها يؤدى الى تغير فى البناء الكلى ، وتعد العائلة احدى تلك الأبنية المكونة

---

(١) سامية الخشاب ، النظرية الاجتماعية ودراسة الأسرة ، دار المعارف ، القاهرة . ١٩٨٧ ، ص ص ٤٥ - ٧٠.

(٢) نادية فؤاد ، نظرية القرابة عند ليفى ستروس ، كلية الآداب ، جامعة الاسكندرية ، ١٩٧٩ ، (رسالة ماجستير غير منشورة) ، ص ٢١ .

للمجتمع ، كما اهتمت الدراسات الاجتماعية فى أوائل القرن العشرين بدراسة السلوك الاجتماعى للعائلة المعاصرة وتزايدت الأبحاث حول القيم والسلوكيات والعلاقات بين أعضاء المجتمع من أصحاب تلك الدراسات لبلاى زيمرمان وبلاك ولانديس .

وأخيرا أحدث الاتجاهات النظرية وهى الدراسات البنائية الوظيفية للأسرة ، وقد عرضنا لدراسة بارسونز للبناء الوظيفى للأسرة حيث ارتبط تحليله الوظيفى بجانبين : الأول التنشئة الاجتماعية ، والثانى محددات الدور تبعا للنوع داخل الأسرة ، كما تناولت روز كوسر للاطار الوظيفى للاسرة فهى ترى أنها انعكاس للمجتمع الذى تنتمى اليه وهى بدورها تمنح اعضاءها الانتماء الاجتماعى ، كما يعد بل وفوجل من أصحاب الاتجاه البنائي الوظيفى فقد أكدا على التأثير المتبادل بين البناء الاسرى والانساق الاجتماعية الأخرى ومن ذلك يتضح لنا أهمية الأسرة كوحدة بنائية فى البناء الاجتماعى بصفة عامة والنسق القرابى بصفة خاصة .

نظريات القرابة في ضوء دراسة البناء الاجتماعي :

تعد القرابة نظاما اجتماعيا محوريا فى كثير من المجتمعات الانسانية، وهى تلعب دورا هاما في تنظيم وتكوين الجماعات الانسانية ، كما انها تعتبر أحد مظاهر هذه النظم ، فالقرابة تحدد عضوية الانسان فى الجماعة ومسئولية تجاه الاعضاء الآخرين حيث تسير الحقوق والواجبات من خلال قنوات نسق القرابة، لأن الحقوق والواجبات جزاءن متكاملان فى السلوك القرابى ، كمـــا أن نسق القرابة له علاقات معقدة بالأنساق الاجتماعية الاخرى التى تكن جميعا البناء الاجتماعى [1] .

---

(١) محمد عبده محجوب وآخرون ، المقدمة فى دراسة علم الانسان ، مركز الشهابى للطباعة والنشر ، الاسكندرية ، ١٩٩٠ ، ص ص ١٦٩ - ١٧٠.

يميل بعض العلماء فى محاولتهم وضع تعريف للبناء الاجتماعى الى اعتبار ذلك البناء هو الطريقة التى ينقسم بها المجتمع ، الى زمر اجتماعية ، أو الى جماعات متمايزة واضحة ، وان ثمة عناصر أساسية وجوهرية توجد فى كل مجتمع ، وتستخدم كأساس لهذا التمايز والتفاضل ، وقد اختلف العلماء ، فى تحديد هذه العناصر الأساسية ، أو المبادىء الأولية التى يقوم عليها التمييز، وان كان هناك نوع من الاتفاق على بعضها مثل ، مبدأ التوزيع الاقليمى للجماعات، ومبدأ التمايز على أساس الجنس ، ومبدأ التمايز على أساس السن، والتمايز على أساس التنظيم القرابى ، وغيرها من المبادىء ، وليس من شك فى أن التمايز أو التفاضل الجنسى يعتبر عنصرا هاما فى دراسة القرابة ، لأن ذلك الاختلاف هو الأساس الأول الذى يقوم عليه نظام الزواج ، وما يترتب على ذلك النظام من ظهور العائلة بأشكالها المختلفة ومن ثم ظهور الأنساق القرابية [١] .

وتتمثل القرابة فى تلك الروابط التى تنشأ عن الزواج والأبوة والأخوة، التى تربط بين أعضاء الأسرة الأولية كل منهم بالآخر، والتى تكون شبكة من العلاقات التى تتولد عن الانحدار القرابى والمصاهرة ، وهى علاقة مقررة ومعترف بها لأغراض اجتماعية معينة ، والواقع أن كل المجتمعات البشرية تعترف بقرابة الدم Cognatic Kinship فى حدود معينة حيث يعرف اقارب الدم بأنهم الأشخاص الذين ينحدرون عن نفس السلف سواء من خلال خط الذكور أو الاناث، وبين أقارب الدم يتمايز الأقارب العاصبون Agnates لانحدارهم خلال خط الذكورة فقط ، كما تتميز القرابة الأموية ، التى تقوم على الانحدار فى خط الاناث فقط ، وتنشأ علاقات المصاهرة عن الزواج ، وهى تربط الزوج ذكرا كان أو

(١) احمد أبو زيد ، البناء الاجتماعى (الانساق) الهيئة المصرية العامة للكتاب ، الاسكندرية ، ص ٣٠٨.

أنثى بأقاب زوجه ، ويستخدم مصطلح القرابة اختصارا لنسق القرابة والمصاهرة، للتعبير عن الأعراف الاجتماعية المرية فى السلوك المتبادل بين الاشخاص الذين تربط بينهم روابط القرابة والمصاهرة (١) .

وأهميــة النســق القرابى كأحد الأنساق الرئيسية فى البناء الاجتماعى ترجع الى تأثيره الواضح على أشكال الزواج السائدة فـي المجتمع ، سـواء الـزواج بين الأقـارب، أو الزواج الاغترابى ، كمـا أن العلاقات القرابية تحدد اتجـاه نمـط الزواج بين الأقـارب ، وذلك مـن خلال تفضيـل الاختيـار الزواجى مـن أقارب الأب أو الاتجـاه للزواج من أقارب الأم ، كما أنه يرتبط بكل المجالات والانشطة الاجتماعية فى المجتمع وخاصة المجتمعات التقليدية كالريفية والبدوية .

وتوضح الدراسات المختلفة للمجتمع العربى القديم وجود تناقض بين الفكرة التى مؤداها ان وحدة القبيلة العربية تنبع من القرابة العاصبة لأعضائها، وبين ادراك ان الجماعة القرابية يمكن أن تقوم على الروابط الاختيارية خارج مجال قرابة الدم والعصب مثل الشكال المختلفة للتبنى ، وقسم الاخوة الذى يسهم فى ايجاد الشرعية فى خط الذكور ، أو التكريس للعلاقات المساوية من غير الأقارب مما أدى الى ظهور الزواج بين أبناء العمومة المتوازية فى البيئة العربية كتعبير مثالى فى مواجهة هذه الممارسات (٢) .

وتنتقل النظريات التى تتناول المصاهرة والقرابة عند تحليلها البنائى للنسق القرابى للمجتمع العربى (البدوى) من الزواج الاغترابى وزواج أبناء العمومة

---

(١) محمد عبده محجوب ، طرق البحث الانثروبولوجى (النسق القرابى) ، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية ، ١٩٨٥ ، ص ٣٢ - ٣٣.

(2) Contem edouard, Fictive Kinship and Marriage in Old Arabia, in L'Homme, 17,2, Frqnce, 1987, (Abstract of Journal artical) pp. 119 - 120.

والخؤولة المتقاطعة ، والتبادل غير المتجانس Asymmetric الى الزواج الاضوائى وزواج أبناء العمومة الخؤولة المتوازية والتبادل المتجانس -Symmet ric وتتميز القرابة المتوازية فى وحدة النسب التى تختلف عن القرابة المتقاطعة فى وحدة نسب أخرى، وهذا التمييز يتطابق مع الممارسة العربية للانشقاق والالتحام للجماعات القرابية [(١)] .

ولقد أمكن لبعض علماء الانثروبولوجيا الاسهام فى نظريات القرابة مثل راد كليف براون Radcliffe Brown فى نظريته عن مكانة الخال وكذلك نظريته عن «علاقات التحاشى» ، وليفى ستروس Levi Strauss ، الذى وضع نظرية عامة فى القرابة ضمها كتابه الضخم عن «الأبنية الأولية للقرابة».

راد كليف براون Radcliffe - Brown

أدت نظرية القرابة لرادكليف بروان ، دورا هاما فى دراسة بعض نظم القرابة ، من خلال منهجه التحليلى ، حيث يرى ان نسق القرابة والزواج يعنى الترتيب الذى يجعل الاشخاص قادرين على المعيشة معا ، ومعاونة بعضهم البعض، في حياة اجتماعية منظمة ، ويمكننا دراسة أى نسق فى وقت معين، من خلال الاهتمام بكيفية ارتباط الاشخاص معا ومن خلال التقارب فى الاهتمامات والمشاعر ، ومدى اسهام النسق فى التحكم فى الصراعات ، أو تحديدها ، التى تنشأ نتيجة اختلاف تلك الاهتمامات أو المشاعر ، وهو ما يعنى به راد كليف

(1) Brown, Cecil & Sowayan, Saad; "Descent and Alliance in an Endogamous Society", in Journal of Social Sicences, 16. S. Netherlands. 1979, p. 27.

بروان الوظيفية الاجتماعية [١] .

ومن خلال هذا المنهج التحليلى يذكر راد كليف بروان ، أنه يمكن تحليل نسق القرابة الى جميع النظم الفرعية التى تدخل فيه ، وعن طريقه ايضا يمكن الكشف عن شبكة العلاقات التى تربط الأفراد ، داخل النسق الكلى ، وفى الوقت ذاته لابد من الاعتماد على المقارنة ، فهو يرى أن طريقة التحليل والمقارنة ، هى الطريقة الأجدى فى دراسة أنساق القرابة ، وكان ينفى استخدام منهج التاريخ الظنى ، على اعتبار انه لا يستند الى حقائق ووقائع يقينة ، فلم يعترض على التاريخ ذاته ، بقدر ما اعترض على الظن والتخمين [٢] .

ويرى راد كليف بروان Radcliffe - Brown انه يجب تجنب استخدام قرابة العصب Consanguinity مرادفا للقرابة ، لأ المفهوم الأول ، يشير الى علاقة فيريقية (جسمانية) ، بينما القرابة تتناولها كعلاقة اجتماعية محددة. ويتضح هذا الاختلاف اذا نظرنا الى مفهوم «الاب» نجده غامضا ، حيث من المفروض ان تتطابق العلاقة الاجتماعية مع العلاقة البيولوجية بين الأب والابن ، ولكن ليس من الضرورى ان يجتمعا معا فى كل الظروف لان العلاقة الاجتماعية قد تكون بين الوالد وطفل بالتبنى ، كما يحدث فى بعض المجتمعات الغربية، وكما فى بعض المجتمعات الافريقية نجد ان المرأة قد تتزوج امرأة اخرى تبعا للطقوس السائدة ، وتكون بمثابة الوالد بالنسبة للطفل ، بينما والده الفيزيقى رجل آخر .

والقرابة عند رادكليف براون هي العلاقة الاجتماعية بين الوالدين والأبناء (التى ليست شرط تطابقها مع الأبوة البيولوجى) [٣] .

---

(1) Brown , Radcliffe, African systems of Kinship and Marriage, Oxfored University Press, London, 1960, p. 3.

(٢) فادية فؤاد ، نظرية القرابة عند ليفى ستروس ، مرجع سابق ، ص ٢٧ .

(3) Brown, R. op.cit., p. 4.

وتنشـــأ شبكة العلاقات الاجتماعيــة ، من منطلق أن الشخـــص ينتمى الى أســرتين، الأولـــى كــابن وأخ، والثـانيــة كـــزوج وأب ، وتشـمــل تلك العلاقات كلا من العلاقات القرابية وعلاقات المصاهرة الناتج عن زواجه وزيجات آقاربه .

ويتحدد نسق القرابة تبعا للمدى الذى يمكن التعرف من خلاله على العلاقات القرابية ، حيث ان الاختلافات بين الانساق القرابية ذات المدى المتسع ، والأنساق ذات المدى الضـيق هامـة جدا فى تصنيف أنسـاق القرابة فـمـثـلا فى المجتـمع الانجليزى نسق القرابة ضيق المدى بينما في الصين نسق العلاقات القرابية متسع المدى [1] .

كمـا نلاحـــظ ذلك فـــى المجتـمعـات الريفيـة والبـدوية التى تتـمـيـز بالمدى المتسع من العلاقات القرابيـــة بينمـا فى المجتمعات الحضــرية ، وخاصـــة المدن نجـــد أن الأنساق القرابيـــة ذات المدى الضيق ، بحيث تتميز المجتمعات الاولى بتفضيل العائلة الممتدة، والاقامة المشتركة ، والتعاون فى النشاط الاقتصادى بينما المجتمعات الثانية نجد أن علاقـاتهـــا الخارجية محدودة ، نتيجة ظروف العمل وكثرة التنقل والظروف الاقتصادية، والاستقلال في المعيشة ، والميل للأسرة النواة .

ويرى راد كليف براون أن أول خطوة فى دراسة نسق القرابة هو التعرف على المصطلحات القرابية، حيث يجب عند أي مناقشة علمية عن القرابة أن نستخدم مصطلحات مـركبـة أكـثـر دقـة مـثل شـقـيق الأم أو ابن شقـيـق الأب ، بدلا من المصطلحات الغامضة «خال أو عم» .

فنجد فى كثير من الانساق المتعلقة بالقرابة يستخدم مصطلح واحد لنوعية أو أكثر من الاقارب الموجدين فى فئة واحدة، ففى النسق القرابى الانجليزى مثلا

---

(1) Ibid., p. 5.

Uncle عم أو خال تستخدم لشقيق الأم وشقيق الأب وكذلك زوج الخالة أو زوج العمة ، وكذلك بنت العم أو بنت الخال Cousin وغيرها من المصطلحات القرابية، وهذا يرجع الى النسب الثنائي ، حيث لا يوجد تمييز بين هذين النوعين من الاقارب ، فالعلاقة القانونية فيما عدا الوراثة والنباله هى نفسها لابن الأخ أو ابن الأخت مثلا [1] .

ويختلف الأمر فى النسق القرابى للمجتمعات العربية حيث نجد هناك تمييزا في المصطلحات القرابية «كالخال» أو «العم» وابن العم ، «وابن الخال» ويرجع ذلك الى النسب الأحادى فى تلك المجتمعات وبالتالى نجد تمييزا بين القرابة الأبوية والقرابة الامومية فى المصطلحات القرابية .

وخلاصة القول أن نظرية القرابة عند راد كليف براون لعبت دورا هاما فى دراسة بعض النظم القرابية، وقد اعتمد رادكليف براون على المنهج التحليلى والمقارن فى دراسة النظم القرابية ، حيث يمكن من خلاله تحليل نسق القرابة الى نظم فرعية للكشف عن شبكة العلاقات التى تربط الافراد داخل النسق .

كما اعترض راد كليف براون على الخلط بين مفهومى قرابة الدم والقرابة، فالأول يشير الى علاقة بيولوجية ، والثانى يشير الى علاقة اجتماعية مثل الابوة البيولوجية ، والأبوة الاجتماعية لابن بالتبنى ، كما استخدم رادكليف براون مدى العلاقات القرابية فى تصنيف الأنساق القرابية، فالمجتمعات الغربية كالانجليز ذات مدى ضيق والمجتمعات الشرقية كالصين ذات مدى متسع ، كما اعطى براون أهمية كبيرة للمصطلحات القرابية، وتعد الأسرة الأولية هى الوحدة الأساسية للبناد القرابى عند راد كليف براون ، أى أن علاقات القرابة والمصاهرة لأى شخص يمكن تتبعها من خلال ارتباطاته بوالديه وأخوته وقرينه وأبنائه .

ليفي ستروس Levi Strauss

لقد وضع ليفى ستروس نظرية عامة فى القرابة ، ضمنها كتابه الهام من.

(1) Ibid., p.7.

«الأبنية الأولية للقرابة » The Elementary structures of Kinship حيث يرى أن الأبنية الأولية للقرابة تظهر على العموم من تفضيل الزواج من أشخاص تقوم بينهم روابط الدم كما فى الزواج بين أبناء العمومة أو الخؤولة المتقاطعة ، أى أن لها أساسا بيولوجيا ، بينما الزواج من أشخاص غير مرتبطين برابطة الدم يكون الدافع اليه اسباب اقتصادية وسياسية واجتماعية فانه ينتمى الى الابنية المعقدة للقرابة .

ويرى ليفى ستروس أن البناء القرابى يقوم على ثلاث انماط للعلاقات العائلية، وهى : علاقة الدم ، علاقة المصاهرة ، علاقة النسب أو الأصل. ويتبع ليفى ستروس فرويد Friued فى تأكيده ، على أن تحريم الزنا بالمحارم هو حجر الزاوية في المجتمع البشرى ، ولقد اعتمد فى تفسيره ذلك على النظرية الداروينية الاجتماعية التى ساعد على ظهورها فى القرن التاسع عشر العالم الانثروبولوجى ادوارد تايلور [1] .

ولقد طبق «ليفى ستروس» المنهج البنائى على نسق القرابة حيث أشار الى هذا النسق على أنه شبيه بالنسق اللغوى فهو يرى أن الأفراد الداخلين فى علاقة القرابة شأنهم تماما شأن الوحدات الصوتية Phonemes فهم عناصر لها وظائفها داخل النسق الكلى وأنها لا تكتسب وظائفها الا بتكاملها مع النظم الاخرى داخل ذلك النسق ، وكما فى النسق اللغوى علاقات تبادلية وهى تبادل الاشارات والعلامات يوجد داخل النسق القرابى ايضا علاقات تبادل وهي تبادل النساء من مجتمع لآخر ومن جماعة لأخرى [2]. ولقد أعطى ليفى ستروس للزواج بين أبناء العمومة والخؤولة أهمية كبيرة حيث يعد البناد الأول للتبادل على

.(1) Leach. Edmund, Levi Strauss, Wm. Collins & Colted., London, 1972, p. 101-103.

(٢) فادية فؤاد ، نظرية القرابة عند ليفى ستروس ، مرجع سابق ، ص ٥٤ .

أساس انه من الأشكال المفضلة للزواج فى مجتمعات عديدة ، ولقد أوضح ليفى ستروس أصل زواج أبناء العمومة والخؤولة المتقاطعة بتساؤل ، اذا لم يكن زواج أبناء العمومة والخؤولة المتقاطعة نتيجة لنظام ثنائى فما هو الأصل الحقيقى؟ لقد افترض سوانتون Swanton أن أصل هذا الشكل من الزواج يرجع الى الرغبة فى المحافظة على الممتلكات الأكثر قيمة داخل العائلة ، أى انه ربط بين الزواج من ابناء العمومة والخؤولة المتقاطعة وبين الرغبة فى المحافظة على ممتلكات العائلة وثروتها كالأراضى والعقارات وعدم توزيعها بين أبناء الزواج من غير الأقارب .

ويرى ليفى ستروس Levi Strauss ان هناك بعض التحفظات على هذا التفسير فإذا كان معقولا بالنسبة لقبائل كولومبيا Columiba البريطانية أو الهندية ، فالى أى حد يشمل ذلك التفسير الجماعات شبه الرعوية -Semi Nomadic فى اقليم Nambikwara فى غرب البرازيل حيث يفتقر أعضاؤها الى السلع المادية والى المكانة الاجتماعية التى يمكن أن يرثها الاحفاد منهم .

أى أنه يجب ان يوجد اسباب أخرى للزواج بين أبناء العمومة أو الخؤولة المتقاطعة غير المحافظة على ممتلكات العائلة وثروتها .

ويرى ليفى ستروس أن أسباب الزواج من أبناء العمومة أو الخؤولة المتقاطعة ليست متشابهة فى المجتمعات المختلفة.

ولقد توصل لووى Lowie فى نهاية تحليله لهذا الشكل من الزواج الى أنه ليس ظاهرة تطورت من سبب واحد ولكنها ظاهرة نشأت مستقلة بدوافع وأسباب مختلفة .

وينتهى ليفى ستروس الى اعتباره الشكل الأول للتبادل بالاضافة الى أنه

الشكل المفضل للزواج [1]. ولقد أقام نظرية القرابة على أساس التبادل فالتبادل عند ليفى ستروس ينقسم الى نعين : (١) التبادل المحدد (المقيد) ، (٢) التبادل العام. ويحدد ليفى ستروس نسق التبادل المحدد حين يذهب الى أن هناك التزاما على الفرد يجعله يختار زوجته عن طريق التبادل المباشر للنساء بين الجماعات. ويرى ليفى ستروس ان المثال البسيط للتبادل المحدد هو أن يتم التبادل فى حدود جماعتى (أ، ب) مثلا بالتناوب ، فاذا تزوج رجال الجماعة (أ) من نساء الجماعة (ب) فان رجال الجماعة (ب) سوف يتروجون من نساء الجماعة (أ) فنسق التبادل المحدد يتم بين جماعتين فقط فى دائرة محددة عن طريق التناول أو الأخذ والعطاء ، ومن ثم يعد تبادلا مباشرا يفضل القائمون به عدم التبادل مع الاطراف الاخرى الموجودة فى المجتمع فلا يأنذون منهم أو يعطونهم .

ومن ناحية أخرى ، فان مبدأ الأخذ والعطاء أو تبادل النساء فى نسق التبادل العام يأخذ الشكل التالى : اذا تزوج رجال الجماعة (أ) من نساء الجماعة (ب) فان رجال الجماعة (ب) يتزوجون من نساء الجماعة (جـ) على أن يتم زواج رجال الجماعة (جـ) من نساء الجماعة (د) ويتزوج رجال الجماعة (د) من نساد الجماعة (أ) وهكذا أى أن التبادل غير مباشر . ولقد وجد ليفى ستروس أن كل نمط من أنماط التبادل المحدد والعام – يرتبط بشكل معين من زواج ابناء العمومة الخؤولة [2] . الا أن التبادل المحدد مرتبط بزواج أبناء العمومة المتقاطعة المنتظم، أى الثنائى * قد جاء متطورا عن التبادل العام ، الذى يرتبط بزواج ابناد

---

(1) Levi Strauss, C., The Elementary Structures of Kinship (Translated by Rodney Needham), Eyre & Spottiswoode, London, 1979, p. 123.

(٢) فادية فؤاد ، نظرية القرابة عند ليفى ستروس (مرجع سابق ، ص ٩٢ ، ٩٤.

* الانساق الثنائية للنسب ويكون فيها الانتساب الى كل من الأم وأقاربها والزب وأقاربه والتي تسمى بالانساق المنتظمة أو غير المتباينة .

العمومة غير المنتظم ، أي الاحادى .

ويمكننا تلخيص نظرية القرابة عند ليفى ستروس ، فى عدة نقاط رئيسية - فلقد وضع ليفى ستروس نظرية عامة للقرابة ، فى كتابه الأبنية الأولية للقرابة، الذى يعد من أهم كتب القرابة في العلوم الاجتماعية - كما قسم أسلوب الاختيار الزواجي ، تبعا للبنية القرابية فالزواج من أبناء العمومة والخؤولة ، ينتمى الى الابنية الأولية للقرابة، أى على أساس بيولوجى ، بينما الاختيار الزواجي لأسباب اقتصادية واجتماعية ينتمى الى الأبنية المعقدة للقرابة .

- يرى ليفى ستروس ، أن البناء القرابى ، يقوم على ثلاثة أنماط للعلاقات العائلية ، علاقة الدم ، علاقة المصاهرة ، علاقة النسب .

- يعتبر ليفى ستروس الزواج بين أبناء العمومة والخؤولة المتقاطعة ، الشكل الاول للتبادل ، والشكل المفضل للزواج ، لقد أقام نظرية القرابة على اساس التبادل (المحدد - العام) .

علاقة البناء الاجتماعي ببنية الأسرة :

ان الدراسات الاجتماعية التى تناولت البناء العائلى ، أو العلاقات الاجتماعية بين اعضاء العائلة ، ركزت على علاقة البناء بالنظم الاجتماعية المكونة للبناء الاجتماعى للمجتمع ، كما اهتم بالعديد من الابحاث الحديثة بدراسة الاختلافات فى بناء العائلة داخل المجتمعات [1] .

---

(1) Smith, Raymond, T. The Family, in International Encycloedia of Social Science, London, 1972, p. 308.

وتعتبر نواحي الاختلاف في بنية الأسرة ، ونظم الانحدار القرابى والزواج والمصاهرة والنسق القرابى بوجه عام فى المجتمعات والثقافات المختلفة ، من أهم مقومات التمايز الذى يقوم عليها تنميطها فى فئات متمايزة ، والواقع ان الاختلافات الواضحة في وظائف الاسرة وبنيتها ، ووضع الرجل والمرأة ، تعتبر من أهم مقومات التمايز ، بين الأنماط المجتمعية البدوية والريفية والحضرية الصناعية ، كما ان الظروف الثقافية والاقتصادية والسياسية السائدة فى المجتمع، تنعكس الى حد بعيد فى تلك الوظائف [1] .

والعائلة كوحدة بنائية تتكون من. رجل وامرأة يرتبطان فى اطارها بعلاقة شرعية بالاضافة الى أطفالهما الذين يمثلون محصلة بيولوجية للزوجية ولقد اتفق اغلب علماء الاجتماع والانثروبولوجيا على أن الأسرة او العائلة تعد نقطة مرجعية ثابتة للتحليل المنهجى [2] .

كما اعتبر رادكليف براون الأسرة الأولية Elementary Family هى الوحدة البنائية للنسق القرابى فى منهجه التحليلى والمقارن وهو يميز بين الأسرة الممتدة ، ابوية النسب ، والتى تتكون من خلال استمرار الأبناء فى عائلة أبيهم، ويجلبون زوجاتهم للمعيشة معهم، وكذلك أبناء هذا الزواج ، وكذلك بين الأسرة الممتدة أمومية النسب كما فى Bemba فى شمال روديسيا حيث تتكون من الرجل وزوجته وبناتها وازواج هؤلاء البنات وأطفالهم ، وتتكون جماعات جديدة لنفس النمط عندما يحصل الرجل على اذن بترك حماته وحميه ويأخذ معه زوجته وأبنائه . وهناك نمط آخر للجماعات الأسدية يظهر فى مجتمعنا وهو الأسرة المركبة وهى تتكون عندما يدخل الأرمل أو الارملة الذين لديهم ابناء من الزواج

---

(١) محمد عبده محجوب ، انثروبولوجيا الزواج والأسرة والقرابة ، ص ٣٣.

(2) Bell, Norman & Vogel Ezra, The Family, The fee Press of Glencoe, U.S.A., 1960, p. 2.

السابق، فى زواج جديد ، يولد فيه أبناء ، وينتج عنه علاقات قرابية ، مثل أخوة غير أشقاء وزوج الأم أو زوجة الاب وابن الزوج او الزوجة من زواج سابق .

كما تتكون الأسر المركبة فى المجتمعات التى تسمح بتعدد الزوجات ، عندما يكون للرجل زوجتان او أكثر ولديهم أبناء حيث أن الفارق بين الاخوة الأشقاء والأخوة غير الاشقاء فارق اجتماعى هام (1) .

ويرى رادكليف براون ان انتماء الشخص الى الاسرة سواء اسرة التوجيه التى تتكون منه واخوته واخواته ووالديه ويتم فى اطارها تنشئته اجتماعيا، ام اسرة الانجاب التى تتكون منه والزوجة والأبناء ، ينشىء شبكة من العلاقات القرابية يتحدد من خلالها نسق القرابة ، وكمايرى پل وفوجل فأن العائلة تعد نسق فرعى فى نسق أكبر كنسق القرابة .

متطلبات نسق الاسرة :

يرى بارسونز أن الانساق الاجتماعية ، وعلى رأسها الأسرة عليها متطلبات أساسية وهى التكيف Adaptation وتحقيق الهدف والتكامل Intergration والمحافظة على بقاء النمط Pattern Maintenancy وامتصاص التوتر ، يشير التكيف الى ضرورة تكيف الأسرة مع البيئة الاجتماعية والطبيعية التى تعيش فيها، اما تحقيق الهدف فيشير الى ان جميع الأنساق الاجتماعية بما فيها الاسرة فى حاجة الى سبب للبقاء أو للوجود وهذا يعنى وجود أهداف فردية وجمعية تشترك فيها الاسرة مع الأنساق الأخرى للمجتمع ، والتكامل يعنى العلاقة بين الانساق الفرعية داخل النسق الأكبر فالأسرة تشارك فى الانشطة الاجتماعية او الاقتصادية او الدينية فى الوقت الذى يمنح المجتمع المحلى الأسرة هويتها وكيانها ، كما انه يقوى روابط التمسك داخل الأسرة النواة ، اما المتطلب الاخير

---

(1) Brown, Radcliffe; African system of Kinship and Marriage; Oxford Univdrsity Press; London, 1960 pp. 5 - 6.

فهو المحافظة على بقاء النمط ، فالأسرة تصبح أصغر وحدة مسئولة عن المحافظة على نسق القيم ، الذى يتحدد عن طريق الدين ، أو الانساق التربوية ، فيتحكم فى تحديد انماط السلوك المرغوبة او الشرعية . ان الفشل فى انجاز هذه المتطلبات يؤدى الى تعرض نسق الأسرة ، بل والمجتمع بأسره الى الانهيار [١] .

أى أن الملامح العامة للحياة فى المجتمع الكبير ، انما تتشكل خيوطها الأولى فى داخل الأسرة من خلال التنشئة الاجتماعية التى تبدأ منذ مولدنا ، فندرك من خلالها توقعات مجتمعنا وخاصة المتعلقة بالزواج والأسرة على أنها طبيعية ، وتعد هذه التوقعات اطارا لعمل محدود لممارسة حياتنا العائلية، والزواجية ، فنحن عادة لا نعنى مدى صياغة المجتمع لنا وتأثيره على سلوكنا ، فالمجتمع والثقافة التى ننتمى اليها تقوم بتشكيل افكارنا ورغباتنا وتوقعاتنا [٢] .

وتأثير البناء الاجتماعى للمجتمع على الأسرة يتضح من خلال التنظيم الاجتماعى للزواج والقيود والمحرمات ، التى تفرضها على العلاقة الزوجية ، ونظم النسب وبالتالى شرعية نسب المواليد وقواعد اللاشرعية، ونظم القرابة واكتساب اسم الأسرة ، ونظم الملكية والمهنة والمكانة والهيبة والوصايا ونظم الاعالة، وتوزيع السلطة داخل الأسرة وخارجها ، وتقسيم العمل والنشاط الاقتصادى بين الرجل والمرأة وحقوق وواجبات الوالدين وغيرهم من الأقارب . تلك فقط طائفة من الأمثلة توضح لنا بعض مجالات تأثير المجتمع على الاسرة في جوانب حياتها - ومن المتوقع ان تتغير تلك الجوانب والأفكار مغ تغير البناء الاجتماعى العام للمجتمع ، ومع تغير ظروفها وأوضاعها الاقتصادية ، ونظام

---

(١) سناء الخولى ، الزواج والعلاقات الأسرية ، مرجع سابق ، ص ١١ - ١١٤ .
(2) Henalin, James, M. Marriage and Family in Change Society, A Division of Macmillan, Ino., N.Y. 1985, p. 6 0 7.

السلطة فيها وتغير ثقافتها الدينية ، فتلك العوامل مجتمعة هى التى تحدد مكانة الأسرة فى المجتمع (١) .

مما سبق نجد أن الدراسات الاجتماعية التى تناولت البناء العائلى ركزت على علاقة البناء بالنظم الاجتماعية المكونة للبناء الاجتماعى للمجتمع . حيث تتكون العائلة كوحدة بنائية من رجل وامرأة مرتبطين شرعا ، بالاضافة الى الابناء نتاج هذه العلاقة . من العلماء الذين اعتبروا الأسرة كوحدة بنائية فى النسق القرابى رادكليف براون ، وقد ميز بين الأسرة الممتدة والأبوية والأسرة الممتدة الأمومية والأسرة المركبة من خلال مدى العلاقات القرابية. كما يرى بارسونز أن هناك متطلبات أساسية للأنساق الاجتماعية ومنها نسق الأسرة وهو التكيف وتحقيق الهدف ، والتكامل ، والمحافظة على بقاء النمط ، وامتصاص التوتر ، وهو يرى أن أى فشل فى انجاز تلك المتطلبات يؤدى الى تعرض نسق الأسرة بل والمجتمع الى الانهيار . كما أوضحت الدراسات الاجتماعية ان مجالات تأثير المجتمع علي البناء الأسرى يختلف تبعا لتغير البناء الاجتماعى .

الأسرة والبناء الاجتماعي :

وسوف نتناول فى هذا الموضوع علاقة الأسرة بأنساق البناء الاحتماعى ، كالنسق الايكولوجى وعلاقته ببعض الامراض الوراثية المرتبطة بالمجتمع المحلى ثم النسق الاقتصادى وتأثير الاسرة فى المناشط الاقتصادية فى المجتمع وتأثرها بها ثم النسق القرابى والعلاقات القرابية التى تختلف فى مداه تبعا لحجم الأسرة باعتبارها الوحدة الاساسية للنسق القرابى ثم نسق الضبط الاجتماعى وتأثيره على الحياة الأسرية من منظور ان الاسرة هى الوحدة الاساسية للانساق الاجتماعية المكونة للبناء الاجتماعى .

---

(١) علياء شكرى ، الاتجاهات المعاصرة فى دراسة الأسرة ، مرجع سابق ، ص ٣٣ – ٣٤ .

النسق الايكولوجي :

ان باحثى علم الاجتماع والانثروبولوجيا الذين يدرسون البناء الاجتماعى للمجتمعات المحلية تتطلب دراستهم تناول تأثير البيئة على كل النظم الاجتماعية والاقتصادية السائدة فى المجتمع وسوف نتناول هذا التأثير فيما بعد الا أن ما يهمنا فى هذا الموضوع تأثير البيئة على البناء الأسرى حيث نجد ان اختلاف البناء الأسرى فى الريف والحضر يرجع الى اختلاف الظروف الخارجية المحيطة بكل منهما ، ففى المجتمع الصناعى تناولت يد الانسان البيئة الطبيعية بالتغيير والتبديل والحذف والاضافة . فأهل المدينة يعيشون فى بيئة شكلتها يد الانسان بما أنشأت من مساكن عصرية ومصانع آلية، وأدوات تكنولوجية حديثة أثرت على جوانب الحياة الأسرية ، بينما نجد ان البيئة الطبيعية ما زالت هى الشكل السائد فى المجتمع الريفى ، فالأرض لها المكانة الأولى لانها مصدر لرزقه ، ولهذا يظهر تقديسه لها وارتباطه بها ، وهى التى تشكل حياته من حيث بناء الأسرة وحجمها وكذلك الوظائف التى تقوم بها [١] .

لقد حدد فردريك لبلاى F. Leplay فى دراسته الشهيرة لأحوال الأسرة وميزانيتها وعن الاصلاح الاجتماعى وتنظيم العمل ، الاطار التصورى فى النظرة الى المجتمع الانسانى كنسق من العلاقات ، تمثل فيه الأسرة وحدة اجتماعية أساسية باعتبارها أبسط شكل من أشكال التجمعات الانسانية ، كما تتحدد فى النظرة الى الاسرة لا على أنها كيان مستقل بذاته ، بل فى ارتباطها بالبيئة ، تحدد شكلها وانماط سلوكها وتأثرها الدائم والمستقر بأشكال النشاط الاقتصادى والتنظيم المعيشى السائد ، ذلك ان من أهم وظائف الاسرة من وجهة نظره ، الحصول على أسباب العيش ، وتوفير سبله لاعضائها عن طريق «العمل» كما أن النمط المعيشى - فى نظره - يتحدد من خلال المكان وخصائصه وموارده ، اى من خلال الظروف الطبيعية والبيئة المحيطة [٢].

(١) سناء الخولى ، الأسرة فى عالم متغير ، مرجع سابق ، ص ١٣١.
(٢) السيد عبدالعاطى الايكولوجيا الاجتماعية ، دار المعرفة الجامعية ، الاسكندرية ١٩٨٤ ، ص ١٥١.

كما يمتد تأثير البيئة على الجانب الصحى للمجتمع وبالتالى على الأسرة كوحدة أساسية للمجتمع حيث وجدت العديد من الدراسات أن بعض الأمراض الوراثية ترجع الى أسباب بيئية .

كما تلعب البيئة دورا مهما فى تحديد الكثير من الصفات الجسمية والعقلية .

وتتميز المجتمعات التقليدية القروية والمجتمعات القبلية بالتناظر بين التوزيع الاقليمى والقرابى ذلك ان القيم الاجتماعية المختلفة التى تتعلق بموطن الاقامة والسكن ومبدأ القرابة والبدنة والتمايز فى الجنس والسن تلعب كلها دورا هاما فى وضع أسس التمييز بين الجماعات المختلفة وتوزيعها ، كما أن هذه التوزيعات الاقليمية والقرابية تساعد من الناحية الأخرى على فهم التقسيم الاقليمى والبعد البنائى بين هذه الجماعات ، وبذلك يكون القسم الاقليمى وحدة اقتصادية وقرابية وسياسية فى وقت واحد وكلما قويت روابط القرابة بين الجماعاتالعائلية تقاربت مساكنهم او تجاورت ، وربما كان السبب فى ذلك هو نظام الزواج الذى يقتضي من الابن ان يظل بعد الزواج فى بيت ابيه – حيث يسود نمط العائلة الممتدة – كما يلعب الزواج من ابنة العم دورا هاما فى هذا التكتل او التلازم بين القرابة العاصبة وتقارب المساكن فى المكان [1] .

النسق الاقتصادي :

ان النسق الاقتصادى فى أبسط معانيه يشير الى توفير السلع المادية اللازمة لاشباع الحاجات البيولوجية والاجتماعية ، وهذه امور عامة تشترك فيها جميع المجتمعات من مختلف المستويات الثقافية ، كما ان تحقيقها يتطلب توفر درجة

---

(١) احمد ابو زيد ، مرجع سابق ، ص ٧٥ ، ٧٦ .

معينة من التعاون المنهجى المنظم بين أفراد المجتمع لاستغلال موارد الطبيعة باستخدام بعض الاساليب ، والوسائل الفنية والالات والادوات التى تكفل تحقيق نتائج اقتصادية معينة بالذات (سواء أكانت هذه النتائج هي جمع الثمار او قنص الحيوان أو زراعة الحبوب او الصناعة اليدوية أو الآلية) ثم توزيع السلع المنتجة بعد ذلك ، وكل تلك العمليات الاقتصادية تتطلب قيام درجة معينة من التعاون والاعتماد المتبادل بين أفراد ذلك المجتمع حسب نمط معين من الحقوق والالتزامات [1] .

ان العلاقة بين العائلة والنسق الاقتصادى فى المجتمعات الريفية والبدوية يختلف عن تلك العلاقة فى المجتمعات الحضرية ، ففى المجتمعات الأولى نجد الاقتصاد الريفى تحكمه الثروة الزراعية والحيوانية ، بصفة رئيسية ، ويتصل عمل الأسرة فى القرية اتصالا مباشرا بانتاج هذه الثروة .

وأول ما يميز هذا النسق هو الاكتفاء الذاتى النسبى ، فدائرة الأسرة تمد أعضاءها بالجزء الاكبر من احتياجاتهم المادية والاجتماعية ، بينما تستمد الأسرة فى المدينة معظم احتياجاتها من الخارج ، كما يتميز العمل فى المجتمعات التقليدية بعدم التخصص ، فالعمل فى الزراعة يتطلب مهارات عديدة ، كما ان العامل ينتقل من عمل الى اخر تبعا لفصول السنة والزوجة الريفية تقوم بأعمال متعددة كالمساعدة فى الحقل وتغذية الماشية وحلب اللبن بالاضافة الى الاعمال المنزلية مثل الطبخ والغسيل بأنواعه وصناعة الخبز الى جانب انجاب ورعاية أكبر عدد من الاطفال [2].

وفى المجتمعات الحضرية تتمثل العلاقة بين الاسرة والنسق الاقتصادى فى تقديم اسهام في العمل من جانب اعضاء الاسرة فى مقابل الجزاءات التى تمنح

---

(١) احمد ابو زيد ، البناء الاجتماعى (الانساق) مرجع سابق ، ص ٩٢ .
(٢) سناء الخولى ، الاسرة فى عالم متغير ، مرجع سابق ، ص ص ١٣٢ . ١٣٣.

للخدمات ، كما ان اسرة التوجيه تساعد الفرد على اكتساب مهارات اساسية قبل ان يستطيع الدخول الى سوق العمل وامداده بالدافع الاساسى لاداء مهامه فى النسق الاقتصادى [١] .

ومما لا شك فيه ان الاسرة عند تكوينها تواجه عددا من القرارات الاقتصادية الهامة مثل مقدار العمل الواجب اداؤه ، والقوة المشاركة فى العمل كالزوج او الزوجة او احد الابناء سواء في المنزل او السوق ، كما يجب عليها ان تختار مجموعة من سلع السوق والتى ينتجها المنزل وتلك التى يجب ان تستهلكها وعدد الاطفال التى تنجبهم وتنشئتهم الاجتماعية ، وتتأثر كل تلك القرارات الاقتصادية بالتكاليف والمزايا المرتبطة بمختلف البدائل ، مثال ذلك ان الزوجة التى تترك عملها لترعى شئون اسرتها فان ذلك يمثل لها قيمة اكبر من مقدار الدخل الذى تكسبه من عملها . ولذا فانه من الصعب على الباحثين وخاصة علماء الاقتصاد تناول النسق الاقتصادى وفهمه دون الاهتمام بدراسة تأثيرات الاسرة [٢] .

النسق القرابي والبناد الاسري :

ان نسق القرابة يعنى عند رادكليف براون قيام علاقات مباشرة بين شخصين نتيجة انحدار أحداهما من الآخر كالحفيد ينحدر من الجد أو أن كليهما ينحدران من جد واحد مشترك سواء من خلال نسب الذكور او نسب الاناث [٣] .

وتعد الأسرة الأولية ، هى الوحدة الاساسية للبناء القرابى ، إى ان علاقات

---

(1) Bell, Norman & Vogel . Ezra; op.cit, pp. 12 - 13.
(2) Rossi, Allice, S., The Family; W.W. Norton & Company Inc. N.Y. 1987. p. 116,
(3) Brown, Radcliffe, op.cit., p.3.

القرابة والمصاهرة لأى شخص هى ارتباطات يمكن تتبعها من خلال والديه واخوته وقرينه وابنائه [1] . وتنشأ شبكة العلاقات الاجتماعية التى تربط أى شخص بالآخرين من خلال انتمائه الى اسرتين اسرة التوجيه كابن وأخ وأسرة الانجاب كزوج وأب .

وتمثل العائلة او الاسرة فى المجتمعات الريفية ، علاقة قرابة من الدرجة الاولى ، ولكن فى كل مجتمع من تلك المجتمعات ترتبط مجموعة من العائلات برباط اخر يعتبر علاقة قرابية من الدرجة الثانية ، وهو انتماؤهم جميعا الى أصل «جد أكبر» فيكونون فى هذه الحالة ما يسمى البدنه Lineage[2] .

والبدنة فى المجتمعات الريفية لا تختلف عن المجتمعات البدوية ، فهى تتكون من مجموعة من العائلات التى تنتمى الى جد مشترك وأصل واحد وعلى الرغم من ان العائلة وحدة أساسية فى البدنة ، الا ان نطاق العلاقات الاجتماعية بين أفراد العائلة أوسع واشمل بكثير منها داخل البدنة ، ذلك ان افراد العائلة مهما كبر حجمها يعرفون بعضهم بعضا ، يدخلون فى علاقات مباشرة ويؤلفون وحدة متعاونة ومتماسكة تتصرف ككل فى شئون الحياة اليومية وتظهر البدنة كوحدة متعاونة ومتضامنة فى مجالات عديدة تختلف عن العائلة مثل التعاون في الانشطة الاقتصادية والتساند وقت الشدة والأزمات [3] .

وتعتبر العائلة فى المجتمعات التقليدية ، الوحدة القرابية ذات الاجيال المتعددة التى يسود فيها الشعور بالمسئولية عن كل اعضائها ويعم مصدرها الاقتصادى على جميع افرادها ، حيث يكون فى يد كبيرها وصاحب السلطة بها ، وتمتد هذه الجماعة العائلية لاجيال من الابناء الاحياء الذين انفصلوا بعد وفاة كبيرهم واصبح كل منهم رئيسا لجماعته المنحدرة منه [4].

(1) Ibid., p. 5.

(٢) محمد عاطف غيث ، دراسات فى علم الاجتماع القروى ، مرج سابق ، ص ١٠٥ - ١٠٦.

(٣) احمد أبو زيد ، البناء الاجتماعى ، (الانساق) ، مرجع سابق ، ص ٣١٧.

(4) Hagen, E. E., The Theory of Scocial Change, Tavistock Publications,. London, 1946, p. 63.

(مقتبس من عليه حسين ، الواحات الخارجية ، الهيئة المصرية للكتاب ، الاسكندرية ، ١٩٧٥، ص ٢٩٦.

وتواجه الجماعة العائلية فى المجتمعات التقليدية مشاكل الحياة ، لا بالعلاقات القرابية وحدها وانما بالمساعدات المتبادلة بين اعضاء المجتمع المحلى كله، وتتفاوت أشكال المساعدات من مجتمع لآخر ،

النسق السياسي :

ان ابسط تعريف للسياسة هو «الصراع فى سبيل السلطة» والصراع يوجد فى كل الوحدات الاجتماعية بغير استثناء ، حتى فى العائلة التى تعتبر النواة الأولى للحياة الاجتماعية ، الا أن فكرة الأسرة ، والعائلة تتضمن فى الوقت ذاته، وفى كل المجتمعات المعروفة فكرة التماسك والتضامن والتعاون ، وهى كلها أمور تحتم على أفراد العائلة ، الاسراع بتسوية الخلافات والمنازعات ، والقضاء على سبيل الصراع ، دون تدخل طرف ثالث خارجى .

يميل بعض علماء الانثروبولوجيا الى القول بأن ميدان او دائرة السياسة يبدأ من حيث ينتهى ميدان أو دائرة القرابة ، وربما يكون التمييز سهلا وميسورا فى المجتمعات المتقدمه ، ولكن الأمر ليس كذلك في المجتمعات التقليدية ، وخاصة فى المجتمعات القبلية البسيطة أو الجماعات المتنقلة كالبدو والرحل ، والى حد أقل فى المجتمعات الفردية المستقرة الصغيرة [1] .

وتلعب الأسرة دورا هاما فى نسق الضبط الاجتماعى ، فهى مسئولة عن مدى التزام اعضائها لانماط السلوك والتقاليد والعرف السائدة فى المجتمع ، وتتحدد العلاقات داخل الاسرة وخارجها على اساس نظام السلطة القائمة فيها ، ويذهب علماء الاجتماع والانثروبولوجيا الى ان ثمة أربعة أنماط للسلطة الأسرية فى المجتمعات المختلفة ، النمط الأول السلطة الابوية وهى التى يكون للأب

) Brown, Radcliff; op.cit., 5 - 6.

سلطان واسع على زوجته أو زوجاته وابنائه وزوجاتهم وأولادهم ، وهو يتولى المسئولية الاجتماعية والاقتصادية عن أفراد الاسرة ، وتتمثل المسئولية الاقتصادية فى التزامات كبير العائلة بتوفير الاحتياجات الاساسية للاسرة ، وسداد الدين والتعويضات وتكاليف الزواج ، كما ان له الرأى النهائى فيما يتعلق بالبيع والشراء واستثمار العائد المادى للنشاط الاقتصادى ، اما المسئولية الاجتماعية تتمثل فى المحافظة على تماسك العائلة وحسم الخلافات بين اعضائها والفصل فى المنازعات وهذا النمط من السلطة يوجد فى اغلب المجتمعات التقليدية وخاصة الريفية والبدوية . النمط الثانى السلطة الامومية وتوجد فى الاسرة الامومية والنساء فى تلك يفضلن ارتباط ابنائهن بأخوالهن اكثر من ارتباطهم بأباءهم ولذا نجد ان دور الاب غائب عن النظام الاجتماعى فى تلك المجتمعات . والنمط الثالث السلطة البنوية التى يتولاها أحد الابناء وغالبا ما يكون الابن الاكبر وخاصة بعد وفاة الاب فيتولى الابن المسئولية الاجتماعية والاقتصادية للاسرة . النمط الرابع وهى التى تقوم علي المساواة فى اتخاذ القرارات لكل من الزوجين ، حيث ساعد خروج المرأة للعمل ومساهمتها فى دخل الاسرة على اكتسابها قوة أكبر فى اتخاذ القرارات الاقتصادية كما تأثر بناء السلطة فى الاسرة بعدة عوامل ومتغيرات اجتماعية متشابكة مثل درجة التعليم لكل من الزوجين والمرحلة التى تمر بها الاسرة والنسق القيمى العام للمجتمع [1] .

وأهمية الدور الذى تقوم به الاسرة الحضرية فى نسق الضبط الاجتماعى يكمن فى تنشئة الابناء على الامتثال للعرف والقوانين والتوافق مع الوضع السياسى القائم فى المجتمع ، ويرى بعض الباحثين ان النظام السياسى يستطيع الاستمرار اذا كان اعضاء الاسرة يؤمنون بشرعيته ويدينون له بالولاء [2] .

---

(١) نادية أحمد : اتخاذ القرارات فى الاسرة المصرية ، (رسالة دكتوراه غير منشورة) : كلية الاداب، جامعة الاسكندرية ، ١٩٩٥ ، ٢ ، ١٢٨ .

(٢) سناء الخولى ، الاسرة فى عالم متغير ، مرجع سابق ، ص ٨٨ .

أما في المجتمعات التقليدية وخاصة البدوية فتقوم العائلة بدور هام في النسق السياسي ، حيث تشرف على فض المنازعات والخلافات بين أعضائها، كما أنها مسئولة عن مناصرته ظالما أو مظلوما ودفع الالتزامات عنه كالديه او العقوبات المادية بالاضافة لالتزامات الزواج والمرض والوفاة وغيرها وذلك من خلال كبار العائلة حيث يقوم التنظيم السياسي على أساس التنظيم القرابي ، الذي ترتبط من خلاله الوحدة القرابية بالسلطة الابوية .

ويمكننا أن نخلص مما سبق إلى أن الدراسات الانثروبولوجية والاجتماعية التي تناولت البناء الاسرى ركزت على علاقته بالانساق الاجتماعية المكونة للمجتمع، وقد عرضنا لانعكاس المقومات الايكولوجية على البناء الاسرى ، وعلاقته بالنسق الاقتصادي ، ثم عرضنا لأهمية الاسرة كوحدة اساسية في النسق القرابي، والدور الذي تلعبه في النسق السياسي من خلال ممارسة الضبط الاجتماعي على أعضائها .

ولا شك ان خصائص الانساق الاجتماعية المكونة للبناء الاجتماعي هي التي تحدد الشكل أو النمط الذي تتخذه الأسرة في المجتمع سواء الاسرة النواة أو العائلة الممتدة أو العائلة المركبة ، تبعا لاختلاف البناء الاجتماعي في المجتمعات المتمايزة .

الانماط المتمايزة للأسرة :

يرجع الفضل للانثروبولوجيين ، في اكتشاف الاشكال المختلفة للاسرة، سواء الاسرة النواة Nuclear Family أم الاسرة الممتدة Extended Family أم الاسرة المركبة Comosite Family ، نظرا لاختلاف نظم القرابة في المجتمعات البدائية ، وتداخل العلاقات المترتبة علي ذلك ، الامر الذي جعلهم يجمعون هذه الاختلافات بنسبتها الى شكل أهم وهو البدنة Lineage أو العشيرة Clan [1] .

(١) محمد غاطف غيث ، دراسات في علم الاجتماع القروى ، دار النهضة العربية ، بيروت، ١٦٧ ، ص ١٠٤.

وقد قام ميردوك George Peter Miurdock بعمل مسح اجتماعى لمائتين وخمسين مجتمعا بشريا ، حيث قسم تلك المجتمعات الى ثلاث انماط متمايزة للبناء العائلى ، النمط الاول يضم الاسرة النواة ، أو ما يسمى الأسرة الاسرة الزواجية ، التى تتكون عادة من زوج وزوجة واحدة وأبنائهما - وان كان فى بعض الاحيان قد يقيم شخص اضافى معهم - النمط الثانى يتمثل فى العائلة الممتدة ذات الاقامة الابوية وهى تمثل رجلا اكبر سنا وزوجته او زوجاته ، وأبناءه غير المتزوجين والمتزوجين وزوجاتهم وأطفالهم . النمط الثالث هو العائلة التعددية ، والتى تتكون من اسرتين نوويتين لهما زوج وأب واحد ، حيث يجمعهما فى جماعة عائلية اكبر [1] ، ومن الطبيعى ان الاسرة النواة تصبح عائلة ممتدة اذا انتقلت من حالة البساطة الى حالة التعقيد بوجود اكثر من جيل واحد فيها ، اى بزواج أبن وبقائه معتمدا اجتماعيا واقتصاديا على والده .

الاسرة النواة :

يرى أغلب العلماء أن الاسرة النواة هى الشكل الاساسى من البناء العائلى وهى توجد فى كل المجمعات ، وتسمى أحيانا الاسرة الزواجية ، كما تعد وحدة بنائية تنبثق منها الاشكال العائلية المعقدة [2]، ولقد أكد بارستونز T. Parsons على أهميتها فى القيام بوظائف اساسية ، فيما يتعلق بالتنشئة الاجتماعية للاطفال وتحقيق الاستقرار والاتزان لشخصية البالغين . الا أن هذا الرأى له معارضون مثل ريموند سميث Rymond Smith وميردوك Murdock وليفى Levy وفالرز Fallers ، بالرغم من اتفاقهم مع بارسونز على أهمية الأسرة النواة فى تنظيم الاتصال الجنسى ورعاية الاطفال اجتماعيا بالاضافة للوظائف الأخرى للأسرة ، الا أن هذا الرأى من وجهة نظرهم لا يجعل الاسرة تعد شكلا عالميا حيث

(1) Benton , W. Family, in Encyclopedia Britania, V. 9, London, 1964,p. 154.

(1) Nobbs, J. & Others, Sociology; Macmillan Education' london, 1988, p. 48.

يرون ان الأسرة تقوم على شبكة من العلاقات المعقدة بين أفراد الأسرة سواء بين الزوج والزوجة أو بين الوالدين وأبنائهما او بين الآبناء انفسهم فكل تلك العلاقات تعتبر نظاما للتفاعل بين الأدوار المختلفة ، كما يمكن توزيعها بين عدد من الأفراد والجماعات والهيئات وقد أشار مالينوفسكى الى أن دور الاب يمكن ان يقوم به الخال فى المجتمعات الأموية، كما تقوم بدور الأم فى بعض المجتمعات بديلة الأم Mother Surrogates ، مثل الخالة والجدة للأم ، والحاضنات والمدرسات [1] .

الا أن اغلب دارسى علم الاجتماع يرون أن الأسرة أحد مقومات الوجود الاجتماعى فى المجتمع الانسانى ، وهى لذلك تعتبر نظاما عالميا ، اما ما غير عالمى فيها ، فهو شكلها الموجود فى مجتمع او آخر ، ومن مظاهر عالميتها ان كل مجتمع يجيز التزاوج بين الذكر والانثى مما يعطى الشرعية لميلاد الطفل ويتم هذا بطريقة معينة (تختلف من مجتمع لاخر) يحصل من خلالها الطفل على مركز معين وحقوق معينة ، كما تقع مسئولية رعايته على كاهل أشخاص معينين عليهم أن ينهضوا بها [2] .

أى أن الأسرة النواة يمكن تعريفها بأنها «وحدة بنائية مكونة من الزوج وزوجته وأبنائهما غير المتزوجين ، والمقيمين فى مسكن واحد ولهم معيشة مستقلة وهذه الأسرة تصبح ممتدة اذا تزوج أحد الأبناء واستمر فى الاقامة مع والديه والمعيشة مشتركة .

العائلة الممتدة :

لقد استخدم الدكتور عاطف غيث فى دراسته لقرية «القيطون» كلمة العائلة

(1) Smith, Raymond, T. The Eamily, op.cit., p. 303.

(١) سناء الخولى ، الزواج والعلاقات الأسرية ، دار المعرفة الجامعية ، الاسكندرية ١٩٩٠ ، ص ٤٢ - ٤٣.

فى مقابلة الكلمة الانجليزية Extended Family ، بصورة لا تختلف عن استخدام عمار لها فى قرية سلوا أو دوبيه في قرية شاميرت Shamitept فى الهند أو يانج فى قرية تايتو Taitou فى الصين لتشير الى الجماعة التى تقيم فى مسكن واحد ، وتتكون من. الزوج والزوجة وأولادهما الذكور والاناث غير المتزوجين والابناء المتزوجين وأطفالهم ، وغيرهم من الاقارب كالعم أو العمة والأرامل ، الذين يقيمون فى نفس المسكن ، ويعيشون حياة اجتماعية واقتصادية واحدة تحت اشراف رئيس العائلة (١) .

ومع اتساع نطاق العائلة الممتدة وزيادة أعضائها ، وإضافة زوجات للابناء فانها تصبح كبيرة جدا ، مما يضطر بعض اعضائها لتركها ، ليكونوا عائلات جديدة ، ويمتد مفهوم العائلة الممتدة ليشمل مجموعة من الأسرة الأسر قد لا تقيم فى مسكن مشترك ، ولكن عادة تسكن بالقرب من بعضها البعض وترتبط بسلسلة النسب والتى تسمى بدنه .

وفى دراسة قام بها انتونى باركر Anthony Barker فى اقليم ليسوثو Le-sotho جنوب افريقيا ، للعائلة الممتدة ، وجد أنها تشتمل على ثلاثة اجيال تنحدر من سلف واحد ، وتتمثل الأهمية الوظيفية للعائلة الممتدة ، فى انها توفر لاعضائها الأمن والأمان ، وخاصة أولئك الذين تعرضوا لظروف اجتماعية صعبة فهى تشمل بالرعاية الأطفال الذين أنجبهم والدان ضعيفان وتستقبل الأرملة التى فقدت زوجها ، وتتسامح مع المعتوه ، وتحترم كبار السن وتعطف على الصغار وتساعدهم على مواجهة مصاعب الحياة (٢) .

وتعد العائلة الممتدة من أهم السمات العامة التى تميز المجتمعات التقليدية

---

(١) محمد عاطف غيث ، علم الاجتماع القروى ، مرجع سابق ، ص ١٠٥ ، ١٠٦ .
(2) Murray, Collion, Families Divided, Cambridge University Press, London, 1981 , p. 101.

الريفية والبدوية - بمعنى أن الوحدة القرابية تتضامن فى اشباع الحاجات الاجتماعية لاعضائها مثلا فيما يتعلق بمظاهر التكافل أو التضامن الاقتصادى - أو فيما يتعلق بخضوعها لسلطة معينة تقسر أعضاء ها على الخضوع للقيم والمعايير المستقرة فى المجتمع ، أو فيما يتعلق بحقوق الوراثة وحقوق استغلال عناصر الثروة ، وان مدى تلك الوحدة القرابية يتعدى حدود العلاقة التى تقوم بين الزوج والزوجة وأبنائهما ويشمل عدد من الاجيال ينحدرون من سلف معين مشترك يعتبر هو المؤسس أو الجد الاكبر للاسرة ، كما يعتبر رمزا لتماسكها وتضامنها ووحدتها [1] ونجد فى العائلة الممتدة - وهو الشكل السائد فى تلك المجتمعات - ان الابن الذى يأتى بزوجته الى بيت ابيه حيث يعيش وينجب أولاده فى نفس البيت ، ينتمى الى أسرتين مختلفتين ، يؤدى فى كل منهما دورا مختلفا ويقوم بوظيفة متمايزة ، فهو ابن فى أسرة أبيه ولكنه «زوج» أو «أب» فى الأسرة التى يؤلفها . وذلك بعكس الحال فى العائلة المركبة حيث ينتمى الشخص حقا الى أسرتين مختلفتين ولكن يؤدى نفس الدور ويقوم بنفس الوظيفة، وهى وظيفة الزوج لأكثر من زوجة ووظيفة الأب لكل أبنائه من هؤلاء الزوجات [2] .

أما العائلة الأمومية الممتدة فهى تتكون من الرجل وزوجته وبناتهما وازواج هؤلاء البنات واطفالهما ، وهذا النمط سائد فى Bemba فى شمال روديسيا ، حيث تتكون جماعات جديدة من نفس هذا النمط مع نمو وتزايد العائلة الممتدة ويحصل الرجل على اذن بترك حماته وحميه ويأخذ زوجته وابنا ء ليكون عائلة أمومية ممتدة جديدة [3] .

(١) محمد عبده محجوب ، انثروبولوجيا المجتمعات البدوية، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، الاسكندرية ، ١٨١ ، ص ١٤٩ .

(٢) احمب ابو زيد ، البناء الاجتماعى (الجزء الثانى) ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، الاسكندرية ، ١٩٦٧ ، ص ٣١٥ ، ٣١٦.

(3) Brown, Radcliff. African System of Kinship and Marriage, op,cit., p. 6.

العائلة المركبة :

ويتكون هذا النمط فى المجتمعات التى تسمح بتعدد الزوجات لمثل المجتمعات الاسلامية والمجتمعات الشرقية والمجتمعات البسيطة - وهى تتألف من الرجل وزوجتيه أو زوجاته وأبنائه منهن ، وتتميز العاذلة المركبة عن الأسرة النواة فى وجود نوعين من الأخوة وهم الاشقاء الذين يشتركون فى نفس الأب والأم ، والأخوة غير الاشقاء اى الذين يشتركون فى أحد الوالدين سواء الاب او الام، والفارق بين النوعين فارق اجتماعى هام .

وفى المجتمعات الحضرية يظهر نمط العائلة المركبة فى حالة الزواج مرة أخرى مع وجود اطفال من الزيجة السابقة ، وينتج عن الزواج الجديد أبناء مكونين جميعا شبكة من العلاقات الاجتماعية المعقدة حيث نجد علاقة الاخوة الاشقاء غير الاشقاء والعلاقة بين زوجة الاب او زوج الام وابناء الزوج او الزوجة من زواج سابق [1].

ومن ذلك نجد ان الاسرة النواة هى الاساس التى تقوم عليها الانماط الاكثر تعقيدا من انماط العائلات وهى العائلة الممتدة سواء الابوية أو الامومية ، والعائلة المركبة سواء بتعدد الزوجات او بالزواج مرة أخرى مع وجود ابناء من الزيجة السابقة وانجاب ابناء من الزواج الجديد.

(1) Brown, Radcliffe, op.cit. p. 5.

الفصل السابع
الانثروبولوجيا واللغة *

* كتب هذا الفصل د. سامية على حسنين

الفصل السابع
الانثروبولوجيا واللغة*

ان اللغة اعظم انجاز بشرى ظهر على وجه الارض ، بها صار الانسان انسانا ، وقامت له مجتمعا وثقافة ، استخدمت اللغة للتعبير عنهما ، بحيث تلازم وجود اللغة مع وجود المجتمع والثقافة . ولقد تنبه العلماء الى ذلك الارتباط الوثيق بينهم ، وادركوا العلاقة التى تربط بين كل من اللغة والمجتمع والثقافة، وحاولوا الخوض فى ماهيتها من اجل القاء الضوء على ذلك التنوع الواضح بين اللغات . ولقد أثرت اللغة فى العصر الحديث بالبحوث التى دارت حول هذا الموضوع الحيوى والهام . كما ادرك العلماء ايضا العلاقة بين اللغة والنفس البشرية وتأثرها وأثرها بالخصائص العامة والجوهرية لتلك النفس البشرية ، وانعكاس ذلك على اللغة.

ونظرا لان علم اللغة Linguistics هو العلم الذى يدرس اللغة فى ذاتها ومن أجل ذاتها – على حد قول دى سوسير – للوصول الى بعض الحقائق او الخصائص التى تسلكها اللغات جميعا ، الا ان ماهية اللغة باعتبارها وسيلة هامة وفعالة للتعبير عن كل ما يدور فى مجتمعاتها وثقافاتها المختلفة، بل وسيلة فعالة أيضا للتعبير عما يدور فى الجنس البشرى كله بخصائص شعوبه المتشابهة والمتمايزة ، أدت الى صعوبة قصر الاهتمام بها علي اللغويين وحدهم ، وانما تطرق اليها اهتمام كثير من العلوم الانسانية الاخرى ، فتداخلت هذه العلوم وتشابكت معا .

ولقد أثمر هذا التداخل بين علم اللغة والعلوم الانسانية والاجتماعية الاخرى عن اعتبار اللغة أحد الميادين الهامة للدراسات الانثروبولوجية والاجتماعية،

* كتب هذا الفصل د . سامية علي حسنين .

تمخض عن ذلك ظهور فروع من العلم تحمل مسميات مختلفة تشير الى هذا التداخل، من أهمها «الانثروبولوجيا اللغويةLinguistics Anthropology و «علم اللغة الاجتماعىSociolinguistics .

والأنثروبولوجيا اللغوية Linguistics Anthropology تعد أحد الفروع الهامة للانثروبولوجيا الثقافية Cultural Anthropology والذى يفصح عن مجال التعاون بين كل من علم اللغة والانثروبولوجيا .

ويرجع اهتمام الانثروبولوجيين الثقافيين باللغة الى أنها تشكل عنصرا حيويا من عناصر الثقافة . والانثروبولوجيا الثقافية هى ذلك الفرع من الانثروبولوجيا العامة الذى يهتم بدراسة السلوك الانسانى فى ماضيه وحاضره ، ومن ثم فانها تهتم بوسيلة التعبير عن ذلك السلوك ، تلك الوسيلة الاولى للارتباط البشرى ونقل الافكار والتعبير عنها ، ونظرا لأن الانثروبولوجيا الثقافية تركزا اهتمامها على الثقافات المتباينة للجماعات المختلفة، وما تمد به الانسان من وسائل تمكنه من فهم جماعته المحلية أو الجماعات الاخرى المحيطة ، بما لها من خصائص اجتماعية فى بيئتها الطبيعة المتباينة ، لذا كان أحد أهداف الانثروبولوجيا الثقافية هو دراسة هذا التباين أو التشابه بين الثقافات . وفى ضوء هذا الهدف يحاول الانثروبولوجى المتخصص فى اللغويات Linguistics التعرف على الملامح المشتركة بين اللغات ، وفهم العمليات التى عن طريقها تتداخل اللغات وتتنوع وتختلف . فضلا عن اهتمامه الاساسى بالبحث عن أصل اللغات Origin of Languages وتعقيداتها وأشكالها الرمزية Symbolic Forms وباختصار فهو يحاول القاء الضوء على الدور الذى تلعبه اللغة فى الثقافات المتباينة ، والدور الذى تقوم به داخل الثقافة الواحدة والوصول الى الملامح المشتركة بين كل اللغات [١] .

---

(١) فاروق مصطفى اسماعيل ، ١٩٨٠ ، الانثروبولوجيا (الجزء الاول) ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، الاسكندرية ، ص ص ٢٨ وما بعدها.

اللغة والمجتمع والثقافة :

ان اللغة نمط عالمى تشترك فيه كل الثقافات بغض النظر عن درجة تلك الثقافات ، وذلك على حد قول «ويسلر» Wissler فى كتابه "Man and Culture" [1] حيث أدرجها ضمن الانماط العالمية التسع [2] القائمة فى كل الثقافات بدائية ومتقدمه ، بل وجعلها اول تلك الأنماط وربما أهمها .

والسبب في اعتبار اللغة نمطا عالميا موجودا عند شعوب العالم أجمع يرجع الى احتياج البشر جميعا لعملية الاتصال [3] ، حيث لا تستطيع اى جماعة مهما كانت درجة ثقافتها ان تعيش بلا لغة ، أى بلا وسيلة للتفاهم وتوصيل الافكار والمشاعر والانفعالات والتجارب والخبرات ، وسيلة للتعبير عن احتياجاتها ورغباتها ، حتى أدنى الجماعات الانسانية نجدها تملك لغة قادرة على اشباع احتياجاتها ، معبرة - من خلالها - عن كيانها وذاتها .

وتناول «ويسلر» لفكرة الأنماط العالمية لم تجعله يغفل عملية اختلاف الثقافات، اذ يذهب فى هذا الصدد الى القول بأنه على الرغم من وجود تلك الأنماط العالمية فى كل الثقافات الا أن الثقافات تتباين فى مضمونها [4].

---

(١) فتحية محمد ابراهيم ، ١٩٧٥ ، نظرية الصيغ الثقافية مع الاشارة بوجه خاص الى روث بندكت، (رسالة مقدمة لنيل دبلوم معهد العلوم الاجتماعية) ، كلية الآداب ، جامعة الاسكندرية ، غير منشورة ، ص ٦٣.

(٢) تناول ويسلر في نظريته «الأنماطالعالمية» Universal Patterns تسع انماط تشترك فيها كل الثقافات وهى : اللغة Language أو الكلام Speech والسمات المادية Material Traits والفن Art، والمعرفة Knowledge والشعائر او الممارسات الدينية Religious Practices والاسرة والنظم الاجتماعية Family & Social Systems والملكية Property والحكومة Government والحرب War

- انظر : نفس المرجع السابق ، ص ٦٥ .

Kroeber, A.L. 1948, Anthropology, IBH Publishing co., N,Y,. P. 311.

(٣) فتحية محمد ابراهيم ، نفس المرجع السابق ، ص ٦٣ .

(٤) نفس المرجع السابق ، ص ٦٢ .

وما ذهب اليه «ويسلر» فى الثقافة نذهب اليه فى اللغة باعتبارها أحد تلك الأنماط العالمية المشتركة في كل الثقافات . فعلى الرغم من وجود اللغة ظاهرة مشتركة فى كل الثقافات ، وعلى الرغم من وجود سمات أو خصائص جوهرية مشتركة ايضا فى كل اللغات أى سائدة بين سائر اللغات الانسانية. الا ان اللغات تتباين فى مضمونها الداخلى ، بحيث يمكن القول ان لغة مجتمع ما لا تصلح للتعبير عن مجتمع آخر ، اذ أن كل لغة تعبر عن المجتمع الذى توجد فيه وتتكيف مع احتياجاته وتعمل على اشباعها ، وتباين المضمون الداخلى للمجتمعات والثقافات يؤدى الى تباين المضمون الداخلى أيضا للغات .

مجمل القول : أن اللغة تختلف وتتشابه :

أولا : تختلف تبعا لاختلاف البيئة والثقافة ، فاللغة مرآه للمجتمع الذى تعيش فيه ، وليس هناك مجتمعان متشابهان كل التشابه ، وعلى ذلك فانه ليس هناك لغتان متشابهتان ايضا كل التشابه فلغة الأزاندى مثلا تختلف عن غيرها من اللغات كالانجليزية والعربية، بل انها تختلف ايضا عن غيرها من اللغات السودانية ذاتها ، على الرغم من أنها أحد تلك اللغات، هذا الاختلاف قد يكون فى قليل أو كثير الا انه قائم . فلغة الازاندى تعرب عن المجتمع الموجود فيه وتلائم احتياجاته بحيث يمكن القول انه لا الانجليزية ولا العربية تصلح للتعبير عن ذلك المجتمع ، كما لا تصلح اللغة الزاندية أيضا للتعبير عن رأى هذه المجتمعات ، وذلك لا يرد الى قصور فى الزاندية ولا تعقد او تقدم الانجليزية او العربية، وانما يرد الى ارتباط كل لغة بالبيئة والثقافة النابعة منها والمعبرة عنها .

ثانيا : اما عن التشابه بين اللغات فهو يتمثل في وجود عناصر أو مقولات عالمية تشترك فيها كل اللغات في مجالاتها المختلفة - صوتية وصرفية ونحوية ودلالية - ترجع فى بعض أسبابها الى الوحدة النفسية للجنس البشرى .

تعريف اللغة وطبيعتها :

لقد قام العديد من العلماء بتعريف اللغة تعريفات مختلفة وذلك من وجهات نظر متنوعة ، فهناك وجهة النظر الكلاسيكية [(١)] التى تعتبر اللغة مجرد اداة للتعبير عن الأفكار والمعانى والانفعالات والمشاعر . ولهذا المذهب الكلاسيكى فى النظرة للغة أنصار كثيرون منهم العالم الأمريكى الشهير «ادوارد سابير» حيث يعرف اللغة بأنها «وسيلة انسانية خالصة وغير غريزية اطلاقا لتوصيل الافكار والانفعالات والرغبات عن طريق نظام من الرموز التى تصدر بطريقة ارادية [(٢)] . ويرى سابير أن تلك الرموز الصوتية «اصطلاحية» [(٣)] .

وعلى الرغم من أن تعريف سابير للغة يندرج تحت التعريفات الكلاسيكية الا انه يعد من اكثر التعريفات التى يرتضيها عدد كبير من العلماء حيث تتناول الطبيعة الثقافية والاجتماعية للغة . ويحاول سابير أن يفسر قوله بأ «اللغة غير غريزية» أو «غير فطرية» فيقدم لذلك مثالا يقارن فيه بين اللغة كظاهرة اجتماعية مكتسبة وبين المشى كظاهرة عضوية ، فيقول ان الانسان من فرط تعوده على اللغة واستخدامه المتواصل لها ، يظن انه يتكلم كما يمشى ، أى ينظر الى عملية الكلام على انها ظاهرة طبيعية فيه ، ولكن سابير يؤكد على ان الكلام ليس كالمشى ، اذ أن المشى عملية عضوية فى الانسان تتحقق فى مرحلة معينة من.عمره حين تبلغ عضلاته من القوة ما يسمح له بالمشى ، أما الكلام فهو

---

(١) يرى اصحاب هذه النظرية الكلاسيكية للغة ان اللغة ليست اكثر من «مرآه ينعكس عليها الفكر» او «اداة عاكسة للفكر» او «وسيلة لتجسيم الفكر أو التعبير عنه» وأن الوظيفة الاساسية للغة هى أنها وسيلة من وسائل «الاتصال» أو «التوصيل» Communication أو «التعبير» Expression عن طريق الاصوات الكلامية ، وان ما توصله اللغة أو تنقله أو تعبر عنه هو الافكار والمعانى والانفعالات والرغبات (محمود السعران ١٩٥٨، اللغة والمجتمع: رأى ومنهج ، المطبعةالاهلية ، بنغازى ، ص ٥ .

(٢) نفس المرجع السابق ، ص ٤ .

(٣) حسن ظاظا ، ١٩٧١ ، اللسان والانسان: مدخل الى معرفة اللغة ، دار المعارف بمصر، ص ٢٨.

غير ذلك ، اذ انه لا يتم الا فى اطار المجتمع الذى يعيش فيه ويكتسب منه اللغة، واذا قدر لانسان ان يعيش وحيدا منعزلا فأنه سيمشى بلا شك ولكنه لن يتكلم ، اذ أن الكلام لا يتم الا فى احضان مجتمع يعيش فيه ويتفاهم مع أفراده ويتعلم منهم لغته [١] .

وتظهر أهمية تعريف سابير للغة فى كونه تعرض لطبيعة اللغة من حيث الاكتساب ، كما تعرض ايضا للجانب الوظيفى لها ، فضلا عن تناوله لطبيعتها الصوتية والاصطلاحية.

ومن التعريفات الكلاسيكية الأخرى للغة والتي تركز على وظيفتها وطبيعتها الاجتماعية تعريف اللغة بأنها نظام من الرموز يستخدم فى نقل وتوصيل الأخبار والمعلومات ويقصد «بالرموز» هنا أي نوع من الاصوات ، او الاشارات نخلع عليها معانى معينة نستخدمها فى الاشارة او الرموز الى اى شيء نريده [٢] .

ولقد كان للعلامة الانثروبولوجى البولندي مالينوفسكى Malinowski فضل كبير فى تغير النظرة الى اللغة . فلقد ادرك من خلال دراساته للمجتمعات البسيطة ان دراسته للغة فى تلك المجتمعات لن تصلح دون معرفة الوظيفة التى تقوم بها اللغة فى المجتمع ، ومن هنا كانت نظريته الهامة والتى أدت الى تغير النظرة للغة بعد النظرة الكلاسيكية التى سادت لفترة من الوقت [٣] . فلقد توصل «مالينوفسكى» من خلال دراسته للجماعات البسيطة التى درسها الى أن

---

(١) نفس المرجع السابق ، ص ص ٢٩ - ٣٠ .

(٢) Haviland , William, A., 1974, Anthropology, Holt Rinehart and Winston, Inc., N.Y, p. 87.

(٣) محمود السعران ، نفس المرجع السابق ، ص ٧.

دور اللغة يتحدد فى الاطار الوظيفى العام باعتبارها احدى حلقات السلوك الجماعي والنشاط الانسانى المنظم ، وبمعنى أدق ، نظر اليها نظرته الى «احدى ضروب العمل الجمعى» [1]أى انه رفض اعتبار اللغة مجرد وسيلة لنقل الافكار، وانما — هى من وجهة نظره — مرتبطة بالعمل ، واحدى انواعه . فاللغة كما يراها عند البدائيين هى التى تنظم اعمالهم الزراعية كتحديد رقعة الأرض التى تزرع ، وتعيين الحدود بين أرض الشخص وارض غيره .. الى غير ذلك ، فغاية الذين يتكلمون لغة أن تكون عملية بالنسبة لهم [2] .

ولعلماء العرب ايضا تعريفات بليغه للغة من افضل تلك التعريفات تعريف العالم العربى «ابو الفتح عثمان بن جنى» حيث عرف اللغة بأنها « أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم » وترجع أهمية هذا التعريف الى اهتمامه بتوضيح الطبيعة الصوتية للغة ، كما يوضح ايضا الوظيفة الاجتماعيها لها [3] ، أى الاطار الاجتماعى الذى توجد فيه حيث تشبع احتياجات الجماعة التى تتكلم بها ، ويختلف ذلك الاطار الاجتماعى من جماعة لآخرى مما يؤدى الى اختلاف اللغات وتنوعها .

فى الواقع ان هناك عددا لا حصر له من التعريفات للغة ، اكثرها اهمية بالنسبة لهذا البحث هي تلك التى تركز على الطبيعة الاجتماعية الاتصالية للغة، تلك التى تفسر اختلافات اللغات بعضها عن البعض ، ذلك الاختلاف الذي لا يرد الى قصور عقلى لاصحاب اللغات البيسطة ، كما لا يرد ايضا الى السمو او الرقى الفكرى والعقلى لأصحاب ما تسمى باللغات المتقدمة ، وانما يرد الى تلك

---

(١) احمد الخشاب ، دراسات انثروبولوجية ، دار المعارف بمصر ، ص ١٠٩.

(٢) على احمد عيسى ، ١٩٦١ ، المجتمع العربى : دراسات اجتماعية عملية، دار المعارف بمصر ، ص ١٠١.

(٣) توفيق محمد شاهين ، ١٩٨٠ ، أصول اللغة العربية بين الثنائية والثلاثية ، دار التضامن للطباعة، القاهرة ، الطبعة الاولى ، ص ٨.

الطبيعة الاجتماعية والثقافية والاصطلاحية للغة.

ولعل التعريف الذى أورده ابراهيم أنيس فى كتابه «اللغة بين القومية والعالمية» يمكن اعتباره تعريفا جامعا لما جاء فى غيره فى التعريفات ، حيث يعرف اللغة بأنها «نظام عرفى لرموز صوتية يستغلها الناس فى الاتصال بعضهم البعض» [1] . وذلك لما تضمنه من أمور هامة وأساسية فى النظرة للغة، وهى :

أولا : نظامية اللغة : فلكل لغة نظام صوتى ونحوى ودلالى تخضع له. هذا النظام اللغوى نجده فى اكثر اللغات بدائية، حيث وجد الباحثون درجة عالية من الدقة فى اللغات التى درسوها فى بعض جهات افريقيا ، وفى اكثر القبائل بدائية .

ثانيا : عرفية اللغة : اجمع اللغويون على ان اللغة يحكمها العرف الاجتماعى لا المنطق العقلى ، فليس هناك ما يفسر سبب اشارة كل كلمة فى كل لغة الى معنى معين ، ولماذا تأتلف كل كلمة من الاصوات المكونة لها دون غيرها ؟ لماذا تعرف بعض اللغات نوعين من الجنس هما المذكر والمؤنث ، وتعرف لغات اخرى ثلاث انواع منه هم المذكر والمؤنث والمحايد ؟ ولماذا تختلف الصيغ الدالة على الأزمنة من لغة لأخرى؟ تساؤلات عديدة تثار في الذهن لا توجد اجابة منصفة لها الا حينما نقول أن ذلك كله انما يرجع الى العرف والاصطلاح .

ثالثا : الاصوات : اي الطبيعة الصوتية للغة ، حيث تأتلف الاصوات معا مكونة كلمات ، وتتحد الكلمات معا مكونة جملا ، تلك هى الوسط الذى تنتقل من خلاله الافكار والاحاسيس ، تلك الاصوات ما هى الا رموز أحلها الانسان محل الأفكار والخواطر ، ولقد ارتبط الانسان بها على مر العصور وتآلف معها بحيث لم تعد لديه القدرة علي التفكير بدونها [2] .

---

(١) ابراهيم انيس ، ١٩٧٠ ، اللغة بين القومية والعالمية ، دار المعارف بمصر ، ص ١١ .

(٢) نفس المرجع السابق ، ص ص ١١ : ٢٠

رابعا : المجتمع الانسانى [1] : على الرغم من ان للانسان فى تركيبه الداخلى ما يساعده على ظهور اللغة والكلام ، وذلك ما أثبتته الدراسات البيولوجية التى اجريت في هذا الصدد ، اذ يذهب العالم البيولوجى Negus فى دراسته للتشريح الفسيولوجى المقارن عند الانسان والحيوان الى ان الحنجرة الانسانية مزودة بغضاريف قصيرة نسبيا تستطيع التحرك بسهولة لاحداث الصوت الانسانى [2]. الا ان ذلك الاستعداد البيولوجى وحده لا يعنى ان الكلام فطرى او غريزى ، اذا ان المقدرة البيولوجية وحدها لا تنتج لغة ، وانما لابد من وجود بيئة مصاحبة لها تنمو فيها تلك اللغة ، تلك البيئة هى المجتمع الذى تعيش فيه تلك اللغة .

خامسا : الوظيفة الاتصالية للغة : على الرغم من أن تلك الوظيفة الاتصالية للغة لم ترد فى عرض «ابراهيم انيس» للامور الهامة التى تضمنها تعريفه للغة الا انها وردت فى التعريف ذاته ، وهى عنصر يصعب اغفاله . فلقد ركز كثير من العلماء على تلك الوظيفة الاتصالية للغة ، فاللغة من أهم وسائل الاتصال بين الناس ، تعبر من خلالها عن الأفكار والانفعالات والرغبات، وذلك عن طريق رموز معينة يصطلح عليها افراد المجتمع بحيث يستخدمونها للتعبير عن احتياجاتهم وأفكارهم ومشاعرهم .

وتبدو أهمية تلك الوظيفة الاتصالية للغة - والتى تعبر عنها وجهة النظر الكلاسيكية - هنا - في أنها وظيفة تتسم بها كل اللغات الانسانية. فما من لغة الا وتعبر عن نفسها بطرق الاتصال فيها ، وما من جماعة بشرية تملك القدرة على التفاهم بين أعضائها الا من خلال تلك الوظيفة الاتصالية للغة.

---

(١) نفس المرجع السابق ، ص ٢٩.

(2) Lieberman, Philip, 1975, On The Origins of Language, Mac millan, N.Y. pp. 26 - 27.

يقول العالم اللغوى «مارتينه» [1] فى هذا الصدد أن وظيفة اللغة الاساسية عي التواصل ، وهذه الوظيفة تؤديها اللغات بصورة أساسية بالرغم من اختلاف بيئاتها وتباينها . ويضيف قائلا انه علي الرغم من كون عملية التواصل ليست هى الوظيفة الوحيدة للغة [2] ، الا انها من أهم تلك الوظائف ، فاللغة هى قبل كل شيء الاداة التى يتوسلها افراد المجتمع لاقامة الاتصال فيما بينهم [3] ، أو هى بمعنى اخر المظهر الاستعمالى الاساسى للغة والذى يظهر في كل اللغات الانسانية .

والواقع أن ذلك المظهر الاستعمالى للغة تتدخل فيه عدة عوامل أو محكات تؤثر فى استخدامنا للغة كوظيفة اتصال وتفاهم ، من هذه العوامل السن والجنس والمكانة الاجتماعية والمهنة والطبقة والموقف . حيث تعكس تلك العوامل نمط العلاقات الاجتماعية والتفاعل الاجتماعى القائم بين متكلمى اللغة الواحدة.

ولقد جذب موضوع التفاعل الاجتماعى والكلامى فى المجتمعات الانسانية المختلفة اهتمام علماء الانثروبولوجيا ، مما جعلهم يركزون اهتمامهم علي نماذج المخاطبة السائدة فى تلك المجتمعات كانعكاس للعلاقات الاجتماعية والبواعث الثقافية والشخصية السائدة فيها [4] .

---

(١) أندريه مارتينه ولد سنة ١٩٠٨ فى فرنسا ، وتخصص فى اللغات الالمانية ، ويشغل حاليا منصب مدير الدراسات الالسنية فى «معهد الدروس العليا » فى باريس ، (ميشال زكريا، ١٩٨٠، الألسنية (علم اللغة الحديث) : ميادنا واعلامها ، ص ٢٥٢). ميادنها.

(٢) للغة وظائف اخرى غير وظيفتها الاتصالية ، يميز منها جاكبسون R.Jackobson الوظيفة التعبيرية او الانفعالية ، الوظيفة الندائية ، حيث تستخدم فى الطلب او النداء ، والوظيفة المرجعية ، وهى الهدف الاساسى لعملية التواصل ذلك لاننا نتكلم بهدف الاشارة الى محتوى معين نترغب فى ايصاله للاخرين وتبادل الاراء معهم . فضلا عن وظيفتها الشعرية (انظر، نفس المرجع السابق ، ص ص ٥٣ - ٥٤).

(٣) نفس المرجع السابق ،ص ٢٥٣ .

(٤) محمود حمدي محمد عبدالغني ، ١٩٨٣ ، البناء اللغوى من منظور الانثروبولوجيا الثقافية، (رسالة ماجستير) كلية الآداب ، جامعة الاسكندرية، غير منشورة ، ص ١٢٦.

فلقد سلم العلماء بأن لكل مجتمع نسقا خاصا لانواع المخاطبة ، ولكل مجتمع معرفة خاصة بأنواع وبواعث الكلام بحيث تحتوى انماط المخاطبة فى أى مجتمع من المجتمعات الانسانية المنطق الخاص الذى يوجهها [1] .

والواقع ان انماط المخاطبة فى أى مجتمع انما ترتبط بعامل هام وهو نسق التوقعات السائد فى المجتمع [2] ، فالشاب انما يسلك سلوكا كلاميا معينا عندما يتحدث الى شاب مثله يختلف عن الأسلوب الذى ينبغى عليه ان يتكلمه حينما يتحدث الى من هو اكبر سنا منه ، كماأن أسلوب مخاطبة المرؤس لرئيسه تختلف عن أسلوب مخاطبة زملاء العمل الذين هم على درجة واجدة . واتباع كل فرد للنمط الكلامى المتوقع منه بتأثير المعايير المحددة لسلوكه الكلامى كالسن أو المكانة الاجتماعية او الجنس أو الصفة - انما يرتبط بنسق توقعات الاخرين منا وخصوصا ان الخروج عن هذه التوقعات يثير سخط الأخرين ويعد خرقا للمعايير الاجتماعية الواجب اتباعها فى المخاطبة . وعلى هذا يمكن القول انه فى اغلب المجتمعات الانسانية هناك اسلوب كلامى معين يخضع لمعايير ومحكات معينة يتبعها المتكلم ، ويسير وفقها نمط المخاطبة فى تلك المجتمعات .

ولقد اشار التراث الانثروبولوجى كثيرا الى أهمية المخاطبة عندما استنتج ان معظم المجتمعات الانسانية تضيف اهمية خاصة على اختلاف الدور والمكانة الاجتماعية وفقا للسن والجنس ، مما دعا الى قول سابير آن الوظيفة الاساسية للغة هى المخاطبة [3] . والواقع ان عملية الاختلاف أو التنوع اللغوى الذى يظهر داخل اللغة الواحدة نتيجة لتلك العوامل السابقة - السن والجنس - تعد من اكثر الموضوعات التى تجذب اهتمام علم اللغة الاجتماعى Sociolinguistics [4].

---

(١) نفس المرجع السابق ، ص ١٢٧.
(٢) نفس المرجع السابق ، ص ١٢٩ .
(٣) نفس المرجع السابق ، ص ١٢٧

(1) Haviland, Willian, A., op.cit., p. 98.

بل أن هناك الكثير من الدراسات الوصفية التى تهتم اهتماما خاصا بتلك النوعات اللغوية Linguistic Variables الموجودة داخل المجتمع ، ودراسة تلك التنوعات اللغوية داخل المتمع يمكن ان تلقى الضوء على المجتمع محل الدراسة ، وخصوصا انها تتم فى اطار مجالها الاجتماعى Social Space اكثر من مجالها الجغرافى Geographical Space [١].

والواقع ان انماط المخاطبة التى تظهر فى صورة تنوع لغوى او لهجات اجتماعية انما تعد أحد العوامل المشتركة فى آغلب اللغات الانسانية، فليس هناك لغة واحدة متجانسة ، يتكلم بها كل اعضاء المجتمع ، الكبير والصغير، الرئيس والمرؤس ، الرجل والمرأة ، الغنى والفقير ، الحزين والسعيد ، وانما تتنوع أساليب المخاطبة فى أغلب المجتمعات الانسانية، وان كان ذلك لا يسير على وتيرة واحدة فى كل المجتمعات ، ولكنه موجود بدرجات متفاوتة . يؤيد وجوده ما يذهب اليه كل من رالف بيلز وهارى هويجر في كتابهما «مقدمة فى الانثروبولوجيا العامة» حيث يقولان «انه من النادر أن يستعين مجتمع ما بلغة متطابقة تماما..» «وأنه لا توجد لغة واحدة مشتركة بين جميع المتكلمين » [٢]. أي أنه يصعب القول بأن اللغة الواحدة يتكلمها كل أفراد المجتمع بنفس الاسلوب ، وانما تتنوع وتظهر فى صورة اساليب مخاطبات أو لهجات اجتماعية متنوعة.

أما عن ماهية اللهجة الاجتماعية فيعرفها البعض بأنها لغة يتحدث بها جماعة من الناس داخل نطاق جماعة اكبر منهم ، بحيث يتحدث الجميع فى النهاية لغة واحدة تقريبا [٣] .

---

(1) Hynes, Dell, 1972, "Linguistics; The Field", In International Encyclopedia of Social Sciences, By, Sills, David, L. (ed)., Vol., 9 - 10, p. 361.

(٢) رالف بيلز، هارى هويجر ، ١٩٧٧ ، مقدمه فى الانثروبولوجيا العامة ، ترجمة د. محمد محمود الجوهرى ، د. السيد محمد الحسينى ، الجزء الثانى ، ص ٦٢٥.

(3) Haviland, William, A., op.cit., p. 98.

أما فى الاصطلاح العلمى الحديث فهى مجموعة من الصفات اللغوية تنتمى الى بيئة خاصة ، يشترك فى هذه الصفات اللغوية جميع أفراد هذه البيئة، وبيئة اللهجة هي جزء من بيئة أوسع وأشمل تضم عدة لهجات لكل منها خصائصها، ولكنها تشترك جميعا في مجموعة من الظواهر اللغوية التى تيسر عملية الاتصال بين افرادها (١) .

ودراسة اللهجات غالبا ما تركز على دراسة العادات الكلامية Speech hab-its للجماعة الاجتماعية Social group التى تختلف عن بقية المجتمع من حيث استخدامها للغة فى أسلوب يمكن أن يتميز عن المعيار المألوف (٢) .

مستويات اللغة :

كل لغة انسانية تتضمن مظاهر بنائية Structural Aspects ومظاهر دلالية Semantic aspects تجذب اهتمام العلماء اثناء تناولهم للغة فى ابحاثهم المختلفة . تتضمن الجوانب البنائية كل من الصوتيات Phonology والمورفولوجى Morphology والنظم syntax . أما الجوانب الدلالية فتتضمن نظاما خاصا من المعانى ، له تكوينه الداخلى غير المنفصل - الى حد ما - عن البنية اللغوية للغة ذاتها ، والمرتبط فى الوقت نفسه بالثقافة المعبر عنها(٣) .

تتنظم تلك المظاهر اللغوية البنائية والدلالية وفق مستويات معينة، اختلف العلماء فى تحديد عددها ، فبعضهم يحدد لها ثلاث مستويات (٤) .

---

(١) ابراهيم انيس ، (غير مبين سنة النشر) ، فى اللهجات العربية ، مكتبة الانجلو المصرية ، القاهرة ، الطبعة الخامسة ، ص ١١ .

(2) Bell, Roger, T. 1976, Socilolinguistics: Goals, Approaches and problems, p. 24.

(3) Blount, Ben, G. 1974, Language, culture and society: A Book of reading, Wintrop publishers, Inc., Cambridge. P. 123.

(٤) انظر ، ميشال زكريا ، نفس المرجع السابق ، ص ٢٠٨ .

(١) المستوى الصوتى Phonology

(٢) المستوى النحوى (نحو وصرف) Grammar

(٣) المستوى الدلالى Semantics

فى حين ان بعض اللغويين يقيم للغة أربع مستويات هى :

(١) المستوى الصوتى

(٢) المستوى الصرفىMorphology (يتناول بناء الكلمة)

(٣) المستوى النحوى Syntax (يتناول بناء الجملة) . .

(٤) المستوى الدلالى [١] .

وسوف نعرض - فيما يلي - لهذه المستويات الاربع لبيان ما يندرج تحت كل منها .

أولا : المستوى الصوتى : يتناول دراسة الأصوات التى تتألف منها اللغة ، كما يتناول تشريح الجهاز الصوتى لدى الانسان ، ومعرفة امكانات النطق المختلفة الكامنة فيه ، ووصف أماكن النطق ومخارج الأصوات ، وتقسيم الأصوات الانسانية الى مجموعات لكل منها خصائص معينة، كما يدرس النبر والتنغيم ، وهو يبحث أيضا فى القوانين الصوتية التى تكمن وراء ابدال الاصوات وتغيرها [٢]. فعلم الاصوات اللغوية هو العلم الذى يركز اهتمامه على مجالات المستوى الصوتى للغة، أى هو العلم الذى يهتم بالدراسة الصوتية للغة مركزا اهتمامه على اصغر وحدة من وحدات الكلام .

---

(١) محمود فهمى حجازى ، ١٩٧٨، مدخل الى علم اللغة ، دار الثقافة للطباعة والنشر ، القاهرة ، ص ١٨ .

(٢) رمضان عبدالتواب ، ١٩٨٢ ، المدخل الى علم اللغة ومناهج البحث اللغوى ، مكتبة الخانجى بالقاهرة ، ص ١٠ .

ثانيا : المستوى الصرفى : ويتناول بناء الكلمة ، ويطلق الاوربيون عليه مصطلح «مورفولوجى» [1] ويتناول الناحية الشكلية والتركيبية للصيغ والموازين الصرفية وعلاقاتها التصريفية من ناحية ، والاشتقاقية من ناحية أخرى [2] .

ثالثا : المستوى النحوى : يتناول دراسة نظام الجملة ، من حيث تركيب اجزائها، وأثر كل جزء منها فى الاخر ، وعلاقة هذه الاجزاء بعضها ببعض ، وطريقة ربطها [3] ، ويشمل المستوى النحوى ايضا المقولات – أو ما يسمى بالفصائل – النحوية المختلفة الموجودة فى اللغة كالجنس والعدد والزمن ..

---

(١) يعد المصطلح الاساسى فى التحليل الصرفى الحديث هو مصطلح «مورفيم» Morpheme ويعرف المورفيم بأه «وحدة ذات معنى» ، وهو الوحدة الاساسية فى النحو ، هذه الوحدة – بذاتها – غير قابلة للانقسام الي وحدتين او اكثر ذات معنى . والمورفيمات ليست بالضرورة كلمات، فبعض المورفيمات قد تتضمن مورفيمتين او أكثر ، والأمثلة على ذلك كثيرة ، منها على سبيل المثال:
Work-er, Singer, un-like-ly وتستخدم المورفيمات فى التعبير عن معان نحوية كالجنس : مذكر ومؤنث (اخ – أخت) والعدد : مفرد ومثنى وجمع (بنت – بنتين – بنات) والشخص: متكلم ومخاطب وغائب (انا – انت – هو وزمن الفعل : ماضى ومضارع ومستقبل (ضرب – يضرب).
وتصنف المورفيمات الي نوعين : وحدات صرفية حرة Free Morphemes وهى التى توجد مستقلة منفصلة مثلat, in, cow, dog ووحدات صرفية مقيدة Bound mor-phemes وهى التى توجد مرتبطة بغيرها غير منفصلة عنه مثل حرف "S" فى dogs .
انظر فى ذلك : محمود فهمى حجازى ، نفس المرجع السابق ، ص ٥٨ .
رالف بيلز ، هارى هويجر ، نفس المرجع السابق ، ص ص ٦٤٣ ، ٦٤٤ .
محمود السعران ، ١٩٦٢ ، علم اللغة : مقدمة للقارىء العربى ، دار المعارف بمصر، ص ٢٥٢.

(٢) تمام حسان ، ١٩٧٩ ، مناهج البحث فى اللغة ، درار الثقافة ، الدار البيضاء ، المغرب ، ص ٢٠٤.

(٣) رمضان عبدالتواب ، نفس المرجع السابق ، ص ١٠ .

تختلف وتتنوع تلك المقولات او الفصائل النحوية من حيث المادة اللغوية التى تكون كل منها ، ولكنها فى ذات الوقت تحتفظ بجوهرها الاصلى العام الذى تشترك فيه مع غيرها من اللغات ، ولعل هذا هو ما دعى «بلومفيلد Bloomfield الى القول بأنه «على لغويىّ المستقبل واجب هو أن يقارنوا بين الفصائل النحوية الخاصة بلغات مختلفة، ، وأن يحددوا الخصائص (أو السمات) العالمية، أو على الأقل المنتشرة انتشارا واسعا [١] .

رابعا : **المستوى الدلالى** : ويتناول دراسة دلالات الالفاظ أو معانى المفردات ، والعلاقة بين هذه الدلالات والمعانى المختلفة، الحقيقى منها والمجازى، كما يتناول عملية التطور الدلالى ، ودراسة حياة الكلمة عبر العصور اللغوية المختلفة، وما يطرأ عليها من تغير [٢] ، كما يتناول هذا المستوى أيضا وظائف اللغة الاتصالية والتعبيرية ، ونماذج المخاطبة واختلافها تبعا لاختلاف السن أو الجنس او الطبقة او المكانة الاجتماعية .. الخ ، كذلك مرونة اللغة ، هذا فضلا عن معالجته للعديد من القضايا الدلالية الاخرى ، كالترادف والمشترك اللفظى والأضداد ، والعلاقة بين الاسم والمسمى ، كل ذلك فى ضوء ارتباط تلك المعانى بالبيئة الاجتماعية والثقافية للمجتمع .

والواقع أن كل لغة تتمثل فيها كل تلك الجوانب اللغوية، وان كانت هذه الجوانب - ذاتها - لا تدور فى ذهن المتكلمين باللغة ، وانما هى ماثلة فقط فى ذهن اللغويين والمشتغلين بشتى مستويات هذا العلم ، قد يركز بعضهم على احد او بعض تلك الجوانب مجتمعه ، كل حسب موضوع بحثه ومجال تخصصه .

وهنا يجدر بنا القول أننا سوف نركز فى الجزء التالى على عدد من قضايا المستوى الدلالى بالذات والتى أشرنا الى جزء منها أثناء حديثنا عن طبيعة

---

(١) محمود السعران ، نفس المرجع السابق ، ص ١٠.
(٢) نفس المرجع السابق ، ص ١٠ .

اللغة، ذلك لأن هذا المستوى يعد من أكثر المستويات اللغوية التى لا تعتمد فى دراستها على اللغويين وحدهم وإنما تستعين بالعديد من العلوم الانسانية الأخرى كالانثروبولوجيا وعلم الاجتماع والفلسفة وعلم النفس .. الخ والتى تهتم باللغة باعتبارها وسيلة هامة وفعالة للتعبير عن كل ما يدور في المجتمع والثقافة.

في المستوي الدلالي :

الواقع أنه من أهم العوامل التى تؤثر فى استخدامنا للغة «المعنى» Mean-ing ذلك لأننا نختار كلماتنا وجملنا لكى توصل من خلالها المعنى الذى نرمى الى توصيله للاخرين [1] . ومن هنا فان المستوى الدلالى للغة يعالج كل ما تحمله اللغة من معانى ودلالات .

وقضية المعنى من اكثر القضايا اللغوية أهمية اذ يصعب دراسة اللغة بدونها حيث ،وظيفة اللغة الأولى هى نقل الأفكار والمعانى من شخص لآخر، والعلاقة بين اللغة ومعناها علاقة وثيقة لا يمكن قطع أوصالها [2] .

وعلم الدلالة او دراسة المعنى فرع من فروع علم اللغة، وهو غاية الدراسات الصوتية والنحوية والصرفية والقاموسية ، واذا كانت تلك الدراسات لم ينهض بها الا اللغويون ، فلقد شارك النظر فى المعنى علماء ومفكرون فى ميادين مختلفة، شارك فيه الفلاسفة القدماء ، وبخاصة المناطقة ، وشارك فيه حديثا علماء النفس والاجتماع والانثروبولوجيا ، كما أسهم فيه علماء السياسة والاقتصاد وجماعة من الفنانين والادباء والصحفيين ، ذلك لان «المعنى» اللغوى من شأنه ان يشغل المتكلمين جميعا

---

(1) Burling, Robbins, 1970, Man's many voices: Language in its culture context, Holt, Rinehart and Winston, Inc., N.Y. p. 3.

(٢) ماريو باى ، ١٩٧٠ ، لغات البشر : احوالها ، طبيعتها ، تطورها ، ترجمة د. صلاح العربى ، قسم النشر بالجامعة الامريكية ، القاهرة ، ص ١٠٣ .

على اختلاف طبقاتهم ومستوياتهم الفكرية [١] .

ولقد كان الاهتمام بالقضايا الدلالية فى اطار الحضارة العربية الاسلامية كبيرا ، وكان فى مقدمة القضايا التى شغلت بال اللغويين العرب - وكذلك البلاغيين والأصوليين - قضايا الترادف ، والأضداد ، والمشترك اللفظى ، والحقيقة والمجاز .. فضلا عن اهتمامهم بالدلالة فى اطار تحديدهم لدلالة الالفاظ [٢] . وسوف نعرض لبعض هذه القضايا ضمن معالجة المستوى الدلالى للغة فيما يلى :

أولا : الترادف Synonymy : لقد كان اول من آثار قضية الترادف هم الفلاسفة اليونان ، فالعلاقة بين الاسم والمسمى كانت موضع اهتمامهم ، والاشياء المادية الموجودة فى الواقع الخارجى محددة ، وللشيء الواحد منها اكثر من تسمية ، وعلى ذلك فهناك ترادف .

والمقصود «بالترادف» وجود كلمتين او أكثر بدلالة واحدة ، أى يشيران الى شيء واحد ، ولقد انتقل الاهتمام بقضية الترادف الى المفكرين العرب من لغويين وغير للغويين ، فرأى أغلبهم ان الترادف الكامل غير موجود ، اذا ان المطابقة الكاملة بين دلالة كلمة واخرى تتضمن نوعا من المبالغة ، لذا فقد سادت بينهم فكرة أن الترداف هو تقارب فى الدلالة وليس تطابقا ، ومن امثلة الترادف فى لغتنا العربية - والتى ليس من الضرورى ان تكون اصيلة فى اللغة ما يطلق على آله التليفون ، حيث تسمى «تليفون» و «هاتف» . كذلك التليفزيون يسمى «اذاعة مرئية» و «تليفزيون» و «مرناه» [٣] . كذلك الكلمة التى تطلق على قطعة الاثاث التى تستخدم فى الجلوس ، فيطلق عليها «كرسى» و «مقعد».

---

(١) محمود السعران ، نفس المرجع السابق ، ص ٢٨٥ ، ٢٨٦.

(٢) محمود فهمى حجازى ، ١٩٧٨ ، المعجمات الحديثة : دراسات في اتجاهات تأليفها وأسسها اللغوية، دار الثقافة للطباعة والنشر ، القاهرة ، ص ص ٤٢ - ٤٣ .

(٣) نفس المرجع السابق ، ص ص ٥٢ - ٥٣ .

يمكن ايضا ان نجد عدة مترادفات للاشارة الى حيوان معين مثل الأسد ، فيطلق عليه «أسد» و «ليث» ، «غضنفر» ، كذلك القطة تسمى «قطة» و «هرة».

ثانيا : المشترك اللفظى Homonymy : يعرف البعض المشترك اللفظى بأنه «ما تشابه لفظه واختلف معناه» فالمشترك اللفظى تتوارد فيه المعانى المختلفة للفظ الواحد ، فمثلا فى لغتنا العربية تتوارد المعانى المختلفة على لفظ «كريم» فقد تأتى بمعنى الشريف الفاضل ، وقد تأتى صفة للانسان الصفوح [1] ، كما قد تأتى للاشارة للانسان كثير الافضال على غيره ، أو تقال للانسان كثير العطاء .

وبالمثل فى اللغة الانجليزية فقد تتوارد المعانى المختلفة على كلمة Father فتعنى الأب البيولوجى ، كما تعنى الأب الاجتماعى ، كذلك تعنى الاب فى الكنيسة . نفس الظاهرة نجدها فى اللغة الزاندية ، فكلمة Kumba تعنى (الرجل ، والزوج ، والمحارب) وكلمة «Bambu» تعنى (المنزل، والكوخ) وكلمة "Ngua" تعنى (شجرة ، وخشب ، وغابة ، ودواء ، وعصى) ، أما كلمة "Pai" فتعنى (كلمة ، وشيء ، وموضوع ، وحادث) وكلمة "Rago" تشير الى (الوقت والزمن ، والجو والطقس ، والمدة ، والمكان) .

ويذهب ابراهيم انيس الي ان هناك عدة عوامل يمكن ان تؤدى الى تغيير المعانى للكلمة الواحدة منها :

١ - الانتقال بالمعنى من الحقيقة الى المجاز ، حيث ينتقل المعنى من الصورة الحسية الى الشكل المعنوى .

٢ - سوء فهم المعنى ، فقد يسيء الطفل فهم معنى الكلمة فى بيئته

---

(١) أحمد نصيف الجنابى ، ١٩٧٨ ، الدراسات اللغوية والنحوية فى مصر : منذ نشأتها حتى نهاية القرن الرابع الهجرى ، دار التراث ، القاهرة ، ص ٤١١ .

المنعزلة ثم ينشأ هذا الطفل دون أن يصلح له ما فهم ، فتستعمل الكلمات فى معنهاها الجديد ، وان لم يكن مخالفا للمعنى الاصلى كل المخالفة فلا أقل من أن نرى بعض الاختلاف بين المعنيين .

٣ - قد يرجع تغير المعانى ايضا الى استعارة اللغة كلمات تماثل صورتها كلمات اخرى فيها ، ذات معنى مختلف ، هنا نجد كلمتين متحدتين فى الصورة مختلفتين فى المعنى .

٤ - قد يتغير معنى الكلمة فى لهجة من اللهجات ، ثم بمرور الزمن يتلاشى المعنى الأصلى للكلمة ويبقى معناها الجديد [١] .

ثالثا : الاضداد : وهى ايضا من القضايا الهامة التى شغلت بال اللغويين العرب، والمقصود بالأضداد استخدام كلمة بمعنيين متضادين [٢] . أو استعمال كلمة معينة لمعنى معين ، ثم استعمال نفس الكلمة لمعنى مضاد . ولقد درس لغويو العربية هذا الجانب من جوانب مفرداتنا اللغوية، ولهم فيه كتب كثيرة.

ومن امثال الاضداد فى العربية استخدام كلمة «بان» بمعنى فارق وانقطع، و«بان» بمعنى ظهر واتضح ، ونفس كلمة «ضد» تشير الى المخالف والنظير. والواقع ان ذلك يرجع الى أننا حين نفكر فى أى صفة فاننا نفكر فى نفس الوقت فى مقابلها ، فحينما نقول «أبيض» فأننا نفكر بغير وعى فى «غير الأبيض» أى الاسود ، أى اننا فى الوقت ذاته ندرك الضد وننحيه جانبا . ولقد عبر جوست ترايرJost Trier العالم الالمانى تعبيرا دقيقا عن هذه الحقيقة بقوله «ان كل كلمة تلفظ تثير معناها المضاد» [٣] .

---

(١) ابراهيم أنيس ، نفس المرجع السابق ، ص ص ١٥٦ : ١٥٨ .
(٢) محمود فهمى حجازى ، نفس المرجع السابق ، ص ٥٩ .
(٣) محمود السعران ، نفس المرجع السابق ، ص ص ٣٠٥ - ٣٠٦ .

بعد عرض أهم القضايا التى شغلت اللغويين العرب فى مجال علم الدلالة، يمكن القول ان قضايا الدلالة لم تشغل بال علماد العرب فقط وانما جذبت ايضا اهتمام الفلاسفة اليونان . حيث ارتبطت قضايا الدلالة فى اذهانهم بعدة تساؤلات تدور حول جوهر اللغة وماهيتها ، والعلاقة بين الاسم والمسمى ، هل هى علاقة طبيعية أم أنها علاقة اصطلاحية عرفية.

فالبعض يرى أن أسماء الاشياء ليست رموزا مجرده، وانما هى جزء لا يتجزأ من جوهر المسمى ، بينما يرى البعض الآخر أن لكل مسمى اسم لمجرد ان الناس قد اتفقوا على استخدام ذلك الاسم رمزا لشيء معين ، أى أن العملية هى تقليد اجتماعى وليست ظاهرة طبيعية [1] .

فالرموز اللغوية لا تحمل قيمة ذاتية طبيعية تربطها بمدلولاتها فى الواقع الخارجى ، فليس هناك اية علاقة بين كلمة «حصان» مثلا ومكونات جسم الحصان، والعلاقة كامنة فقط عند الجماعة الانسانية التى اصطلحت على استخدام هذه الكلمة اسما لذلك الحيوان . ومعنى هذا أن قيمة هذه الرموز اللغوية تقوم على العرف أى تقوم على ذلك الاتفاق الكائن بين الاطراف التى تستخدمها فى التعامل [2] .

والباحث يؤيد وجهة النظر الثانية التى تذهب الى عدم وجود رابطة طبيعية بين الاسم والمسمى وان كان هناك بعض الحالات التى يربط فيها الانسان بين الكلمة ومعناها قد جذبت انتباه بعض علماء الانثروبولوجيا والنفس فى دراساتهم التى أجروها فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ، حيث لاحظوا ان الانسان احيانا ما يربط هذا الربط بين الكلمة ودلالتها وخصوصا فى حالة الكلمات التى تشكل حرجا فى التلفظ بها ، مما يجعل الانسان يحاول أن

---

(١) ماريو باى ، نفس المرجع السابق ، ص ٢ .
(٢) محمود فهمى ، نفس المرجع السابق ، ص ١١ .

يتجنبها . ولقد تناول هؤلاء العلماء تلك الكلمات تحت دراستهم لمجموعات الكلمات المحرمة أو «التابو» فلاحظوا ان التابو اللغوى يجعل بعض الكلمات موضع حرج فلا تذكر فى الحديث العادي ، وأهم هذه المجموعات ما تدل على الأمراض الخبيثة والوحوش الكاسرة ، فضلا عن الفاظ الجنس ، وربط الباحثون بين هذه المجموعات من الكلمات بملاحظاتهم حول ربط الانسان بين الكلمة ومعناها ، فكان النطق باسم الحيوان المفترس فيه استدعاء له ، لذا يتجنبه الانسان خوفا من بطشه ، كما ان النطق باسم الامراض الخبيثة فيه استدعاء للمرض نفسه ، أو تقريبه من السامع [(١)] .

نفس الملاحظة يمكن ذكرها فى مجتمع الأزاندى ، حيث يلاحظ تجنب الناس هناك النطق باسم حيوان «الاداندالا» - وهو حيوان ذو قوى سحرية ضارة بالانسان - بل وينزعجون انزعاجا شديدا من مجرد سماع صوته ، مما يعكس تصورهم بأن مجرد التلفظ باسم ذلك الحيوان ، أو سماع صوته ، ربما يؤدى الى استدعائه وظهوره مما يجعلهم يتجنبون ذلك .

ونفس الظاهرة تلاحظ عندنا فى مصر ، فالبعض منا يتجنب النطق باسم بعض الامراض الخبيثة - كالسل او السرطان مثلا - ويفضل فى الكلام عن مثل تلك الامراض عدم النطق باسمها الحقيقي تجنبا لها وابعادا لشرها . فضلا عن تجنب الكثيرين للنطق بالألفاظ الجنسية التى تسبب حرجا للناطق بها والسامع لها .

مجمل القول أن قضايا الدلالة قد جذبت اهتمام العلماء العرب وغير العرب فى موضوعات شتى ينطبق كثير منها علي أغلب اللغات ، فقضايا الدلالة قضايا عامة يمكن دراستها فى اغلب اللغات الانسانية ، وان كان مضمون كل منها يختلف من مجتمع لآخر ، ومن ثقافة لأخرى ، وخصوصا أن مجال الدلالة

---

(١) نفس المرجع السابق ، ص ٤٧ .

من أكثر المجالات التى تعكس الصلة الوثيقة بين كل من اللغة والمجتمع والثقافة. والتى سوف تتمثل فى الجزء التالى فى دور اللغة فى اشباع احتياجات المجتمع الناطق بها ، وما تلعبه مرونة اللغة من دور فعال فى التكيف مع معطيات كل مجتمع وكل ثقافة بثرائها وفقرها .

مرونة اللغة :

مرونة اللغة هى الصورة الاكثر تعبيرا عن العلاقة بين اللغة والمجتمع والثقافة. فلغة كل مجتمع تعبر عن معطيات بيئته ، فتتسع مفردات تلك اللغة فى المجالات التي تشكل أهمية فى حياة متكلميها ، وتضيق فى الجوانب التى لا تشغل حيزا من اهتماماتهم ويتمثل ذلك فى صورة ثروة لفظية تتمتع بدرجة عالية من المرونة تعبر فى اتساعها وضيقها عن مجالات اهتمامات متكلمى تلك اللغة ، بحيث يصعب فهم لغة أي مجتمع - فهما صحيحا - منعزلا عن ذلك الاطار المرجعى للتفسير الاجتماعى والثقافى للغة التى يتكلمها .

وكل اللغات الانسانية تتمتع بالمرونة والقدرة على اشباع احتياجات متكلميها أيا كانت درجة بساطة أو تعقد تلك الاحتياجات . بحيث يمكن القول ان كل لغة تملك ثروة لفظية تعبر عن الجوانب الهامة فى حياة متكلميها وتعكس اهتماماتهم دون غيرها .

فلغة الاسكيمو مثلا تعكس معطيات البيئة الموجودة فيها ، حيث تمتلىء بالالفاظ والمسميات الدالة علي الثلوج والتى لا توجد فى غيرها من اللغات. ولقد لاحظ أحد الانثروبولوجيين فى هذا الصدد أيضا ثراء لغة العرب البدو فى تعبيرها عن أحد الحيوانات الهامة فى بيئتهم الصحراوية وهو «الجمل» حيث

(١) سعد جلال ، ١٩٧٢ ، علم النفس الاجتماعى ، مطابع دار لبنان للطباعة والنشر ، منشورات كلية الآداب ، الجامعة الليبية ، ص ٧٩ .

يعرفون له ما يقرب من ستة آلاف كلمة [1] . فضلا عن اننا نجد عدة اسماء للاسد والحصان فى المجتمعات التى تسود فيها هذه الحيوانات وتمثل أهمية لديهم [1] . نجد أيضا بعض قبائل الهنود الحمر فى أمريكا يعرفون أكثر من مائتى (٢٠٠) كلمة عن البطاطس ويرى الباحثون ان ذلك يرجع الى اعتماد اقتصادهم على هذا المحصول والافادة من زراعته [2] .

ويمكن الاشارة فى هذا الصدد الى اكثر من مثال من لغة الازاندى ، ففى حين نجد ان لغة الازاندى تعانى نقصا فى قائمة اسماء الحيوانات مرجعه غياب عنصر الحيوان - المستأنس - من دائرة نشاطهم نجد فيها قوائم ثرية للمفردات الدالة على حاصلاتها الزراعية . فالازاندى يعرفون مثلا للذرة الشامية عدة أسماء وأنواع منها «بيسندى» Bisende ، «باداری» Badari ، انقا نقابودى-Nganga-bodi ، «بنقبايا» Bangbaya «اقبوروكامبارا»Gburukambara فضلا عن وجود اسما جامعا لها وهو «انقبايا»Ngbaya ، كما عرفوا للذرة البيضاء ايضا انواعا وأسماء عديدة منها «مانجباجو Mangbagu و«بازاجبارا» Bazagbara و «لالى» Lali غير الاسم الجامع لها وهو «واندى» Wunde . وربما ترجع وفرة الاسماء التى تطلق على هذا المحصول فى اللغة الزاندية الى أهميته الاقتصادية والاجتماعية فى حياة الازاندى ، اذ يستخدمونه فى اعداد العصيدة التى تقوم عندهم مقام الخبز ، فضلا عن أنهم يصنعون منه شرابا مسكرا يتخذ مكانه فى بعض طقوسهم الاجتماعية [3] . كما يعرف الأزاندى ايضا قوائم اخرى وفيرة من أسماء بعض الحاصلات والنباتات والاشجار التى تشكل أهمية فى حياتهم

---

(١) حسن شحاته سعفان ، ١٩٦٦ ، علم الانسان : الانثروبولوجيا ، المطبعة التجارية ، بيروت ، ص ٣٠٦.

(٢) عبده الراجحى ، ١٩٧٧ ، اللغة وعلوم المجتمع ، كلية الآداب ، جامعة الاسكندرية ، ص ٣٦.

(٣) محيى الدين صابر (غير مبين سنة النشر) ، التغير الحضارى فى مجتمع افريقى : دراسة لبرنامج توطين الازاندى فى السودان ، (رسالة دكتوراه) ، كلية الاداب ، جامعة القاهرة، ص ص ٤٥ ، وما بعدها .

المعيشية والاجتماعية والطقوسية .

وثراء لغة الأزاندى لا يبدو فقط فى هذا الجانب من حياتهم ، وانما يتمثل ايضا فى اللغة المعبرة عن نظام معتقداتهم والذى يتضمن قائمة ثرية من الألفاظ والمفردات وثيقة الصلة بذلك البناء الكهنوتى المتصل بعالم ما فوق الطبيعة والذى يتناول معتقداتهم المتصلة بالكائنات العليا والارواح ، وعالم السحر والسحرة وممارساته المختلفة .

وارتباط اللغة بنمط الحياة السائدة فيه لا يظهر فقط فى قوائم مفرداتها، وانما ينعكس ايضا فى بنيتها ، فالأساليب والتصورات وبناء الجملة والتراكيب اللغوية والمجازية فى المجتمع الصناعى المعقد تختلف اختلافا كبيرا عن مفردات اللغة وبنيتها وأساليبها فى المجتمع البدوى القبلى الذى يعيش على الرعى والترحال والذى يمتزج الفرد فيه بجماعته القبلية التى ينتمى اليها ، وتذوب شخصيته فى تلك الجماعة ، ولا يشعر بفرديته وذاتيته التى يشعر بها الفرد فى المجتمع المعقد [١] .

فالنمط السائد للحياة يؤثر فى اللغة ، والدليل على ذلك أنه فى المجتمعات ذات التكنولوجيا المتطورة يشعر الافراد بقيمة عنصر الزمن ، حيث تتم بعض العمليات الانتاجية هناك فى دقائق قليلة أو ربما فى دقيقة واحدة ، فى هذا النمط الاجتماعى تتضح أهمية عنصر الزمن فى لغتهم ، حيث تظهر الأزمنة أكثر دقة عن غيرها من اللغات التي تحتاج عملياتها الانتاجية الى وقت طويل - كالزراعة مثلا - غير محدد تحديدا دقيقا .

ففى مثل هذا النمط الصناعى المعقد يميل المتكلمون الى البعد عن الاطالة فى الحديث ، والميل الى التعامل بالمختصر من الكلام ، مثال على ذلك عملية

---

(١) أحمد ابو زيد ، ١٩٧١ ، «حضارة اللغة» ، فى مجلة «عالم الفكر» ، المجلد الثانى ، العدد الاول ، وزارة الاعلام ، الكويت ، ص ص ١٢ - ١٣ .

اسقاط بعض الحروف من الكلمة استجابة لمقتضيات المدنية المتميزة بالحركة السريعة فى المدن الكبرى ، وهى ظاهرة نجدها فى اللغة الفرنسية، فكلمة Mon-sieur مثلا تنطبق Psieu ثم تختصر أكثر فتصبح Sieu [1] . وهذا على عكس ما نجد فى لغات اخرى اكثر بساطة لا تحتاج الى مثل تلك الاختصارات اللفظية فى الكلام ، وذلك لعدم أهمية عنصر الزمن فى حياتها الى هذا الحد . ومن ثم فانها تلجأ الى الاطالة فى الحديث أو التكرار فى المقطع، أو اطالة تركيب الجملة ذاتها . فنجد على سبيل المثال فى اللغة الزاندية، بعض الجمل أو العبارات تمثل هذا الأسلوب فمثلا :

Ka mo mangi nga gbegbere pai ya

هذه الجملة تعنى فى الانجليزية : do not do evil [2] . وفى العربية: لا تفعل الشر .

مثال آخر : Kukpi ki ga ku Mbori yo, ku sande yo وترجمتها «ذهب الى الله فى الارض» [3] .

بالنظر الى صيغة هاتين الجملتين فى لغة الازاندى ، نجد أنهما اكثر اطالة من مثيلاتهما فى اللغة العربية أو الانجليزية ، وان كان يصعب القول ان هذه هى الصيغة الاساسية للجملة هناك ، الا انها موجودة وبصورة غير قليلة .

أما عن ظاهرة تكرار المقطع والتضعيف فهي من الظواهر اللغوية الشائعة فى لغة الازاندى وبخاصة فى الصفات adjectives مثل :

Guruguru بمعنى « قصير» .

---

(١) على احمد عيسى ، نفس المرجع السابق ، ص ١٠٨ .

(2) Gore, E.C., 1926, Azande Grammar, The sheldeon Press, Lodon, p. 35.

(٣) لويس كامل مليكه ، ١٩٦٥ ، قراءات فى علم النفس الاجتماعى فى البلاد العربية، الدار القومية للطباعة والنشر ، الطبعة الاولى ، ص ١٦٧ .

Birikobiriko بمعنى «قذر».

Gbegbere بمعنى «سيء» .

Nzinziri بمعنى «رائع ، جميل» [١] .

هذا التكرار او الاطالة فى الكلمة ربما يمكن ارجاعه الى أن الازاندى لم تتطلب ظروف حياتهم - بعد - الميل الى المختصر من الكلام ، وان كنت اعتقد أنهم اذا شعروا بأن هناك تغير فى نمط حياتهم يستوجب وجود نمط سريع للكلام اختصارا للوقت فانه ليس لديهم ما يمنع من التعود - من جديد - على أسلوب آخر اكثر تلاؤما مع نمط الحياة الجديد الذي يتطلب ذلك .

وهكذا يمكن القول ان فى كل لغة انماطا نحوية وكلامية خاصة بها ، تختلف عن غيرها من اللغات ، كما أن لكل لغة قوائم مفردات خاصة لا تهتم بها لغات أخرى وانما تهتم بغيرها ، ذلك تبعا للوضع الذى تحتله تلك المقولات او القوائم الكلامية فى ثقافاتها [٢] .

خلاصة القول أن الانسان يعيش فى عالم متكامل يتكون من اللغة والمجتمع والثقافة ، فلا غنى لأحدهم عن الآخر ، فثقافة أى مجتمع يمكن التعبير عنها من خلال اللغة ، تلك اللغة التى تلعب دورا هاما فى حياة أى مجتمع حيث تعبر عن قيمة وعاداته وتاريخه وتراثه وأوجه نشاطه المختلفة ، وأى ثقافة انما تجد لها تعبيرا واضحا فى اللغة المعبرة عنها ، حيث تحمل اللغة طابع الثقافة المرتبطة بها.

والواقع ان ارتباط اللغة بالمجتمع والثقافة اللذين توجد فيهما وتعبر عن كل ما يدور داخلهما فضلا عن اختلاف وتنوع المجتمعات والثقافات الانسانية عموما

---

(1) Gore, E.C, op.cit,, p. 35.
(2) Blount, Ben, G., op.cit., pp. 124 - 125.

أدى الى تنوع اللغات وتعددها وهو ما سوف نعرض له فيما يلى :

تنوع اللغات وتعددها :

الواقع ان مسألة تنوع اللغات وتعددها مسألة مسلم بها ولا يمكن انكارها . ولقد جذبت انتباه العلماء فحاولوا وضع تقديرات مختلفة لعدد تلك اللغات الموجودة فى العالم ، وذلك لتصنيفها فى مرحلة تالية . ولكن لوحظ انه ليس هناك تقدير دقيق يحدد العدد الفعلى لتلك اللغات ، وان كانت تلك التقديرات تذهب الى القول بأن عدد لغات العالم تصل الى عدة آلاف لغة [1]، بغض النظر عن اللغات التى اندثرت أثناء عمليات المد والجزر ebb and flow خلال عملية الانتشار اللغوى Linguistic diffusion التى تحدث عبر الزمان [2] .

والواقع ان صعوبة الحصول على تقدير دقيق لعدد لغات العالم ، تتمثل ايضا فى صعوبة الحصول على تقدير دقيق لعدد اللغات الافريقية ، اذ يقدر بعضهم عددها بحوالى ٥٠٠ لغة يتكلم بها نحو مائة مليون نسمة [3] . بينما يرى البعض الاخر من العلماء ان عدد تلك اللغات الافريقية يفوق هذا العدد بكثير اذ يصل هذا العدد فى تقدير جرينبرج Greenberg مثلا الى حوالى ١٠٠٠ (ألف) لغة [4] .

---

(١) تحدد بعض التقديرات عدد اللغات الافريقية بحوالى ثلاثة الاف لغة ، كثير منها على وشك الاختفاء تحت تأثير اللغات الاوروبية والاسيوية للشعوب التى تجاور اهليها ، وما يترتب على هذا التجاوز من اهمال اللغات الاصلية وتبنى تلك اللغات الجديدة (حسن شحاته سعفان ، نفس المرجع السابق ، ص ص ٣٠٠ - ٣٠١).

(2) Chapple, E.D., and Coon, c.S., 1947, Principles of Anthropology, Henry Holt and Company, N.Y. p. 574.

(٣) ابراهيم انيس ، اللغة بين القومية والعالمية ، مرجع سابق ، ص ص ١٦٤ - ١٦٥ .

(4) Dunstan, Elizabeth, 1975, "Languages":, in the cambridge Encyclopedia of Africa, by, Oliver, Roland and Crowder, Michael (eds), p. 74.

وربما يمكن ارجاع هذا التفارت فى تقدير عدد اللغات الافريقية الي الخلط الدائم بين ما يمكن اعتباره لغة وما يمكن اعتباره لهجة ، فضلا عن أن بعض اللغات على وشك الانقراض نتيجة لتأثير عمليات الجوار والاحتكاك والغزو والتوسع ، مما يكون له أثره فى صعوبة تحديد عدد دقيق لتلك اللغات .

ولق أدت تلك الكثرة والتنوع الهائل فى عدد اللغات الأفريقية ، بل وعدد لغات العالم الي محاولة العلماء العمل على تقسيم تلك اللغات الى مجموعات أو أسر منظمة [(١)] . هدف هذا التقسيم هو تقديم ملخص موجز للغات العالم وتصنيفها بقدر ما هى معروفة حاليا [(٢)] ، ولقد لوحظ من تقسيم اللغات الى أسر أو مجموعات ان تلك الأسر اللغوية انما هى انعكاس لتشعب الألسنة الحديثة ، فضلا عن التدليل على قدم اللغة كموهبة انسانية [(٣)] .

ومعنى تقسيم اللغات الى أسر «هو أن تضم للأسرة الواحدة كل اللغات التى تدل الشواهد على انتمائها الى أصل واحد» [(٤)] .

وهناك عدة أساليب لتصنيف تلك اللغات ، فهى غالبا ما تصنف وفقا لسماتها الداخلية المشتركة (صوتية Phonological ونحويةGrammatical ومعجمية Lexical) ففى حالة انتماء عدد من اللغات الى عائلة لغوية واحدة تتقاسم تلك السمات فيما بينها ، معبرة بذلك عن العلاقة الأصلية التى تربط بين تلك اللغات التى تنحدر من اصل واحد . فوجود سمات مشتركة بين اللغات

---

(١) لم تظهر فكرة تقسيم اللغات فى اى صورة من صورها قبل القرن السادس عشر ، ولم تأخذ الشكل العلمى لها الا فى القرن التاسع عشر حيث ظهر تقسيم اللغات الى أسر ، وذلك نظرا لما عرف به هذا القرن من الاهتمام بمقارنة اللغات بطريقة علمية موضوعية، ولا يزال هذا التقسيم معمولا به حتى اليوم (ماريو باى ، نفس المرجع السابق ، ص ٥٩).

(٢) رالف بيلز ، هارى هويجر ، نفس المرجع السابق ، ص ٦٣٠ .

(٣) نفس المرجع السابق ، ص ٦٥٥ .

(٤) ماريو باي ، نفس المرجع السابق ، ص ٥٩ .

الانجليزية والالمانية والهولندية والنرويجية والسويدية والايرلندية تنم عن انحدارها جميعا من عائلة لغوية واحدة هى العائلة الجرمانية التى انحدرت بدورها من اللغة الجرمانية الأولى Proto-Germanic (١) .

كما يمكن تصنيف اللغات أيضا وفقا لتوزعها الجغرافى ، حيث يلعب الجوار المكانى دورا هاما فى تبادل السمات او الملامح اللغوية لمتكلمى اللغات المختلفة الذين يعيشون في منطقة جغرافية واحدة ، مما يترتب عليه ظهور سمات لغوية مشتركة فيما بينهم مثال على ذلك ، شبه القارة الهندية ، فعلى الرغم من انها تضم متكلمى ثلاث مجموعات لغوية كبرى هى : الهندية الاوربية والدرافيدية والموندية ، الا أن تلك المجموعات اللغوية الثلاث تشترك فيما بينها فى بعض الملامح اللغوية الهامة نتيجة اقامتها فى منطقة جغرافية واحدة ، وما يترتب علي تلك الاقامة المشتركة من اتصال وتبادل للعلاقات (٢) .

واذا نظرنا الى تصنيف اللغات الأفريقية - بصفة خاصة - سوف نجد أنه من اكثر التصنيفات شيوعا فى هذا الصدد ، تصنيف «جرينبرج» الذى صنف فيه تلك اللغات الأفريقية الى عائلات كبرى يندرج تحتها مجموعات أو أسر فرعية تضم في مجملها أغلب اللغات المتكلمه فى القارة الافريقية ، وهى :

أولا : اللغات الافرو- اسيوية Afro - Asiatic

وهى تغطى شمال افريقيا ، وتنتشر في مساحة شاسعة من الصحراء والقرن الافريقى Horn of Africa . وتضم تلك العائلة اللغوية عدة مجموعات لغوية أهمها : اللعات السامية Semitic Languages (وتضم اللغة العربية والعبرية والأمهرية....) ، واللغات المصرية القديمة (وأهمها اللغة القبطية) واللغات البربرية ، واللغات الكوشتية Cushitic (وأهم لغاتها الصومالية) ، واللغات

(1) Hymes, Dell, op.cit., p. 362.
(2) Ibid., p. 363.

التشادية Chadic (وأهم لغاتها لغة الهوسا Hausa).

ثانيا : اللغات النيلية الصحراوية Nilo - Saharan :

وتغطى هذه اللغات مساحة شاسعة من الصحراء الشرقية ، وأعالى وادى النيل ، فضلا عن انتشارها فى اجزاء متفرقة من جنوب شرق بحيرة فيكتوريا ، وتضم هذه العائلة اللغوية عدة لغات أهمها : لغة صنغهاى ، ولغة الفور Fur (وهى اللغة المتكلمة فى دارفور بالسودان) ، واللغات الشارية النيلية -Chari Nile والتى تنقسم الى اللغات السودانية الشرقية (ومن اهم لغاتها لغة الدنكا ولغة ليو) ولغات وسط السودان (وتعد لغة المانجبيتو Mangbetu وسارا Sara والبونجو Bongo من أهم لغاتها) كما تضم اللغات النيلية الصحراوية ايضا من بين أهم لغاتها لغة كانورى Kanuri وهى اللغة الأساسية فى نيجيريا .

ثالثا : لغات النيجر – كردفان Niger - Kordofanian

وتضم هذه العائلة اللغوية مجموعتين لغويتين هما :

(١) لغات النيجر – كونغو .

(٢) لغات كردفان

وتعد لغات كردفان اقل أهمية وانتشارا من لغات النيجـــر – كونغو – حيث تغطى مساحة صغيرة من جبال النوبا فى كردفان بالسودان ، وضم عدة لغات أهمها : لغات كولايب Koalib ، وتالودى Talodi وتيجالى Tegali وكتلا Katla .

اما لغات النيجر – كونغو Niger - Congo فهى من اكثر اللغات أهمية فى افريقيا ، ولغاتها يتكلمها اكثر من نصف سكان القارة ، وهى تضم عدة لغات أهمها : لغات غرب المحيط الأطلسى (وأهمها الولوف Wolof والفولا Fula فى السنغال) ولغات الماندى Mande الشرقية والغربية ، واللغات الفولتية (وأهم لغاتها لغة الدوجون Dogon ومور More وداجارى Dagaari ولغات البانتو (ومن

أهم لغاتها اللغة السواحلية ولغة الزولو ...) ثم لغات آدماوا الشرقية -Ada mawa - Eastern [1] ، وتعد من أهم لغاتها لغة الازاندى ، الى جانب لغات الباندا Banda والموندونجا Mondunga ، بارامبو Barambo ، نادوجو - سيرا Ndogo- Sere ونزاكارا Nzakara ومادبو Madyo [2] .

رابعا : لغات أخرى :

كالانجليزية والفرنسية والبرتغالية والاسبانية ، وهى لغات غير افريقية الاصل ولكنها تستخدم فى مناطق متفرقة من القارة الافريقية كلغات ثانية الى جانب اللغات الاصلية للناطقين بها [3] .

---

(1) Dunstan, Elizabeth, op.cit., pp. 47 - 77.
(2) Westermann, Diedrich, 1952, "African Linguistic Classification", In, Africa, V.XXII, No. 1, pp. 254 0 255,
(3) Dunstan, Elizabeth, op.cit., p.77.

الفصل الثامن
انثروبولوجيا الجريمـــة *

* كتب هذا الفصل د. فادية فؤاد حميدو

الفصل الثامن
انثروبولوجيا الجريمة *

تهتم انثروبولوجيا الجريمة بدراسة العوامل الاجتماعية والثقافية المؤثرة فى ظاهرة الجريمة وأساليب مواجهتها ، وهى تطلق على مجموعة من الدراسات الانثروبولوجية ذات الطابع التطبيقى التى تتناول كافة صور واشكال السلوك المنحرف . وتسعى هذه الدراسات الى ربط السلوك المنحرف بالمعايير الاجتماعية للمجتمع .

وبالاضافة الى اهتمام الباحث الانثربولوجى بدراسة الجريمة والسلوك المنحرف يشترك معه فى الاهتمام رجال القانون وعلماء النفس ، والطب النفسى ، والتحليل النفسى ، والباحث الاجتماعى .

والجريمة تهدد النظام الاجتماعى لأنها تقوم على انتهاك القيم والمعايير الاجتماعية المقبولة فى المجتمع ، والتصورات الاخلاقية والقواعد القانونية المنظمة للسلوك والعلاقات الاجتماعية.

ولما كان ارتكاب الجريمة مرتبطا بالعنف والظواهر العنيفة فضلنا ان نعرض اولا للعنف واسبابه واشكاله ثم نقوم بتعريف الجريمة والعوامل التى تؤدى الى ارتكابها .

---

* كتب هذا الفصل د. فادية فؤاد حميدو

مقدمه :

تجتاح العالم موجة عنف شديدة يعم أثرها أرجاء المعمورة ، وينتقل هذا الأثر الى سلوك الانسان المعاصر الذى يبدو عليه مظاهر هذا العنف فى كل ما يتلقاه فى حياته اليومية.

وفى الحقيقة فان عالمنا اليوم يعد عالما عنيفا ، عنيف فى وممارساته السياسية، عنيف فى حلوله للمشكلات القومية ولأشكال الصراع بين الأقليات والاكثريات، أيضا نشهد اليوم عنف حروب واغارات الدول بعضها على بعض ، هذا بالاضافة الى الانقلابات فى بعضها الآخر .

وتمتد عوامل العنف لتحيط بالانسان المعاصر من كل جانب ، فضجيج السيارات وما تحدثه من تلوث ضوضائى يثير الانسان ويجعله عنيفا فى تصرفاته، وتوسع الأنماط الاستهلاكية للناس بقدر يفوق قدراتهم ولَّد لدى الكثيرين منهم احساسًا بالصراع والضيق انعكس فى مسلكهم المتسم بالعنف. بل ان صخب الموسيقى العصرية كان فى بعض الحالات سببا لمظاهر اخرى للعنف.

ولما كانت الأسرة هى نواة المجتمع ، ومجتمعنا اليوم يغلب عليه العنف ، افترضنا ان تكون بذور هذا العنف اسرية فى بعض الاحيان ، ومن ثم انصب اهتمامنا فى هذه الدراسة على بحث أسباب وعوامل العنف فى العلاقات الاسرية للوقوف على صور العنف داخل نطاق الاسرة ومدى تغلغل هذه الصور بين أفراد الاسرة الواحدة ، وبحث اسبابها ونتائجها، واتجهت دراستنا الميدانية نحو نهاية المطاف لكل من يقدم على ارتكاب جرائم ونقصد بذلك نزلاء السجن كمؤسسة عقابية، وانتقينا من بين الحالات التى عرضت لنا الجرائم التى تولدت عن العنف ثم اختيارها داخل نطاق العلاقات الأسرية بالدرجة الأولى .

نبدأ بحثنا بعرض نظرى يسير تمور مفهومى العنف والجريمة فى ضوء ما إرتأته المدارس الفكرية المختلفة .

العنف والجريمة
«مقدمة نظرية»

أولا : العنف :

أ - ما العنف :

يوجد العنف منذ أن وجد الانسان على سطح الأرض ، فهو إذن ملازم لهذا الوجود. إلا أنه فى الوقت الحاضر أصبح من المشكلات التى تهدد كيان الانسان من جهة والمجتمع من جهة أخرى .

حاول بعض الباحثين التمييز بين المظاهر القانونية وغير القانونية للعنف ، فهذا سيدنى هوك Sidney Hook يعرف العنف بأنه : «الاستعمال غير القانونى لوسائل القسر المادى أو البدنى من أجل تحقيق غايات شخصية أو جماعية» (١) .
اما عن العنف في جوانبه النفسية فانه يشير الى معنى من معانى التوتر والانفجار يسهم فى تأجيجها فى داخل الفرد او الجماعة عوامل كثيرة أبرزها هذا العالم الحديث المنقسم على نفسه ، والذى يعيش فيه انسان اليوم ، عالم التناقضات السياسية والاقتصادية والعقائدية (٢) .

يهتم الباحثون فى علم الاجتماع وعلم النفس الاجتماعى بالبحث عن العوامل والمسببات الاجتماعية المؤدية الى العنف والتى يصل معها الانسان الى مرحلة الانفجار .

---

(1) Joseph S. Roucek, Social Control, D. van No strand Company, INC., New York, 2nd Edition, 1956, p. 331.

(٢) محمد جواد رضا ، «ظاهرة العنف فى المجتمعات المعاصرة تفسير سوسيو - سايكولوجى» ، مجلة عالم الفكر ، المجلد الخامس ، العدد الثالث ، الكويت ، ١٩٧٤، ص ١٤٧ .

والعنف ظاهرة يومية وشاملة ، تظهر فى العلاقات بين الأفراد وفى حياة الجماعات وعلى مستوى الأمم أيضا ، وعلى الصعيد اليومى تطالعنا أنباء العالم بما يحدث من من ظواهر عنيفة فى بلدانه . بالاضافة إلى مظاهر العنف الذى نشاهده فى مجال الألعاب الرياضية ، ايضا العنف الذى يفعم به التليفزيون فيما يقدمه من برامج [1] . هذه هى بعض مظاهر العنف التى تحيط بالانسان والتى تؤثر عليه وعلى أفكاره وشخصيته وسلوكه العام .

ونستطيع ان نحدد الأطر العامة التى يقع داخلها العنف فى اطارين :

أ - **العنف المقنن** : وهو العنف الذى تمارسه الدولة او العائلة او المؤسسة الاقتصادية او الدينية المعترف بوجودها اجتماعيا .

ب - **العنف غير المقنن** : وهو عنف الافراد او الجماعات التى تتحرك ضد «العنف» المفروض عليها ، فى حين ان هذه الحركة تمثل خروجًا على الارادة الجماعية المقننة . علينا ان نميز اذن بين العنف الذى يمثل الاستعمال «غير المقنن» لوسائل القسر البدنى او المادى من اجل غايات شخصية أو جماعية ، وبين «القوة الجماعية» التى معها السند القانونى والتى تعبر عن نفسها فى ممارسة الضغط المادى المباشر ، والضغوط الاجتماعية الاكثر فاعلية [2] . ويبلغ مفهوم «القوة الجماعية» أعلى صوره فى الدولة ، فالدولة لها حق استخدام القسر المادى وتهديد وإرهاب المواطنين ، ومن ثم فالعنف أحد المظاهر

---

(1) Karl Menninger, M. D., The Crime of Punishment, The Viking Press, New York, 1968, pp. 157 - 158.

(٢) مجمد جواد رضا ، مرجع سابق ، ص ١٦٨ .

الاساسية الى تستخدمها سلطة الدولة [١] .

وإن سلمنا بالعنف الفردى ، والعنف الجماعى ، فان هذا أدعى الى التسليم بدور كل من الفرد والمجتمع معا فى خلق ظاهرة العنف .

ب - أسباب (عوامل) العنف :

١ - **أسباب داخلية :** نقصد بها العوامل التى تتراكم داخل الفرد عن طريق عملية التنشئة الاجتماعية، ومنها تلقين الطفل بذور العنف سواء بطريقة مباشرة أو غير مباشرة خلال تلك العملية التى يكتسب فيها الفرد سمات شخصيته وخير مثال على ذلك ما لاحظه جورج ميرفى George Murphy أثناء تناوله سلوك الأطفال الهنود بالدراسة والتحليل؛ فقد لاحظ انهم يتمتعون بقدر واف من الحرية، كما أن الكبار يعاملونهم بنوع من التساهل والتسامح. إلا أن هذا القدر من الحرية والتسامح يندر التعامل بهما بعد اجتياز مرحلة الطفولة حين يواجه المراهق بكتلة كثيفة من صور العرف الاجتماعى تحد من حريته التى نشأ عليها ، فيتولد لديه عدد من الصراعات الداخلية تنتهى بانفجار عنيف [٢] .

ومن ناحية اخرى يشير «ميرفى» الى وجود بعض الحواجز بين جماعة بشرية معينة وجماعة أخرى حتى داخل المجتمع الواحد ، وخير مثال على ذلك الصراع الذي وجده بين المدينة والقرية فى الهند والذى كان من الاسباب الاساسية للتوتر والانفجارات الاجتماعية هناك ، وفسر «ميرفى» هذا الصراع بوجود انماط ثقافية

(1) Joseph S. Roucek, op.cit., p. 331.
(2) George Murphy, The Minds of Men, Basic Books Inc., New York, 1952, p. 55.

فى المدينة مختلفة عن مثلتها فى القرية *. ومن ثم كانت الهجرات التى تمت من القرى الى المدن – بغرض انتفاع أهل القرية من الفرص المهنية والاجتماعية الافضل فى المدينة – من بين مسببات العنف بين الطرفين نظراً لاختلاف الانماط الثقافية التى ينتمى اليها كل منهما [1] .

٢ – أسباب خارجية : تتضافر عدة عوامل خارجية مسببة العنف والسلوك العنيف ، فقد ينشأ العنف عن الصعوبات الاقتصادية التى تواجه الانسان فى الوقت الحاضر ، أو ينشأ عن الاغتراب الثقافى والدينى الذى يعيشه فى الآونة الأخيرة ، أو عن احساسه بالظلم ، أو عن فشل لحقه نتيجة للنزعة اللاانسانية وانعدام الذاتية الفردية وذوبانها فى آلية الحياة .

ويعتبر العامل الاقتصادى من أوضح العوامل المسببة للعنف ، فقد كان الفقر والحرمان – منذ القدم – يقفان وراء أشد حوادث العنف قوة واكثرها تخريبا . هذا وقد شهد تراثنا الاسلامى حق الانسان فى التخلص من الفقر ، فقد قال رسول ﷺ «كاد الفقر أن يكون كفراً» ، وقال على بن ابى طالب «لو كان الفقر رجلاً لقتلته» . هذا بالنسبة للمجتمعات الفقيرة التى يكاد يكون الفقر فيها سببا فى كثير من حوادث العنف ، أما فى مجتمعات الوفرة والرخاء فان القيم الاقتصادية التنافسية تسهم فى تسميم حياة الانسان الطبيعية بصورة أخرى : صورة التعلق بغايات غير قابلة للتحقيق إلا لقلة قليلة من الناس ، وهى قيم الثراء الباذخ الذى يتحول الى معيار لقيمة الانسان نفسه بدلا من أن يكون الأمر معكوسًا . ويؤكد «فراى» Fry و «هاجارد» Haggred فى هذا الصدد على أن الجرى وراء هذه القيم بعيدة المنال هو التفسير لكثير من. أنواع الانهيارات النفسية التى تجتاح الشباب الذى يحاول بناء مستويات طموحة مبالغ فيها ،

---

* لنا عود للحديث عن هذا الموضوع وخاصة عند «اميل دور كايم» الذى اشار الى ارتباط السلوك العنيف والسلوك الاجرامى بالأنماط الثقافية فى كل مجتمع من المجتمعات .

(1) Ibid., p. 6.

تؤدى إلى أن تحقق قلة منهم نجاحًا باهراً ، فى حين ينال الفشل من عدد كبير منهم يؤدى بهم هذا الفشل الى خيبة أمل ونقمة تظهر فى صور متباينة من السلوك العنيف [١] .

٣ - برامج التليفزيون :

تؤثر وسائل الاعلام - فى الوقت الحاضر - بشكل واضح على زيادة التصرفات العنيفة لدى الإفراد ، ويبدو هذا على وجه الخصوص فى وسائل الاتصال الاكثر شيوعا كالتليفزيون .

ولما كان العنف يرتبط بالعدوان ، فان هذا الارتباط يظهر واضحًا عندما يقدم بعض مشاهدى البرامج والحلقات التى يبثها التليفزيون على محاكاة ما يرونه من افلام ومسلسلات تليفزيونية مليئة بأحداث العنف التى تقدم يوميا ويدور فحواها حول جرائم القتل والسرقة والاغتصاب وغيرها من الجرائم العنيفة.

ويتأثر بذلك ويقدم على المحاكاة كل من الطفل والراشد الذى يتلقى هذه المادة بسهولة [٢]، يعانى معظم الامريكين - على ما يقول Singer - (ماعدا فقراء احياء الاقليات الحضرية أو المناطق المتخلفة الريفية) من الزيادة المذهلة فى كم أحداث العنف والسلب والنهب الذى يقدم على شاشة التليفزيون ، وتقديم تلك الصور الحية لهذا العنف والتى يتأثر بها كل من الراشدين والأطفال على السواء ويكون لها تأثير سلبى على تصرفاتهم وسلوكهم .

---

(١) محمد جواد رضا ، مرجع سابق ، ص ص ١٧٣ ، ١٧٤ .

(2) Jerome L. Singer "The Influence of Violence Portrayed in television or Motion Pictures upon overt - Aggressive Behavior, in J. L. Singer (ed.), The Control of Aggression and Violence, Cognitive and Pysiological factors, Academic Press, New York, 1971, p. 21.

ومن الشائع تأثر قطاع عريض من أفراد المجتمع الامريكى بالبرامج التليفزيونية المثيرة كحلقات «جيمس بوند» المعروفة [1] .

وما يحدث فى المجتمع المصرى فى السنوات الاخيرة من انتشار حوادث قطع الطريق والسطو على البنوك ومحلات المجوهرات وغيرها ، انما جاء محاكاة لمسلسلات أجنبية بثها التليفزيون المصرى مثل حلقات «المفتش كولبى» وحلقات «فالكون كرست» .

ولا شك ان وسائل الاتصال السمعية البصرية الجديدة تفسح المجال واسعا لاعمال العنف والقسوة ويكون تأثيرها مباشرا نظرا لانها تصل لجميع افراد الاسرة. الا أن هذا التأثير يتوقف على مدى التغلغل الثقافى ، وعلى عادات مشاهدى التليفزيون بالاضافة الى عدة متغيرات أخرى فردية وجماعية ، منها خلفية المشاهد ، وسنه ، وجنسه ، والطبقة الاجتماعية التى ينتمى اليها ومدى استعداد شخصيته ونمط المشاهدة الشخصية أو الأسرية والاتجاهات الخيالية (التخيلية) والعدوانية لديه [2] .

٤ – أسباب أخري :

بالاضافة الى العوامل السابقة التى تؤدى الى العنف والسلوك العنيف نستطيع ان نضيف عدة عوامل اخرى . ومن هذه العوامل الجنس (الأصل) ، السن ، الطبقة الاجتماعية ، بالاضافة الى تأثير الثقافة الفرعية للمجتمع المحلى داخل الثقافة العامة للمجتمع . وعن تأثير المجتمع المحلى نجد أن جرائم العنف ترتكب بشكل اكثر فى المناطق المتخلفة عنها المدن الكبيرة ، وربما يرجع ذلك الى عوامل الثقافة الفرعية لتلك المناطق التى تتمثل فى طريقة الحياة هناك والتى

---

(1) Ibid, p. 22.
(2) Ibid, pp. 27 - 28.

تقوم على استخدام القوة [١] .

هكذا تتميز المناطق المتخلفة بالعنف وجرائمه اكثر من غيرها من المناطق ولا يرجع هذا العنف الى الخصائص الفيزيقية وحدها لسكان تلك المناطق ، او الى الفقر وحده الذي يعمها ، وانما يرجع كذلك الى الثقافة الفرعية هناك التى تتمثل فى المعايير الخلقية، والقيم الاجتماعية ، وطرق الحياة الخاصة بهؤلاء السكان والتى تتصف باستخدام القوة .

أما عن تأثير الطبقة الاجتماعية التى ينتمى اليها الفرد فى ارتكاب جرائم العنف فقد دلت دراسة اجريت فى فيلادلفيا بالولايات المتحدة الامريكية ما بين ١٩٤٨ - ١٩٥٢ على أن ٩ من كل ١٠ من مرتكبى الجرائم العنيفة كانوا من طبقة اجتماعية دنيا . وقد اشارت هذه الدراسة ايضا الى أن الجنس له تأثير قوى في ارتكاب جرائم العنف ، فالرجل الاسود فى امريكا اكثر ميلا للعنف من نظيره الأبيض هناك [٢]. ومن ثم سمى هذا العنف بعنف الزنوج أو العنف الأسود * .

جـ - اشكال العنف :

١ - **عنف الأقليات** : وخير مثال له العنف «الاسود» ، والمقصود بالعنف الاسود عنف الرجل الزنجى الاسود الذى يأتى من محاولته للخلاص من سيطرة الرجل الابيض وحصوله على حقوقه كاملة فى مجتمع يهدر تلك الحقوق.

وعنف الزنوج معروف منذ القدم فى امريكا وفى جنوب افريقيا نظرا لاضطهاد المجتمع لهم وعدم تمتعهم بحريتهم ومن ثم عدم حصولهم على حقوقهم

---

(1) Marshall B. Clinard & Richard Quinney, Criminal Behavior Systems, A Typology, Holt, Rinehart and Winston,Inc., New York, 2nd Edition, 1973, p. 35.
(2) Ibid., p. 37.

* لنا عود للحديث عن هذا النوع من العنف عدما نعرض لاشكال العنف .

مما يؤدى بهم الى نوع من الانفجار يتبعه عنف وجرائم عنيفة نسمع عنها كل حين.

ويظهر العنف الأسود فى أمريكا من خلال التفرقة التى يقيمها المجتمع نفسه على أساس العلاقات العرقية (السلالية) [1] فهذا جنس أبيض هو سيد المجتمع فى حين ان الجنس الاسود المضطهد يعيش فى قاع المجتمع ويمثل أدنى المراتب الوظيفية والطبقات الاجتماعية . هذا الشعور بالظلم والألم والاحساس بالخديعة من قبل الرجل الابيض ولد العنف بأقصى صوره لدى الرجل الأسود وتشهد السنوات على تكرار تلك الاحداث العنيفة .

يرى توينبى Toynbee ان الرجل الزنجى الامريكى« اراد ان يتحرر ويتوحد مع جسم المجتمع الابيض ويأخذ حقوقه كاملة وكان فى كل مرة يطلب فيها هذه الحقوق يصاب بالاحباط والفشل ، ومن ثم استطاع ان يجد لنفسه طريقة حياة جديدة بعيد عن المجتمع الابيض ، تقوم هذه الطريقة التى اختارها الرجل الاسود على العنف بشتى صوره . وما زالت الأحداث الدموية العنيفة تتكرر مرارا ويتسع مداها » [2] .

يبدو أن هذا العنف قد نتج عن محاولة استعادة الرجل الاسود كرامته وحقوقه، وكثيرا ما يتعاطف معه بعض الباحثين مؤكدين على مشروعية هذا العنف والدفاع عنه ، فهذا "Frantz Fanon" الذى لا يكتفى بقوله أن العنف مؤثر وفعال بل ذهب الى أبعد من ذلك عندما اكد على أن العنف ذو فائدة ايجابية [3] .

---

(1) George Eton Simpson & J. Milton Yinger, Racial and Cultural Minorities: An Analysis of Prejudice and Discrimination, Harper & Row, Publishers Incorporated, New York, 4th Edition, 1972, p. 184.
(2) Toynbee, A., Experiences, Oxford University Press, London, 1969, p. 248.
(3) George E. Simpson, op.cit., p. 219.

ويرى «فرانس فان» ايضا ان العنف مطلب ضرورى ليس فقط فى كفاح شعب ضد الظلم او الاضطهاد الذى وقع عليه او نضاله للتحرر من سيطرة الآخرين ، بل أيضا ليحرره من مقت نفسه او كرهه لذاته [1] . ويمكن ان نضيف الى هذا الشكل من صور العنف ما تلجأ اليه الأقليات فى مجتمعات مختلفة لاثبات حقوقها بمظاهرات احتجاج او اللجوء للسرقة واشعال الحرائق والقتل.

٢ - العنف الطلابى : أحدث عنف الطلاب - فى أواسط الستينات من هذا القرن - واضراباتهم واقتحاماتهم الكثيرة لمبانى الجامعات واداراتها ضجة سمع بها العالم ، فمن باريس الى كاليفورنيا الى طوكيو الى بيروت كان طلاب الجامعات هم سادة الموقف . وإذا تساءلنا عن الاسباب الاساسية التى دفعت الطلاب الى الاتجاه الى العنف فى التعبير عن وجهات نظرهم ، نجد تفسيرا مقنعا لدى «برونو بتلهايم» Bruno Bettelheim ، لقد بنى تفسيره لظاهرة العنف الطلابى على افتراض وجود خواء اخلاقى فى حياة الشباب الجامعى الثائر ، خال من الاحساس برسالة اخلاقية لوجوده كله ، وبالتالى احساسه بتفاهة الحياة. لقد اخفقت تربيتهم فى اعطائهم هدفا رفيعا يصلح أن يكون رمزاً ، أو محورا ينظمون حوله خبراتهم ويبنون عليه طموحاتهم الانسانية. هذا الفراغ الاخلاقى لدى الطالب يعوضه بتبنى أهداف اجتماعية أخرى كالاحتجاج او بالثورة على النظام ككل [2] .

ويرى «باتلهايم» وغيره من أصحاب هذا التفسير أن ما يوقد العنف الطلابى هو التحول الطارىء على موقف المجتمع من الاجيال الشابة عموما. هذه الأجيال التى صار المجتمع الحديث يطيل من أمد اتكالها عليه ، ويعفيها أطول فترة ممكنة من تعلم حمل المسئولية الاجتماعية . وبهذا يطيل المجتمع من فترة

---

(1) Ibid, p. 219.

(٢) محمد جواد رضا ، مرجع سابق ، ص ١٥٥ .

المراهقة عن غير وعى ولا قصد ، ولذلك فاننا حتى على مستوى الجامعة نتعامل من حيث الواقع مع «مراهقين» لم يستكملوا أسباب الرشد الاجتماعى [1]. هذا وينتظر المراهق الحياة الحقيقية علي أن هذا الانتظار هو الذى يخلق مناخًا مناسبا للاستجابة لدواعى العنف بين الشباب ، العنف الذى يعطيهم احساسا بأنهم رجال حقيقيون او نساء حقيقيات . كما قد يعزو البعض تفسير عنف الشباب بالفواصل او الحواجز الثقافية بين الأجيال ، ومازلنا حتى الآن نسمع عن عنف الشباب وعنف الطلاب وانتقاداتهم للاجيال الاكبر سنا .

وعلى أى حال فان الصورة السابقة صورة ناضجة - إن صح التعبير - من صور العنف ، فهى تعبر عن توجهات ايديولوجية ونزعة نحو التغيير الى الافضل، لكنها ليست الصورة الوحيدة للعنف بين الطلاب والشباب ، فيكفى أن نطلع على الجرائد اليومية فى مجتمعنا لنجد مدى اسهام الطلاب والشباب المنحرف ، فى ارتكاب صور عديدة للعنف ، من سرقات واغتصاب وقتل تعبر عن عديد من العوامل والاسباب التى وقفت وراد تنشئتهم بطريقة غير سوية.

٣ - العنف الرياضي :

أصبحت ظاهرة العنف من الظواهر التى نجدها واسعة الانتشار فى الملاعب الرياضية وفى المجال الرياضى ، والعنف فى الرياضة ليس بظاهرة حديثة فى المجال الرياضى ، وإنما هى ظاهرة قديمة قدم الرياضة التنافسية إلا أن العنف قد اتخذ الآن اشكالا جديدة حتى وصل الأمر الى صور من القتل والاعتداء والحرق والتدمير .

ومنذ أن وجدت الرياضة ، وحتى فى اليونان القديمة التى كانت تربط بين التفوق البدنى والتفوق الفكرى والاخلاقى ، كان العنف ملازما للرياضة فمن

---

(١) نفس المرجع ، ص ١٥٦ .

الألعاب اليونانية القديمة إلى العاب المدرج اليوناني ، ومن مبارزات القرون الوسطى ، أو الصراع بين الحيوانات حتى الموت الى الملاكمة بدون قفاز وحتى الاجهاز على الخصم ، كانت المجابهة البدنية في الكثير من الأحيان قاسية ودامية. وقد حاولت السلطات مرارا عبر التاريخ منع الممارسات القديمة التي كان قوامها رياضات بدنية تؤدي الى احتدامات عنيفة [1] . تبتعد الرياضة الحديثة ، اذا قورنت بالعهود السابقة ، عن الممارسات العنيفة الى حد كبير ، وهذا ما دفع المؤرخ الرياضي «جورج فيغاريلو» الى القول بان الرياضة الحديثة هي وليدة تهذيب للعنف ، فقد أصبح اللعب أقل خشونة ، وغدا الالتحام البدني أقل عنفا وأقل خطورة والسلوك اكثر انضباطا ، وفوق كل ذلك ، يخضع لرقابة اكثر احكامًا [2] .

ويمكن تصنيف احداث العنف التي تطرأ أثناء سير اللقاءات الرياضية، بحسب ما يترتب عليها من نتائج قانونية ضمن الفئات الثلاثة الآتية :

أ مخالفات قوانين اللعب : وتقع هذه المخالفات تحت طائلة التحكيم .

ب - الاعتداء المتعمد ضد اللاعبين الاخرين .

ج - الاعمال الاجرامية : وهي نادرة الحدوث ويترتب عليها اللجوء الى العدالة.

ويمكن للعنف أن يتخذ اشكالا أخرى ، مثل العنف النفس عندما يهدد رياضي خصمه او الحكم أو عندما يوجه اهانات اليهما أو يحاول تخويفهما ، او عندما يستثير مدرب حماس فريقه ويطالبه بالفوز بأي ثمن [3] .

---

(١) يحيى كاظم النقيب، علم النفس الرياضي ، معهد إعاد القادة اللجنة المسعودية للتربية البدنية والرياضة ، ١٩٩٠ ، ص ٣١٣ .
(٢) نفس المرجع ، ص ٣١٤ .
(٣) نفس المرجع ، ص ٣١٦ .

ولقد ظهر العنف ايضا بين صفوف الجمهور الرياضى ، حيث تزايدت الاحداث العنيفة التى يسببها المتفرجون خاصة فى مباريات كرة القدم فى السنوات العشر الأخيرة ، سواء فى المنافسات الوطنية أو الدولية أو اثناء المباريات المحلية . ومن ثم تزايدت أعداد قوات حفظ الأمن ، نظراً لانتشار هذا العنف فى كثير من الأحيان الى أبعد من محيط الملاعب ، فيظهر فى الشوارع وفى وسائل النقل وغيرها .

٤ - العنف الاسري :

نهتم فى دراستنا هذه ببحث أسباب وعوامل العنف فى العلاقات الأسرية وذلك للوقوف علي صور العنف داخل نطاق الأسرة ومدى تغلغل هذه الصور بين أفراد الأسرة الواحدة ، وبحث اسبابها ونتائجها . والواقع أن الاهتمام بالعنف داخل الاسرة ومعرفة أنماط معينة منه مثل توجيه السباب الى الأبناء أو الزوجة أو حتى الزوج - قد نما بصورة ملحوظة أثناء السبعينيات [١] .

وقد تطور هذا العنف الى صور أبشع حتى وصل لدرجة القتل بين أفراد الأسرة الواحدة .

إن نظرنا الى مدينة نيويورك كنموذج للمجتمع الحضرى سنجد أن العنف الاسرى يشكل نسبة عالية من ارتكاب الجرائم تبلغ ٣٥٪ من حوادث القتل فى عام ١٩٦٥. فقد آشار «مورتون بارد» M. Bard فى مقال له[٢] إلى أن سبعة أخوة قد قتلوا فى هذا العام على أيدى أخوة لهم ، كما قتلت آختان اختين لهن، أما ما يثير الدهشة فهو أن تقدم الأمهات على قتل أحد عشر أبنا وثلاث عشرة

---

(١) محمد عبده محجوب ، انثروبولوجيا الزواج والأسرة والقرابة ، السلسلة السوسيوانثروبولوجية، الكتاب الاول ، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية ،١٩٨٥، ص ٣٨٠.

(2) Morton Bard, "The study and Modification of Intra - Familial violence", in J.L. Singer (ed.) op.cit., p. 149.

أبنة ، كما قتل الآباء فى نفس المدينة خمسة أبناء وأبنة واحدة . كذلك أقدم الازواج على ارتكاب اربعين حالة قتل لزوجاتهم ، بينما قتلت الزوجات سبعة عشر زوجا لهن .

وقد كانت العلاقات الاسرية القريبة جدا هى الطابع المميز لكل حالات القتل السابقة - إن لم تكن السبب الرئيسى وراءها - والتى تمت داخل نطاق الأسرة النواة أو الاسرة الأولية .

أماباقى حالات جريمة القتل داخل المدنية فقد لوحظ أن ٢٠٪ منها قد وقعت بين أناس لا تربطهم علاقات قرابة بل أغراب تماما ، بينما احتلت حوادث الخطف والاغتصاب المقترنة بالقتل نسبة تبلغ ٤٠٪ .

وبالنظر الى حالات القتل التى تمت داخل نطاق الاسرة وتبلغ ٣٥٪ ومقارنتها بما نتوقعه من حياة الأسرة داخل منزل واحد يكتنفه مجموعة من قيم الود والمحبة لا نملك إلا أن نردد قول «مالينوفسكى» : « يبدأ العدوان - مثله مثل المحبة - من المنزل» [١] .

هكذا يبدأ العدوان الانسانى من العلاقات القريبة ذات النطاق الضيق على ما يقول «مالينوفسكى» هذا ويرى بعض الباحثين ان العدوان أقدم من الانسان[٢]. ولقد دفع قول مالينوفسكى بعض الباحثين فى علم النفس وعلم الاجتماع وغيرهم الى معرفة أصل هذا العدوان ؛ حيث يعلن عالم الاجتماع «جورج زمل» G. Simmel الذى يتفق الى حد كبير مع «مالينوفسكى» أن العداء هو سمة أساسية للعلاقات الاجتماعية الخاصة والقريبة جدا . ويرى عالم النفس «سيجموند فرويد» S. Freud أن البشر سواء حين يدخلون الحياة بغرائز

(1) Ibid, p. 150.
(2) Ervin Staub,"The learning and Unlearning of Aggression" The role of Anxiety, Empathy, Efficacy, and Prosocial values, in J.L. Singer (ed.), op.ci., p. 93.

حيوانية لا أخلاقية ، وبنزعات عدوانية . ومن ثم اشار «زمل» و «فرويد» الى «الشعور العدوانى» فى محتواه الاجتماعى أو فى سياقه الاجتماعى . ويشير «مالينوفسكى» - كما سبق أن ذكرنا - الى السلوك العدوانى فى حدود العلاقات الاجتماعية الضيقة ، ويؤكد على سهولة حدوث مثل هذا السلوك فى نطاق تلك العلاقات .

ولقد أدت ملاحظات عالم الاثولوجى Lorenz* لسلوك الحيوان الى قوله : «حقًا يوجد العدوان بدون مقابله - الحب - ولكن العكس لا حب بدون عدوان [١] .

ويمكن ان نوجز ما قاله كل من «زمل» و «فرويد» و «مالينوفسكى» و لورنز» فى عبارة واحدة :

ترتبط قوة «كثافة» التفاعل العدوانى بضيق نطاق العلاقات القرابية، هذا عن العنف الاسرى ومدى ارتباطه بالجريمة والسوك العدوانى» .

بالاضافة الى هذه الاشكال من العنف توجد اشكال أخرى كالعنف المتبادل بين الاستعمار الصهيونى وعرب الارض المحتلة فى فلسطين ، والعنف المتبادل أيضا بين العمال وأصحاب العمل ، بالاضاف الى حالات القتل الجماعى وخطف الطائرات وتعريضها وركابها للخطر ، وخطف الشخصيات الهامة كالدبلوماسيين ... الخ .

وإذا كان العنف يرتبط بالسلوك العدوانى داخل نطاق الاسرة وخارجها ، فان نتيجة العدوان الطبيعية هى ارتكاب الجريمة ، فما الجريمة ؟

---

(١) يستخدم مصطلح الاثولوجي Ethology ليشير الى جانب من دراسات السلوك الحيوانى ومقارنته بالسوك الانسانى .

(2) Morton Bard, op.cit., pp. 151 - 152.

ثانيا : الجريمة

أ - تعريف الجريمة :

الجريمة Grime هى «أى فعل يحدث أذى أو ضرر بينا بالآخرين ، أو هى سلوك يسبب خروجا على قوانين المجتمع ، وخرقًا لتقاليده ، ويقابل المجتمع هذا السلوك أو العمل بالجزاء» [1] .

والجريمة سلوك ينتهك القواعد الاخلاقية ، التى وضعت لها الجماعة جزاءات سلبية ذات طابع رسمى [2] .

ويعنى مصطلح الجريمة فى نظر رجال القانون الاطار النموذجى لما يعتبره المشرع خروجا على أوامره أو نواهيه فيقرر من أجله العقاب، والجريمة تعنى العدوان ، فهو الاساس فى تعريف النموذج القانونى للجريمة حديثا ، وهو أيضا - أى العدوان - الاساس فى كل الافعال التى تلحق بالغير ضررا وتستوجب رد فعل لهذا الضرر [3] .

واذا اعتبرنا الجريمة فعل يحرمه القانون ويعاقب عليه أمكن ادراك ان الدول تختلف فيما بينها فى تقييم الافعال الاجرامية ، بل ان الدولة الواحدة قد يختلف فيها تقويم الجرائم من فترة الى أخرى . هذا وقد حاول بعض علماء الاجرام توسيع نطاق تعريف الجريمة ، بادخال بعض اشكال السلوك المنحرف ذات الأهمية الاجتماعية . فقد اشار «سذرلاند Sutherland فى مؤلفه : «جرائم الياقة

---

(١) شاكر مصطفى سليم ، «جريمة» ، قاموس الانثروبولوجيا ، الكويت ، الطبعة الأولى ، ١٩٨١ ، ص ٢١٨ .

(٢) محمد عاطف غيث ، «جريمة» قاموس علم الاجتماع ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، الاسكندرية ، ١٩٧٩ ، ص ٩٤.

(٣) حسن صادق المرصفاوى ، «الدفاع الاجتماعى ضد الجريمة ووضعه فى المجتمع العربى » ، مجلة عالم الفكر ، المجلد الرابع ، العدد الثالث ، الكويت ، ١٩٧٣ ، ص ٤٠ .

البيضاء» الى بعض صور السلوك التى يمارسها كبار رجال الاعمال الصناعية والتجارية باعتبارها صوراً انحرافية من وجهة النظر الاجتماعية ، وان كانت لا تشكل من الناحية القانونية جرائم [١] .

وغالبا ما تصنف الجرائم الى ثلاثة أنماط [٢]، فهى إما جرائم ترتكب ضد الدولة أو ضد الاخلاق (الفضيلة) أو ضد الاشخاص ، وتعتبر جرائم الخيانة أو جرائم التدمير أمثلة لجرائم النمط الاول ، فى حين أن جرائم جنس معين أو جرائم القمار أمثلة لجرائم النمط الثانى ، والاغتصاب والسرقة هى أمثلة للنمط الأخير من الجرائم .

ب -قدم الجريمة :

الجريمة قديمة قدم المجتمع الانسانى ذاته ، فهى موجودة منذ ان وجد الانسان على سطح الأرض ، وجريمة القتل بين ولدى آدم قابيل وهابيل هى أبلغ نموذج لجرائم العنف الاسرى ، ولا يوجد مجتمع يخلو من الجريمة سواء كان مجتمعا متقدما فى نظمه او متخلفا ، إلا أنها تختلف فى قوامها ومدى انتشارها فقا لقيم وتقاليد وقوانين جماعة معينة فى وقت محدد وفى مكان محدد . بل ان المجتمعات الاكثر تقدما وتطورا تنشأ فيها صور جديدة من الاجرام ، لا سيما حين يتم التغيير بخطى سريعة قد لا نستطيع الأفكار والتقاليد السائدةمسايرته ، فتختل القيم وتضطرب الموازين فى المجتمع ، مما يسفر عن صعوبة الاهتداء الى السبيل القويم فترتكب الجرائم . وظهرت على وجه الخصوص الجرائم التى برزت

(١) محمد عاطف غيث ، مرجع سابق ، ص ص ٩٤ - ٩٥ .

(2) Negley K. Teeters, "Crime", in William D. Halsey & Bernard Johnston (ed.), Collier's Encyclopedia, Macmillan Educational compamy, Vol. 7, 1988, p. 437.

حديثا بشكل ملموس - فى اعقاب الحرب العالمية الثانية - وهى التى تمس الجوانب الاقتصادية من الحياة [١] .

وعلى إى حال يهتم الباحثون فى الانثروبولوجيا وعلم النفس ، وعلم النفس الاجتماعى وعلم الاجتماع بتحليل الجريمة [٢] . ولقد نسج الانسان حول الجريمة الاساطير والحكايات و وصفها الادباء والشعراء وجادل حولها الفلاسفة والحكماء، وتصدى لها رجال العدل والشريعة والقانون ، ودرسها علماء النفس والاجتماع وأطباء العقل والبدن [٣] .

١ - الجريمة عند البدائيين :

ترتبط الجريمة فى أى مجتمع من المجتمعات بثقافة هذا المجتمع ، نظراً لان للعوامل الثقافية أثر كبير على ارتكاب الجريمة [٤]. ومن ثم ارتبطت الجريمة لدى الرجل البدائى بثقافته البدائية المحدودة . وقد بدأ بعض الرحالة وعلماء الاثنوجرافيا والانثروبولوجيا الثقافية بدراسة بعض القبائل الافريقية المتناثرة ليصوروا كيف يعيش الرجل الافريقي بوصفه ممثلا لأدنى مراحل التطور البشرى ، والتى لم تكن لترتفع به عن مستوى بعض انواع الحيوان [٥]. وتتصل جريمة

---

(١) حسن صادق المرصفاوى ، «البيئة والجريمة» ، مجلة عالم الفكر ، المجلد السابع ، العدد الرابع ، ١٩٧٧ ، ص ٧٦.

(2) Donald R. Cressey, "Causes of crime", in David L. Sills (ed.), International Encyclopedia of the Social sciences, The Macmillan company & the Free Press, New York, Vol. 3-4, 1968, p. 471.

(٣) عدنان الدورى ، «الجريمة والمجرم : مشكلة الانسان ومعضلة الحضارة» ، مجلة عالم الفكر ، المجلد الخامس ، العدد الثالث ، ٢٩٧٤ ، ص ١٣ .

(4) Michael Phillipson, Sociological Aspects of Crime and Delinquency, Routledge of Kegan Paul, London, 1971, p. 57.

(٥) أحمد ابو زيد، التصنيع والتغير الاجتماعى فى افريقيا ، مطبوعات ، جامعة الكويت ، ١٩٦٩ ، ص ص ١ ، ٢.

البدائي بأسس حياته البدائية وثقافته البدائية ، والرجل البدائى يثور لاتفه الاسباب، ويثأر بكل عنف وقسوة . وهو مقاتل بالفطرة نظرا لان القتل كان جزءا من متطلبات العيش وسببا من اسباب البقاء . فهو يقتل فى سبيل الدفاع عن النفس ، أو عن المال ، وقد يقتل فى سبيل التسلط والتملك والاقتناء . وهو انسان يندفع باقصى غرائزه ساعيا الى اشباعها بكل حرية وقوة .

وتبدو جريمة البدائى على انها جزء صغير من نسيج ثقافى متلاصق لا يستطيع البدائى العيش خارجه ، انه عقل الجماعة الذى يصبغ ملامح شخصية البدائى ، وذلك من خلال ما يفرضه من ممارسات كاملة لطقوس وعادات اجتماعية تحقق الحد الاقصى للولاء والتماسك الاجتماعى [1] .

والقانون البدائى – الذى يحكم ويقرر عقوبة الجرائم – مرن فى عمومه ، كما أنه لا يشتمل على نصوص وصيغ قانونية جامدة أو محددة تتقيد بها «الجماعة» أو «الهيئة» أو «المجلس» الذى ينظر فى القضايا بحيث يتحتم عليه اصدار احكام معينة بالذات فى الحالات المتشابهة . وكل ما يوجد فى هذه المجتمعات هو بعض قواعد العرف العامة التى تتوارثها الاجيال المختلفة وتسترشد بها تلك المجالس فى دراستها للقضايا فى إصدار احكامها . ويراعى أن يؤخذ فى الاعتبار الظروف والملابسات التى احاطت بالجريمة او بالفعل الخطأ على العموم، وأيضا الاعتبارات الشخصية والاجتماعية مثل اعتبارات السن والجنس والمركز والقرابة ، وهى اعتبارات لها أهميتها وقيمتها فى تماسك المجتمع ووجوده واستمراره [2] .

---

(١) عدنان الدورى ، مرجع سابق ، ص ١٨ .

(٢) أحمد ابو زيد ، «العقوبة فى القانون البدائى» ، المجلة الجنائية القومية ، المجلد العاشر ، العدد الثالث ، نوفمبر ١٩٦٧ ، ص ص ٤١٤ ، ٤١٥.

٢ - الجريمة عند الاغريق :

عرفت الجريمة وما يرتبط بها من عقاب فى المجتمع الاغريقى القديم ، ومن ثم حدد الاغريق القدماء دور العقاب تجاه الاطفال وذلك من خلال وضع نوع من الضبط على سلوكهم من أجل الحفاظ على القيم الاخلاقية التى كانت تحكم مجتمعهم [1] . ولقد تناول كل من «سقراط» و «أفلاطون» «أرسطو» موضوع الجريمة والعقاب بالدراسة والتحليل ، فهذا «سقراط» الذى كان يؤمن بقدرة العقل البشرى على صد دوافع الشهوة ورد نوازع الهوى ، وأراد أن يربط بين المعرفة والفضيلة ، حيث يرى أن الفضيلة ذاتها وليدة المعرفة ، اذ متى عرف الانسان الخير بعقله حرص على الالتزام به ، ومتى أدرك الشر بعقله مال عنه . وكذلك اعتقد «سقراط» بأن الانسان الجاهل وحده هو الذى يرتكب الشر والخطيئة والجريمة، وذلك لجهله وعدم معرفته ، فالانسان كما يراه «سقراط» حيوان عاقل ذو طبيعة عاقلة تخضع لشريعة العقل ولحكم العقل وحده [2] .

ويبدو من رأى «سقراط» أن سعادة الانسان تتحقق بسيطرة العقل على دوافع اللذة ومحركات الشهوة وضبط النفس .

أما «افلاطون» فقد أراد ان يستمد أفكاره من القيم المثالية التى وضعها داخل المدينة الفاضلة ، وأصبح مفهوم الخير والشر غايتين لكل فعل اخلاقى ، فهو يعتقد بأن الجسم البشرى مصدر كل الشرور ولذلك طلب أن يتحرر الانسان من شرور الجسد ، وينصرف عن اللذات الحسية ، ويلتزم جانب الزهد والحرمان.

ويعتبر «أرسطو» أول من تنبأ بعلم فراسة اجرامى Physiognomy حين أشار

---

1) Edward G. carr, Contingency Management in Arnold P. Goldstein and Others, (ed.) In Response to Aggression, Pergamon Press Inc., New York, 1981, p. 2.

(٢) حسن شحاته سعفان ، علم الجريمة ، الطبعة الثانية ، ١٩٦٢ ، ص ١٦ .

فى كتابه «رسالة الروح» الى امكانية التعرف على اخلاق الانسان من خلال بعض سماته الجسدية الظاهرة ، كلون شعره ولون بشرته وطول قامته أو غيرها من السمات البدنية الظاهرة . كما أتى «أرسطو» بمذهب جديد وهو مذهب الاعتدال ، حيث ينادى بالاعتدال بين الافراط والتفريط [1] . هذا هو مذهب الوسط الذى نادى به ارسطو حيث تقع أى فضيلة - فى رأيه - فى الوسط لا افراط ولا تفريض وكلاهما رزيلة وطبق هذا الرأى على موضوع الجريمة .

ومن أجل الحفاظ على القيم الاخلاقية داخل المجتمع الاغريقى القديم ، حدد المجتمع أسس السلوك الصحيح من السلوك غير الصحيح ، وذلك بفرض العقاب على كل فرد داخل هذا المجتمع ، حتى يتسنى للجميع أن يسلك سلوكا صحيحا ، حيث أعطى المجتمع للآباء حق العقاب الفيزيقى تجاه ابنائهم كطريقة لضبط سلوكهم . هذا مع ذيوع الفكرة لمعروفه لدى هذا المجتمع بضبط النفس Self-Control [2] ، وذلك لمنع حدوث العدوان .

وقبل أن نعرض للمدارس التى ظهرت لبحث ودراسة عوامل الجريمة يجب ان نعرف أولا علم الاجرام :

جـ - علم الاجرام ومدارسه :

علم الاجرام هو العلم الذى يهتم بدراسة أسباب واشكال السلوك الاجرامى، كما يدرس ايضا طبيعة وكيفية معاملة المجرمين ، هذا بالاضافة الى الاهتمام بالطرق التى يمكن استخدامها لمنع الانحراف .

---

(1) M.J. sethna, Society And the Grininal, Kitab Mahal, Bombay, 2nd Edition, 1964, p. 212.
(2) Edward G. Carr & Jody A. Bink off, "Self-Control", in Arnold P. Goldstein and Others (ed.) op. cit., p. 110.

وعلم الاجرام هو علم تطبيقى ويستمد أصوله من عدد من العلوم الاجتماعية ، كعلم الاجتماع ، الانثروبولوجيا ، علم النفس ، الصحة النفسية، القانون ، الخدمة الاجتماعية ، وعلم النفس الاجتماعى . ومن ثم يعتمد علم الاجرام علي تلك العلوم السلوكية التى أدت الى تعدد المداخل التى تميز علم الاجرام الحديث [1].

ويشتمل علم الاجرام على دراسات متداخلة مع العلوم الاجتماعية التى سبق الاشارة اليها مثل [2]: طبيعة واشكال ومجالات الافعال الاجرامية ، وتوزيعها الاجتماعى والجغرافى والزمنى ، الخصائص الفيزيقية والأصول الاجتماعية للمجرمين والمذنبين ، والعلاقة بين الجريمة والسلوك الشاذ . السلوك غير الاجرامى واللااجتماعى فى الوقت ذاته ، وبخاصة ما يدخل فى نطاق الجريمة فى بعض البلاد ، ولا يعد كذلك فى بلاد أخرى . اجراءات البوليس والمحاكم التى تشمل دراسة ممارسة الحكم والمؤثرات الاجتماعية على القضاة والمحلفين ، وبعض المشكلات المتعلقة بالشهود والأدلة . وسائل العقوبة ، وتدريب وتهذيب مرتكبى الجرائم، أساليب منع الجريمة والوقاية منها ، البناء الاجتماعى والتنظيمى للاجهزة الجنائية والنظم العقابية ، ويرى بعض العلماء أن علم الجريمة يشتمل على دراسات اخرى فى أصول وتطور القانون الجنائى ، والاتجاهات العامة نحو الجريمة والمجرمين» .

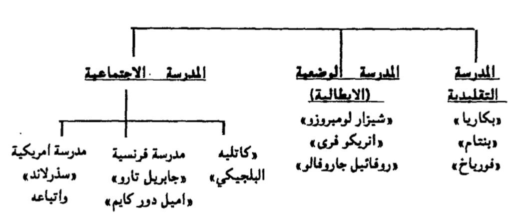
ونعرض الآن للمدارس التى ظهرت لبحث ودراسة مسببات الجريمة ، وبحثت ايضا مجموعة العوامل التى تؤدى الى السلوك الاجرامي .

ونستطيع ان نقسم المدارس التى قامت ببحث ودراسة عوامل الجريمة فى :

---

(1) Francis A. Allen., "Crininology", In Collier's Encyclopedia, op,.cit, p. 464.

(٢) محمد عاطف غيث ، علم الاجرام ، قاموس علم الاجتماع ، ص ٩٦ .



١ - المدرسة التقليدية :

ظهرت هذه المدرسة فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر فى فرنسا، ويعتبر «بكاريا» Beccaria (١٧٣٨ - ١٧٩٤)[1] رائد هذه المدرسة حيث كان لكتابه عن الجرائم والعقوبات عام ١٧٦٤م صدى عميق لدى بعض المهتمين بالجريمة .

ويقول «بكاريا» أنه «لا يجوز ان تكون العقوبة عمل عنف يصدر من فرد أو اكثر ضد فرد آخر من افراد المجتمع ، ولكن ينبغى أن تكون فى أقل قدر ممكن بالنسبة الى الحالة الى توقع فيها ، وينبغى ان تكون متناسبة مع الجريمة ومحددة بناء علي قانون» [٢] .

هذا ويرى «بكاريا» أن السرقة هى عادة جريمة الفقراء .

ومن اعلام هذه المدرسة «جيرمى بنتام» في انجلترا (١٧٤٨ - ١٨٣٢) [٣] ونورباخ فى المانيا ، وقد استندا الى نظرية المصلحة الاجتماعية فى تبرير

---

(1) Francis A. Allen, op.cit., p. 464.

(٢) حسن صادق المرصفاوى ، «الدفاع الاجتماعى ضد الجريمة ووضعه فى المجتمع العربى» ، مرجع سابق ، ص ٤٩ .

(3) Francis A. Allen, op.cit., p. 465.

العقوبة، فهي وسيلة ضرورية لتحقيق مصلحة مشروعة للمجتمع في مكافحة الاجرام ، ومن ثم يجب ان تكون العقوبة رادعة . ويتحقق الردع بأن يكون الضرر الذى يلحق بالمجرم نتيجة لها ، اكبر من النفع الذي يحصل عليه من الجريمة، فهما يناصران سياسة الردع والارهاب والقسوة فى العقاب خلافا لآراء «بكاريا» الذى يرى أن يكون العقاب بالقدر الضروري متأثرا بفكرة العقد الاجتماعي [١] .

ولقد أهتم أصحاب هذه المدرسة بتحليل الجريمة كظاهرة اجتماعية .

٢ - المدرسة الوضعية (الايطالية)

تعتبر المدرسة الوضعية من أشهر المدارس فى بحث عوامل الجريمة، ومن أهم مؤسسيها «سيزار لومبروزو» Cesar Lombroso (١٨٣٦ - ١٩٠٩)، «وانريكوفرى» (١٨٥٦ - ١٩٢٩) و «روفائيل جاروفالو» Roffaele Garofalo (١٨٥١ - ١٩٣٤)[٢] ، وقد حاول هؤلاء استخدام مناهج الانثروبولوجيا فى محاولتهم وضع نظرية بيولوجية عامة عن الجريمة .

ويعتبر «لومبروزو» من مؤسسى الانثروبولوجيا الجنائية * - بالرغم من أنه طبيب ايطالى - لأنه عمل استاذا لها بجامعة Turin (تورين) ، وله نظرية مؤداها أن المجرم شخص وسط بين المجنون Lunatic والمتوحش Savage، وأن هذا الاجرام « حصيلة شذوذ طبيعى ، عصبي وعقلى [٣] ، ولقد اهتم «لومبروزو» بالمميزات العضوية للمجرم وأنها - فى رأيه - هي السبب فى حدوث الجرائم ، ويرجع الاجرام الى عوامل وراثية وانحطاط طبيعى ثم أهتم «لومبروزو» فى

---

(١) حسن صادق المرصفاوى ، «الدفاع الاجتماعى ضد الجريمة ووضعه فى المجتمع العربى» ، مرجع سابق ، ص ٥٠ .

(2) Francis A. Allen, op.cit., p. 465.

* فرع من الانثروبولوجيا تدرس المقاييس الجسمية ، والصفات الطبيعية للمجرمين ، لتقرير علاقة تلك المقاييس والصفات بالاجرام .

(3) Charles Winick, Dictionary of Anthropology, Philosophical Library, Ic, New York, 1956, p. 29.

مرحلة لاحقة بالظروف الاجتماعية التى تحيط بالمجرم، ودمج بين الناحيتين العضوية والاجتماعية .

يعتبر «انريكو فرى»Enrico Ferri أحد تلاميذ لومبروزو من أعلام المدرسة الوضعية الايطالية ، وقد وافق لومبروزو على وجود مجرم المولد إلا أنه أقر بأهمية عوامل أخرى فى احداث الجريمة غير العوامل البيولوجية، ومنها العوامل الانثروبولوجية والاجتماعية التى تحيط بالمجرم كالوسط الاجتماعى الذي يعيش فيه المجرم ، ميول السكان واتجاهاتهم ، العادات ، المعتقدات الدينية السائدة فى ذلك الوسط ، والظروف الاقتصادية، بالاضافة الى طبيعة الأسرة.

ولقد قسم «فرى» Ferri انماط المجرمين الى :

المجرم بفطرته ، المجرم المجنون ، المجرم بالعاطفة ، المجرم بالصدفة، والمجرم المعتاد ، وقد اتفقت آراء اصحاب هذه المدرسة على هذا التقسيم ، وقد اقترح «فرى» نمط سادس وهو المجرم المضطر Involuntary Criminal [1] ، الذى تضطره الظروف لارتكاب الجريمة ، أو أنه يرتكب الجريمة بطريقة لا إرادية. هكذا أرجع «فرى» الجريمة الى مجموعة عوامل بيولوجية ونفسية واجتماعية بيئية واقتصادية ، وهذه العوامل تختلف وفقا لاشخاص المجرمين وانواع الجرائم المرتكبة [2].

ويعتبر «جاروفالو»هو العضو البارز الثالث فى المدرسة الايطالية لعلم الاجرام أو كما تسمى فى بعض الكتابات باسم المدرسة اللومبروزية نسبة الى مؤسسها لومبروزو الذى جاء بالافكار الاساسية وتبعه «فرى» و «جاروفالو»[3] .

---

(1) Francis A. Allen, op.cit., p. 465.

(٢) حسن صادق المرصفاوى ، «البيئة والجريمة» ، مجع سابق ، ص ٨١.

(3) Edwin H. Sutherland & Donald R. Cressey, Crininology, J.B. Lippincott company, New York, 8th Edition, 1970, p. 52.

ويرى «جاروفالو» أن الجريمة الحقيقية هى الانتهاك الضار للشعور الاخلاقى العام لدى المجتمعات على مدى تاريخ الانسانية، والفكرة الرئيسية لديه تدور حول الجريمة الطبيعية ومدى مسئولية المجرم عن تحديدها، ولا دور للمشرع فى خلقها. ويتفق «جاردفالو» مع «لومبروزو» فى أن المجرم لديه استعداد فطرى أو عضوى للاجرام بحيث أن المجرم يمثل نمط عقلى وبيولوجى محدد . ولكنه بالرغم من هذا فانه يوضح ما للعوامل الاجتماعية والبيئية - كغيره من اعلام هذه المدرسة - من اثر كبير وعميق فى خلق الجريمة والمجرم [1] .

هكذا ركزت هذه المدرسة على دراسة مسببات الاجرام الذى تجمله فى أسباب خاصة بالشخص المجرم ذاته من الناحية الجسمية والعقلية والنفسية والمزاجية من ناحية ، ومن ناحية أخرى أسباب خارجية تتصل بالبيئة التى يعيش فيها المجرم وما يحيط به من ظروف اجتماعية واقتصادية وغيرها.

٣ - المدرسة الاجتماعية :

يمثلها عالم الاجتماع والاحصاء البلجيكى «ادولف كيتليه Adolphe Quetelet (١٧٩٦ - ١٨٧٤) [2] الذى يرى أن الظاهرة الاجرامية تتخلل أى مجتمع وعليه أن يعد نفسه لذلك ، كما يعد نفسه لظاهرة طبيعية . ورأى «كيتليه» أن هناك عوامل اجتماعية تؤثر فى الجريمة كالتعليم والمهنة والفقر والجو وتغير الفصول ، ومن ثم كان «كتيليه» يعطى اهتماما خاصا بالبيئة الطبيعية المحيطة بالفرد من مناخ وشمس وحر وبرد ، وأثر تغيير الفصول على ارتكاب الجرائم ، وللمدرسة الاجتماعية رافدين : فرنسى وامريكى.

---

(1) Francis A. Allen, op.cit., pp. 465 - 466.
(2) Ibid., p. 468.

من أعلام المدرسة الفرنسية «لاكاسان»Lacassagne ، الذى قال فى المؤتمر الدولى الانثروبولوجى الاول ، الذى عقد بمدينة روما فى عام ١٨٨٥، أن لكل مجتمع جرائمه التى تناسبه وتلائم ظروفه الثقافية والاخلاقية والاجتماعية والاقتصادية الخاصة به [١] .

ولقد قال عبارته الشهيرة ليس للجماعة إلا المجرمين الذين تستحقهم» ، وقد عرض لأسباب كثيرة للجريمة ؛ فعلى سبيل المثال ، يرى أن حرارة الجو تؤدى الى ازدياد الجرائم ضد الاشخاص وتصل الى مداها فى الصيف ، فى حين أن الشتاء يؤدى الى زيادة الجرائم ضد المال بسبب البرد وطول الليل واستهلاك كميات من الخمر. ويختلف اجرام الريف عن اجرام الحضر ، فالجرائم فى الريف ذات اتصال بالأصل الغريزى فى الانسان كالانتقام والطمع ، أما جرائم المدن فتتسم بالطابع غير الاخلاقى كالاغتصاب وهتك العرض والضرب الشديد [٢] .

يرى «جابريل تارد »Gabriel Tarde (١٨٤٣ – ١٩٠٩) – أحد علماء الاجتماع الجنائي فى فرنسا ومن مؤسسى علم الاجرام الحديث – أن المجرم وليد الظروف الاجتماعية ، ولكنه لا يرفض أثر العوامل البيولوجية فى ارتكاب الجرائم، وانما يعطى الأولوية للعوامل الاجتماعية . وتقوم الفكرة الرئيسية – لدى تارد – فى نظريته عن الجريمة على قوانين التقليد أو المحاكاة [٣] . فالجريمة – كأى نشاط اجتماعى – يهيىء لها ظروف فسيولوجية وطبيعية ، ولكن تفسر بالرجوع الي القوانين العامة فى التقليد ، ويمتد التقليد الى كل طبقات المجتمع .

أما «أميل دور كايم » Emile Durkheim فلقد أثار تساؤلا هاما – فى معرض حديثه عن الجريمة – وهو «هل من الممكن ان يوجد مجتمع بلا جريمة».

---

(١) عدنان الدورى ، مرجع سابق ، ص ٤٩ .
(٢) حسن صادق المرصفاوى ، البيئة والجريمة ، ص ٨٢ .
(3) Francis A. Allen. op.cit., p. 468.

وجاء رد «دور كايم» أن الجريمة ظاهرة طبيعية توجد في كل المجتمعات على اختلاف درجة تطورها ، بمعنى ان جميع المجتمعات سواء في ارتكاب الجريمة والسلوك الاجرامي ولا يوجد مجتمع بلا جريمة ، ولا يمكن أن نتصور مجتمع خال من الجريمة ايا إن كان نوعها وحجمها .

ولقد توصل «دور كايم» وهو بصدد دراسة الجريمة الى مبدأ [1] Normality of Crime ، واعتبره المبدأ الاساسي عندما نتحدث عن المنظور الانحرافي . وهو أول عالم اجتماع يستخدم هذا المبدأ . ويقصد به أن الظاهرة الاجرامية ظاهرة طبيعية تشيع في جميع المجتمعات المتقدمة منها والمتخلفة على السواء ، وهي لا تنشأ عن اسباب طارئة في المجتمع وانما تنشأ من نفس الكل الثقافي الذي تنتمي اليه ، ولهذا فالعوامل الثقافية لهاأثر فعال في ارتكاب الجريمة ومن ثم يجب تفسيرها وتحليلها من خلال الثقافة السائدة [2] .

وطالما ان الجريمة هي الانتهاك والخروج على القوانين والمعايير الاجتماعية المقررة للسلوك داخل المجتمع ، فان كل فعل - على مايرى «دوركايم» - له رد فعل ، فالفرد الذي يخرق معايير وقواعد السلوك المقررة داخل المجتمع ، على المجتمع ان يقابله بنوع من العقاب والردع حتى يتسنى تحقيق التماسك للمجتمع [3] .

يعتبر «اودين سذرلاند» Edwin Sutherland (١٨٨٣ - ١٩٥٠)، رائد المدرسة الاجتماعية في تفسير السلوك الاجرامي في امريكا .

يرى «سذرلاند» أن السلوك الاجرامي هو سلوك انساني يشترك في الكثير مع السلوك غير الاجرامي . كما يرى أن الفرد يكتسب السلوك الاجرامي ويتعلمه

---

(1) Michael Phillipson, op.cit., pp. 56 - 57.
(2) Ibid., [[. 57 - 58.
(3) John E. Conklin, The Impact of Crime, Macmillan Publishing Co Inc., New York, 1975, pp. 50 - 51.

من اتصاله بغيره واحتكاكه المباشر بالآخرين . ومن ثم فالسلوك الاجرامى لا يورث وهذا دليل على أن هذا السلوك هو نتاج للظروف والعوامل الاجتماعية. ويؤكد سذرلاند على أن السلوك الاجرامى يحدث فى نطاق جماعات الاشخاص الذين تربطهم نوع من العلاقات الودية الوثيقة .

وفى معرض حديثه عن الجريمة وعلاقتها بالمهن والأعمال ، توصل «سذرلاند» الى أن للاقتصاديات دور رئيسى وفعال فى حدوث الجريمة، فى حين أن بعض علماء الاجتماع يسقطون من اعتبارهم هذه الناحية الاقتصادية فى مجال الجريمة [1] .

ومن الشائع ان الفقر يعتبر عاملا رئيسيا فى ارتكاب الجريمة ، وأن مرتكبى الجرائم ينتمون الى طبقات دنيا ، فى حين ان «سذر لاند» عرض للجرائم التى يرتكبها رجال الأعمال وأصحاب المهن التجارية الضخمة وهى التى اطلق عليها جرائم الياقة البيضاء [2] .

ويعتبر «سذرلاند» أول من وضع أسس نظرية «جريمة ذوى الياقات البيضاء» [3] ولقد درس الوضع فى المجتمع الامريكى واستطاع ان يدرج رجال الاعمال وأصحاب الاعمال التجارية والصناعية مع المجرمين وأصحاب السلوك الاجرامى . وقد مثل لهذه الجرائم بالتهريب والتهرب من الضرائب ، والرشوة ، والفساد السياسى ، والانتهاك القانونى للقوانين ، والتستر على التسيب والانجاز الفاسد أو الغش المنظم ، هذا ويرى البعض أن الجريمة تعتبر طريقة للحياة

---

(1) Edwin H. Sutherland, "White - Collar Criminality", in Gilbert Geisand & Robert F. Meier, White -Collar Crime, Offenses in Business, Politics and the professions, The Free Press, Adivision of Macmillan Publishing Co., Inc., New York, 1977, p. 38.
(2) Ibid, pp. 39 - 40.
(3) Marshall B. Clinard, "White - Collar Crime", In International Encyclopedia of the Social Sciences pp. 484 - 485.

في الولايات المتحدة الامريكية [١].

هذه هي أهم المدارس التي تناولت بالدراسة والتحليل الظاهرة الاجرامية والسلوك الاجرامي وظهرت فيها التخصصات المختلفة لكل مدرسة وهي السمة الغالبة عليها وعلى مفكريها ، وقد أجمعت معظم هذه الدراسات علي أن عوامل الجريمة والانحراف ترجع الى عوامل خاصة بالفرد من ناحية ، وعوامل خاصة بالمجتمع من ناحية أخرى [٢] .

هذا ويوجد اتفاق واسع الانتشار بأن معدلات الجريمة ، وبصفة خاصة الجرائم العنيفة، زادت في كل من الولايات المتحدة الامريكية ، وكندا ، ومعظم الدول الأوروبية الغربية أثناء فترة الستينات والسعبينات من هذا القرن [٣] .

هكذا تعتبر الجريمة عدوانا على الجماعة يهدد كيانها ومصلحتها ، وأيضا عدوانا على المجتمع يهدد أمنه واستقراره وكيانه . ومن ثم لابد ان تسعى الجماعة لحماية نفسها وتصد أشكال هذا العدوان ، ولذا ظهر «القانون» الذى يعاقب المجرم . واتجهت المجتمعات الى فرض نوع من الرقابة الاجتماعية على تنظيماتها الاجتماعية ، بحيث تحول بين الأفراد وبين رغبتهم الفطرية في التمرد على السلطة والنظام وهذا ما يعرف باسم «الضبط الاجتماعى» Social Control . هكذا ظهرت الجريمة وظهر لذلك العقاب كرد فعل للجريمة كما قال «دور كايم»

---

(1) Daniel Beel, "Crime as an American Way of Life: Aqueer Ladder of Social Mobility", in Coser (ed.), The Pleasures of Sociology, a mentor Book , New American Library Inc., New York, 1980, p. 417 - 441.

(2) Edwin M. Schur, The Politics of Deviance: Stigma contests and uses of Power, Prentice - Hall, Inc., Englewood Cliffs, New Jersy, 1980, p. 146.

(3) Hagan, J., Modern Criminology : Crime , Criminal, Behaviour and It's control, Mc Graw - Hill Books Company , New York , 1987, p. 106.

وسبق لنا أن ذكرنا ذلك .

ويعتبر اسهام «مالينوفسكى» [1] فى دراسة الضبط الاجتماعى ككل من أهم اسهاماته فى مجال الجريمة والعقاب ، حيث ميز بين الأنماط المختلفة للقواعد والقوانين التى تنظم وتضبط سلوك الافراد داخل المجتمعات البدائية كما هى موجودة فى المجتمعات المتحضرة . ولقد تأثر الباحثون فى هذا المجال برأى «مالينوفسكى» فى اعتبار أن دراسة القانون هى نمط من انماط الضبط الاجتماعى فى المجتمعات البدائية * .

والعقاب أمر شائع جدا فى الطبيعة ، ونتعلم منه الشيء الكثير ، ولقد بنى الناس عالما اكثر راحة واقل خطرا ، وذلك فى المقام الاول لتجنب مختلف اشكال العقاب الطبيعى [2] .

ويلجأ الشخص الى العقاب حينما ينتقد او يسخر أو يلوم او يهاجم شخصا، اخر جسديا لكى يوقف سلوكا غير مرغوب ، وكثيرا ما تعرف الحكومة بأنها القدرة على انزال العقوبات ، ومن تعاليم بعض الاديان ان السلوك الآثم يترتب عليه عقوبات سرمدية من النوع الذى تهلع منه القلوب .

هكذا وضع العقاب لازالة السلوك غير المرغوب فيه على افتراض ان الشخص الذى يعاقب قلما يعود الى السلوك بالأسلوب نفسه .

---

(1) Bottomore, T.B., Sociology Aguide to problems and Literature George Allen & Unwin Ltd, London, 1972, p. 252.

* الضبط الاجتماعى هو : مجموعة الاساليب الخاصة التى يستعملها المجتمع للحد من الجريمة أو لمنع وقوعها والمحافظة على الأمن والنظام .

(٢) ب . فـ . سكينر ، تكنولوجيا السلوك الانسانى ، ترجمة عبدالقادر يوسف ، مجلة عالم المعرفة، المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب ، الكويت ، ١٩٨٠ .

الفصل التاسع
الانثروبولوجيا التطبيقية وأهميتها *

* كتب هذا الفصل أ.د. فاروق أحمد مصطفى

الفصل التاسع
الانثروبولوجيا التطبيقية وأهميتها *

التعريف بالانثروبولوجيا التطبيقية :

تتعلق الدراسات التى يطلق عليها مصطلح العلوم التطبيقية بوسائل تعتمد على التسليم بأهمية المبادىء العلمية وإستخدامها ، وخير مثال على ذلك الهندسة التى تطبق مبادىء الطبيعة (الفيزياء). والطب الذى يطبق مبادىء علم وظائف الاعضاء . كما أن طلاب الهندسة يتعلمون كيفية استخدام المبادىء العلمية التى تساعدهم فى انشاء وإقامة الاعمال والتى تقف وتواجه أية عقبات تعترضهم اثناء التنفيذ . وطلاب الطب يتعلمون ايضا استخدام المبادىء العلمية فى اكتشاف المرض .

وكل من المهندس والطبيب لهما موضوعات محددة ولهما اختيارهما الموضوعى ولا يستطيع احد منهم التدخل فى تخصص الآخر فالمهندس الذى يقوم سداً هو الذى يحدد الطريقة والاسلوب الذى يتم تنفيذ هذه السد به وقد لا يكون له دخل فى تحديد أهمية هذا السد وفوائده أو اضراره على المجتمع ، وهل يتفق المشروع الذى ينفذه مع القيم السائدة في المجتمع أم يتنافى معها فكلها أمور لا تهمه . وايضا الحال بالنسبة للطبيب فهو يختار انسب الطرق والوسائل العلاجية لمعالجة المريض ولا يهتم فى اغلب الاحيان بالعوامل الاجتماعية والنفسية الاخرى.

واذا كانت الان الانثروبولوجية الاجتماعية تهتم بالعلاقات الاجتماعية فان المماثلة بينهما وبين الهندسة تتطلب وضع وسائل لانشاء وتكوين المجتمعات

* كتب هذا الفصل أ.د. فاروق أحمد مصطفى .

والجماعات ، كما ان المماثلة بين الانثروبولوجيا والطب تتطلب وضع وصفات (روشتات) ضرورية لعلاج الجوانب المرضية فى المجتمع .

واذا صدق ذلك فى مجال العلوم الطبيعية فانه يصعب أن يصدق فى مجال الانسان ، فتحديد الاشياء المرغوب فيها أو الحالات المرضية التى تحتاج إلى العلاج ليست بالامر الميسور [1]. ولكن قام الانثروبولوجيون بمحاولات أدت فى النهاية إلى ظهور الانثروبولوجيا التطبيقية.

وقبل ان نشير إلى المراحل التى أدت إلى ظهور علم الانثروبولوجيا التطبيقية نتعرض إلى بعض التعريفات الهامة بهذا العلم . فقد وضع اليوت شابيل Eliot Chapple تعريفا لهذا العلم بأنه (فرع من الانثروبولوجيا تهتم بوصف التغيرات فى العلاقات الانسانية وفى فصل المبادىء التى تضبط هذه العلاقات كما تتضمن اختيار لهذه العوامل التى تحدد امكانية احداث التغير فى التنظيم الانسانى) [2].

وتعرفها لوس مير Lcuy Mair ان ميدان الانثروبولوجيا التطبيقية اصبح من الميادين الهامة للناس لانها تساعدهم فى اتخاذ القرارات الاجتماعية، وفى معرفة اشياء عن السكان ، والتعريف بالعادات المختلفة للشعوب) [3].

ويعرفها دكتور حسن شحاته سعفان بأنها العلم الذى يبين كيف يمكن الاستفادة من علوم الانثروبولوجيا النظرية فى ادارة المجتمعات البدائية وتربيتها والنهوض بها وتطويرها وفى النهوض بوسائل رفاهيتها الاجتماعية فهو مثلا يشترك فى وضع خطة للتعليم العام فى مثل تلك المجتمعات ، أو خطة لتهيئة

---

(1) Lucy Mair, "Applied Anthropology" in I.E.S.S Vol 102, p. 325.
(2) Chapple, E, "Applied Anhropology in Industry, I'm Al. Krober Ep., Anthropology to day Uni of chicaga Priss, 1953, p. 819.
(3) Lucy Mair, op.ci.t, p. 325.

مجتمع ما للحكم الذاتى ، وكذلك الخطط الاقتصادية والتفسير الدينى إلى آخر ذلك» [1] .

ويرى الدكتور أحمد أبو زيد فى الانثروبولوجيا التطبيقية فرع متخصص من الانثروبولوجيا العامة، يهدف إلى الاستعانة من الدراسات الانثروبولوجية النظرية فى ضبط التغير الاجتماعى وتوجيهه فى المجتمعات البدائية والتقليدية، وإن هذا المصطلح حديث نسبيا استعمله لاول مرة راد كليف بروان A.R. Rad Cliffe Brown فى مقال له بعنوان «الانثروبولوجيا التطبيقية» عام ١٩٣٠ وكان اللفظ الشائع للانثروبولوجيا العملية Practical Anthropology اما عن اسباب ظهور هذا النوع من الانثروبولوجيا فيرجع إلى رغبة بعض الحكومات الاستعمارية في حكم الشعوب والقبائل الخاضعة لها بطريقة لا تتعارض مع القيمة التقليدية المتوارثة . وكانت بريطانيا اول دولة استعمارية استعانت بالانثروبولوحيين فى دراسة الانساق الاجتماعية والنظم والقيم السائدة فى مستعمراتها فى فترة ما بين الحربين للتعرف على افضل الطرق والوسائل لتوجيه خططها ووضع مشروعاتها الخاصة ولاستغلال الثروة القومية لهذه المستعمرات . وقد زاد اهتمام المسئولين عن وضع سياسات التنمية والتخطيط في كثير من المجتمعات النامية فى السنوات الأخيرة بالانثروبولوجيا التطبيقية نتيجة لازدياد الاقتناع بأن مشكلات التنمية ليست مشكلات اقتصادية أو تكنولوجية فحسب، وإنما هى فى جوهرها مشكلات اجتماعية واغفال النواحي الاجتماعية كثيرا ما يؤدى الى اخفاق هذه المشروعات وفى وسع الانثروبولوجيين ان يبصروا أفراد المجتمع بما لهذه المشروعات من مزايا .

---

(١) حسن شحاته سعفان : علم الانسان - الانثروبولوجيا - منشورات مكتبة العرفان ، بيروت ١٩٦٦ ، ص ٢٦.

التطور التاريخي للانثروبولوجيا التطبيقية :

يعالج افانز بريتشارد Evans Pritchard موضوع الانثروبولوجيا التطبيقية في كتابه الانثروبولوجيا الاجتماعية حيث افرد له الفصل السادس ، وقد تسائل فى هذا الفصل عن الغرض من دراسة الانثروبولوجيا الاجتماعية؟ ويوضح هذا السؤال يمكن تأويله تأويلات مختلفة كما يمكن الاجابة عليه باجابات مختلفة أيضا . فقد يكون الغرض من السؤال معرفة الدوافع التى تدفع المرء إلى ان يتخذ من الانثروبولوجيا الاجتماعية مهنة له . وفى هذه الحالة سوف تختف الاجابات باختلاف الانثروبولوجيين إذ سوف يجيب البعض بعدم معرفته بالضبط أو قد يجيبون كما اجاب أحد الانثروبولوجيين الامريكيين «لا أظن أننى أحب الرحلة والانتقال من مكان لآخر» [1].

وقد يعنى السؤال شيئا آخر مختلفا فيكون القصد منه : ما الفائدة التى نجنيها من دراسة ومعرفة الشعوب البدائية ؟ وهنا يجب ان نميز بين فائدة هذه المعرفة بالنسبة للشعوب البدائية ذاتها ، وفائدتها بالنسبة للمسئولية عن هذه الشعوب ورفاهتيها ، ثم فائدتها للاشخاص الذين يقومون بها أى بالنسبة للانثروبولوجيين أنفسهم ؟

لقد كان للمعلومات التى جمعها الانثروبولوجيون وللنتائج التى توصلوا اليها أكبر الأثر والفائدة بالنسبة لمشكلات الادارة والحكم والتعليم عند هذه الحكومات . فحكمت المستعمرات عن طريق الرؤساء الوطنيين بعد أن عرفوا وظائفهم في المجتمع ومدى سلطتهم ونوع الامتيازات التى تمتعوا بها ، كما عرف أيضا القوانين والعادات التقليدية لهذه الشعوب ويضرب ايفانز بريتشارد المثل

---

(١) ايفانز بريتشارد ، الانثروبولوجيا الاجتماعية ، الترجمة العربية للدكتور أحمد أبو زيد ، الطبعة الخامسة ، الهيئة العامة للكتاب ، ١٩٧٥ ، ص ١٤٣ .

على ذلك عند احداث تغيير أو تعديل فى اقتصاديات هذه الشعوب مثل تغير نظام ملكية الارض عندهم أو تشجيعهم على زراعة محصولات معينة للتصدير أو ادخال نظام الاسواق وجعل اقتصادهم يعتمد على النقد بدلاً من اعتماده على المقارنة فسوف يكون من المفيد هنا أن نقدر ولو بشكل تقريبى الآثار الاجتماعية التى قد تترتب على هذه التغيرات فقد يتخلف عن تغيير نظام ملكية الارض مثلا آثار وخيمة تصيب حياة العائلة والقرابة والدين ، لان العائلة وروابط القرابة والمعتقدات والعبادات الدينية قد تكون مرتبطة بنظام ملكية الارض هناك ارتباطات وثيقا [1].

ويؤكد ايفانز برتيشارد فى مجل الاستفادة من الدراسات الانثروبولوجية أن بعض العلماء يتحدثون عن الانثروبولوجيا التطبيقية بنفس اللهجة التى يتكلم الناس بها عن الطب التطبيقى أو الهندسة التطبيقية وهنا تصبح الانثروبولوجيا الاجتماعية علما طبيعيا يهدف إلى اقامة قوانين عامة عن الحياة الاجتماية وانه بمجرد الوصول الى هذه التعليمات النظرية يصبح من السهل الميسور اقامة علم تطبيقى وهذا يتفق مع وجهة نظر الانثروبولوجيين الاجتماعيين فى الوقت الحاضر الذين يتخذون العلوم الطبيعية نموذجا ومثالا لهم ويزعمون أن غرض الانثروبولوجيا هو ضبط التغيير الاجتماعى وتوجيهه عن طريق التنبؤ والتخطيط أو ما يسمى بالهندسة الاجتماعية [2].

ويعارض ايفانز بريتيشارد هذا الاتجاه موضحا عدم ثقته فى امكان قيام علم المجتمع يشبه العلوم الطبيعية ، كما أنه لا يظن ان هناك بعض العلماد من يؤكد اننا وصلنا بالفعل الى اكتشاف قوانين اجتماعية وما دامت لا توجد هناك قوانين معروفة فلا يمكن بالطبع تطبيقها .

---

(١) المرجع السابق ، ص ١٤٤ .

(٢) المرجع السابق ، ص ١٦٥ .

وهذا الا يعنى انه لا يمكن الاستفادة بالانثروبولوجيا الاجتماعية حتى فى الحدود الضيقة الفنية ، وانما يعنى فقط أن الانثروبولويا الاجتماعية لا يمكن ان تكون علما تطبيقيا كالطب والهندسة لانها نوع من المعرفة المنهجية المنظمة عن المجتمعات البدائية ومن هذه الناحية يمكن استخدامها فى تصريف الأمور مثلما نستفيد من كل المعارف الاخرى التى من هذا القبيل فمسائل الادارة والتعليم عند هذه الشعوب تحتاج إلى اجراءات وقرارات معينة وسوف تساعد معرفة الحقائق المسئولين على الوصول الى قرارات صائبة وحكيمة كما تقيمهم الزلل والوقوع في الاخطاء الضخمة التى قد يترتب عليها نتائج خطيرة والخلاصة ان الانثروبولوجيا الاجتماعية كمايرى ايفانز بريتشارد تساعدنا على الوصول الى فهم أفضل واعمق لذلك الكائن العجيب الرائع الذى نسميه الانسان فى كل مكان وكل زمان [١].

وفى رأينا ايفانز بتشارد لم ينكر الأهمية التطبيقية لعلم الانثروبولوجيا وان كان قد حدد هذا المجال فى مجرد المعرفة الثقافية التى تعد مشعلا يضىء الطريق أمام رجال الادارة عند وضع القوانين والتخطيط لاعمال تتعلق بمستقبل الشعوب.

وقد كان ريموند فيرث R. Furth اكثر وضوحا وصراحة عند معالجته لموضوع الانثروبولوجيا التطبيقية فقدتنا ولها فى كتابة النماذج البشرية Human Types فأوضح ان الانثروبولوجيا كعلم نظرى مثلها ككل العلوم الاخرى لها تطبيقاتها العلمية ، فدراسة علم الفلك تستخدم في تحسين الملاحة ، ودراسة علم الطبيعة تساعد في تحسين الهندسة واللاسلكى ، ودراسة الكيمياء تساعد في مجال الصيدلة والطب وعلم الاحياء يفيد فى تحسين الزراعة كذلك فان الانثروبولوجيا تساعد فى تطوير المجتمعات المحلية المتخلفة، وفى معالجة الصعوبات التى

---

(١) المرجع الاسبق ، ص ١٦٥

تعترض العلاقات الاجتماعية وفى تصميم برامج الشئون الاجتماعية [1] .

واذا كانت الانثروبولوجيا قديما تتعامل مع المجتمعات البدائية فانها قدمت الخدمات الجليلة للبعثات التبشيرية ، وللتجارة ، وللحكومة من اجل تنمية العلاقات مع هذه المجتمعات ، وقد أسهمت اسهاما رائعا فى مجال المؤسسات التعليمية ، والمنظمات الدولية وكذا فى مجال التدريب وقد استفادت الانثروبولوجيا فى الوقت الحاضر بما نشر من الدراسات الانثروبولوجية السابقة وبفضل الدور المميز الذى لعبه الانثروبولوجيون فى تنفيذ كثير من الخطط وتطويرها .

وقد كان نتيجة احتكاك المجتمعات المختلفة بالثقافة الغربية ونتيجة التطور الدينامى فى هذه المجتمعات ظهور مشكلات كثيرة تطلبت مساعدة وخبرة الانثروبولوجى ، فمشكلات السكان ، وتنظيم الاسرة ، وتحديد النسل ، وتوضيح العلاقات الجنسية ، والزواج ورعاية الاطفال ومعالجة مشكلات الاستفادة من الارض، وتحديد حقوق الافراد والجماعات ، والرؤساء ، والمجتمع المحلى لكل وتأثير البناء القرابى وقواعد الميراث على انتاجية الارض ، والمشكلات المتعلقة بالصناعة والتى تتضمن اعتبارات العمالة المتدفقة من القرى البعيدة، ومشكلات النساء والاطفال الذين يتركون فى القرى خلف هؤلاء العمال ، وكذا التجمعات التى يكونها العمال فى مراكز الانتاج ، والانماط المعقدة لتوزيع الاجور كما ساهم الانثروبولوجيون ايضا فى حل المشكلات المتعلقة بالتسويق ، والعلاج ، والديون، وتكوين رؤوس الأموال ، ومشكلات اتمام الزواج [2].

واضافت الانثروبولوجيا التطبيقية بعد الحرب العالمية الثانية كثيرا من المعرفة حول اسباب رفض المجتمعات المحلية اليابانية اعادة انشائها فى مراكز

---

(1) Firth, R., Human Types, Sphere Books, LTD, 1970, p. 166.
(2) Ibid. p. 167.

جديدة وكذا المقاومة التى ابداها اليابانيون للعمل فى المعسكرات الامريكية بأجور بعيدا عن محل اقامتهم الاصلية واشترك الانثروبولوجيون في كثير من الدراسات الاجتماعية والاقتصادية في انحاء متفرقة من العالم وقد برهنوا على أهمية دراسة ومعرفة سلوك الناس باعتباره جزء من نسق اجتماعى معقد وليس استجابة بسيطة من الافراد كما قاموا بتحليل العلاقات الاجتماعية داخل المجتمعات الغربية نفسها فى مجال الصناعة ، والطب وأعطوا أهمية خاصة للابنية غير الرسمية التى كان يستهان بها .

واختلف دور الانثروبولوجى الآن عن دوره قديما ، فهو يقدم مقترحات أكثر من حلول للمشكلات التى يواجهها أو على حد قول فيرث نفسه «يقدم الشرعية اللازمة للمفاصلات» [1] وهذا يدل على انه ليس من المطلوب ان يضع الانثروبولوجى الاجابات للاسئلة الصعبة التى يواجهها أصحاب القرار والتنفيذيون وانما عليه ان يضع التحليل الموضح لأسباب المشكلات وكيف يتم المواءمة المناسبة التى تخفف من الضغوط الكثيرة [2].

وقد اشار فيرث الى قضية هامة وهى الاعتقاد فى قيمة المعرفة الانسانية كهدف نهائى في حد ذاته ، واهتمام الانثروبولوجيين بتحقيق هذا الهدف انما مبعثه الى تصحيح التعميمات وفى شرح التعقيدات الخاصة بالسلوك الانسانى وقد يرى البعض ان العلم يحقق ذاته عن طريق نتائجه العملية أى الاهتمام بالحلول الخاصة بالمشكلات التى تواجه الادارة ، والتعليم ، أو تحقيق الرفاهية التامة للانسان [3] .

وناقش فيرث قضية هامة وهى هل يجب ان توجه الدراسات الانثروبولوجية

---

(1) Ibid, p. 167.
(2) Ibid, p. 169.
(3) Ibid., p., 170.

وفق اهداف عملية؛ اننا كأنثروبولوجيين يمكننا ان نقوم بأبحاث لها اهداف عملية ولكن دون ان نخضع لأى ضغط يوجهنا فى عملنا ويكون هدفنا الواضح هو : التشخيص والتنبؤ بالنسبة للمشكلات ووظيفتنا ان نستخدم النتائج التى توصلنا اليها من التحليل لتجديد موقفنا الواضح . واذا كنا نطالب الانثروبولوجى في ان يكون متحررا من القيم السائدة فى مجتمع الدراسة ، فانه لا يعنى الا يكون للانثروبولوجى نفسه قيما وانما المقصود به أنه لديه الحرية فى الفصل بعيداً عن الحكم بما يجب ان يكون أو ان يتم [١] .

وإذا كان الانثروبولوجيون لا يملكون الحلول الحاسمة لكل المشكلات الصعبة التى يواجهونها فأنهم يدركون الحقائق حول البناء والتنظيم وقيم المجتمع ويساعدون اى شخص يريد ان يحدث تغييرا فى المجتمع . وانهم يشعرون بانتمائهم الى تخصص له قيمه حقيقية فى فهم وتوجيه الشئون المتعلقة بالانسان [٢].

وقد ظهر بوضوح اثر مساهمة الانثروبولوجيين فى الجهات الحكومية الامريكية منذ عام ١٩٣٤ عندما عملوا فى المكتب الخاص بشئون الهنود مما ساعد فى ظهور الانثروبولوجيا التطبيقية، فقد قاموا بدراسة النظم السياسية عند الهنود الحمر ، كما اشتركوا ايضا كمستشارين فنيين فى ادارة الزراعة وذلك من اجل تحسين طرق الزراعة . واقتحموا ميادين جديدة حيث عمل بعضهم فى بعض الشركات الصناعية ، كالشركة الغربية الكهربائية فى شيكاجو واثبتوا أهمية تنمية نمط العلاقات الاجتماعية وتأثيره على كفاءة ورفاهية العمال.

وفى سنة ١٩٤١ انشئت الجمعية الانثروبولوجية التطبيقية وقامت باصدار مجلة بأسم الانثروبولوجية التطبيقية، ثم تغير الاسم منذ سنة ١٩٤٩ إلى

(1) Ibid., p. 172.
(2) Ibid., p. 173.

«التنظيم الانسانى» وقد حددت الجمعية الانثروبولوجية أهدافها فى تقدم البحث العلمى الخاص بمبادىء توجيه العلاقات الانسانية ، وتشجيع نشر هذه المباديء لكى تستطيع حل المشكلات العملية، وكان لها ثلاث ميادين من الاهتمام هى :

(١) الصحة العقلية والنفسية ، (٢) ورشة التنظيمات الصناعية ، (٣) العلاقة بين التطور الاقتصادى والتغير الاجتماعى ، وأسست الجمعية فى سنة ١٩٥١ فيما بعد مجلة بأسم «التطور الاقتصادى والتغير الاجتماعى» .

وخلال الحرب العالمية الثانية ساهم الانثروبولوجين من الامريكيون فى مجال اعادة توطين الشعب اليابانى في مناطق جديدة كما قاموا بدور تعليم للقوات العسكرية يتعلق بشرح ثقافة الشعب في المناطق المحتله حتى يستطيعوا ان يخلقوا فرص التعاون بينهم وبين الوطنيين فى مجال الأعمال المختلفة، كما عمل الانثروبولوجيون الامريكيون كمراسلين واشتركوا فى اعداد برامج تدريبية للضباط المنضمين الى القوات العسكرية لتعريفهم ببعض الواجبات الادارية وكيفية إدارة بعض الجزر كجزر الباسفيك . كما ساعدوا فى تنفيذ المشروعات وتقديم النصيحة وتفسير البرامج للسكان الوطنين ومن أهم المشروعات تحسين الصحة، السياسات الخاصة بالعمل ، والتعليم ، والتشريع واجراء التقاضى كما قاموا بالبحوث الاساسية التى كانت تعتمد على نصائحهم [١] .

وبعد نهاية الحرب العالمية الثانية وتم تصفية الحكم الاستعمارى فى كثير من المناطق من العالم ، حدث تغير كبير فى مجال الانثروبولوجيا التطبيقية فأهتمت بالتنمية الاقتصادية فى الدول النامية . وقد اعتنق الانثروبولوجيون مبدأ التغير التدريجى وضرورة المحافظة على النظم الوطنية فى العالم ، وشاركوا فى حل

(1) Lncy Mair : (Applied Anthropology) in I. E.S.S. Vol, 2 p. 328.

المشكلات الناجمة عن زيادة السكان وانخفاض الانتاج وقلة الموارد كما اشتركوا في كثير من المشروعات التكنولوجية في الولايات الامريكية ، ومع منظمات الأمم المتحدة كمنظمة الصحة العالمية ، والعون الزراعي وتنمية المجتمع وايضا في مجال الجمعيات الطبية [1] .

بعض مجالات الانثروبولوجيا التطبيقية :

لقد كان أثر احداث تغير في اتجاهات استخدام الانثروبولوجيا وتطبيقها بعد الحرب العالمية الثانية ان قام الانثروبولوجيون أنفسهم ببحث وتفسير الدور الذى يقومون به وهم لم يترددوا قط في أن يتحملوا المسئولية لتحقيق مجتمع أفضل ومثالي لحياة الانسان .

وقد أثيرت تساؤلات كثيرة عن دور الانثروبولوجين في مشروعات التنمية وهل يقتصر دورهم على تقديم الحقائق التى يعرفونها للسلطات الادارية التى تتعامل مع هذه الحقائق التى تريدها ؟ وقد انقسم الانثروبولوجيون أنفسهم إلى فئتين ، فئة ترى أن دورهم مجرد العمل النظرى للانثروبولوجيا ، وعدم التركيز على المشكلات الادارية وتفسير بعض الحقائق اما الفعل نفسه فيقوم به ويحققه متخصصون آخرون ، اما الفئة الثانية فترى انه يجب على الانثروبولوجي أن يضع بنفسه السياسات وان يقدم التوصيات ويتمشى هذا الاتجاه مع القانون الاساسى للجمعية الامريكية للانثروبولوجية التطبيقية والتى ينص على «يلتزم الانثروبولوجي بتقديم معرفته العلمية ومهاراته من أجل تحقيق رفاهية المواطنين عن طريق انشاء فهم واضح ومتبادل بينه وبينهم» .

ومهما يكن الامر فان هدف الانثروبولوجيا التطبيقية هى رفع مستوى

---

(1) Ibid., p. 328.

المعيشة ونشر الرفاهية وتقديم النصح من أجل تحقيق مشروعات التنمية التى تعود بالنفع على الانسان .

وسنتناول فى هذا الفصل أهم المجالات التى ساهمت فيها الانثروبولوجيا التطبيقية وهى مجال الادارة Administration ، ومجال التنمية Development ومجال الطب Medicine وفى رأينا أن هذه بعض الامثلة التى تعطى لتوضيح أهمية الدور الذى تقوم به الانثروبولوجية التطبيقية فى الوقت الحاضر وتتفق الادارة فى الهدف مع الانثروبولوجيا التطبيقية فى تحقيق ازدهار المواطن ورفاهيته ، وهذه حقيقة يمكن ملاحظتها فى المجالات المختلفة للادارة، سواء كان ادارة أعمال فى الشركات والمصالح الحكومية ، أو الادارة المدرسية ، أو لدى جماعة الصفوة السياسية وصانعى القرار انفسهم ، وفى حالات كثيرة تكون الاهداف ليست واضحة بدرجة كافية ويجب تفسيرها وهنا يستعين الادارى بالانثروبولوجى كما يجب فى رجل الادارة من اجل انجاز سياساته لمعرفة لحل ومواجهة الصعوبات التى تعترض مهمته المعقدة ودراسة الانثروبولوجية ستفيده ما دام يهتم بالمجتمع .

ورجل الادارة الناجح كالطبيب الناجح الذى يطبق المعلومات العامة التى حصل عليها من اجل تحقيق هدف خاص ، ويستطيع ان يتعاون مع الانثروبولوجى الذى يمده بالمعلومات الموضوعية ، وقد يحدث بعد تدريب ان يستطيع الادارى نفسه الحصول على المعرفة الانثروبولوجية [1] كما يمكن للانثروبولوجى بعد تدريب ان يصبح اداريا ناجحا وهذا يعنى أن شخصا واحدا يستطيع القيام بالدورين . وهناك ثلاثة اتجاهات يمكن ان يستفيد منها رجل الادارة من الانثروبولوجيا.

---

(1) Sol, TAX, "Anthropology and Adminstration in Reading": In Anthropology ed Hoebelandothess - Mc-grew Hill N.Y 1955, pp. 389 - 390.

أولا : يقوم الاداري بانتفاء واختيار بعض التراث الانثروبولوجي بالشعب الذي يضع له السياسة العامة ولكن هذه الطريقة ليست كافية نظراً لأن المادة الانثروبولوجية المنشورة في العادة غير كافية للاداريين ، كما وان الاداري غير المدرب في ميادين الانثروبولوجيا قد يفشل في الاطلاع على التراث الانثروبولوجي حقيقة قد يعرف بعض الحقائق عن الناس ولكنه لا يستطيع ان يصل في ذلك الى العالم المتخصص في الانثروبولوجيا ، فالانثروبولوجي له فهم خاص للانسان ، للثقافة وللمجتمع ويستطيع ان يحس بالتكامل بينهم بينما الاداري ينظر اليها باعتبارها ظواهر منفصلة وقد لا يستطيع التوصل الى التفسير المناسب ، وعلى أحسن الظروف فان الاداري يطبق في عمله مادة ومعلومات عن الثقافة التي يتعامل معها ولا يستطيع ان يصل الى التعميمات الانثروبولوجية المتقدمه .

ثانيا : قد يحصل رجل الادارة على تدريب في الانثروبولوجيا وهذا النموذج كان شائعا وقت الحرب ولكنه يفضل على استخدام الانثروبولوجيين أنفسهم كمستشارين للاداريين فقد حقق ذلك نجاحا كبيرا وفي حالة استخدام الانثروبولوجي كمستشار فانه يعالج بذكائه في وضع حلول للمشكلات الاجتماعية وأي بحث سيقوم به فانه سيكون بحثا علميا بمعنى أنه ساهم في تنمية النظرية العلمية ، وضرورة أنه يهم الاداري ، والانثروبولوجي دورهما وان يعملا متعاونيين أي تدخل من الاداري في عمل الانثروبولوجي حتى يكتب لهذا التعاون النجاح .

ثالثا : قد يظن الاداري الذي نال تدريبا أنثروبولوجيا خطأ أنه اصبح انثروبولوجيا ونجد نفس الحالة بالنسبة للانثروبولوجي الذي يحصل على تدريب في الادارة .

ومن وجهة نظر SoI Tax يجب على الاداري ان يحصل على كم وفير من الانثروبولوجيا كعلم وان يتعرف على المناهج الرئيسية والنظرية وعليه أن يقرر

بنفسه رغم حصوله على هذه المعرفة التى قد تستمر الى سنة أو سنتين بأنه لم يصبح بعد أنثروبولوجيا [1] .

لأن الانثروبولوجى بخبرته الطويلة يستطيع ان يتنبأ بما سيحدث للعلاقات الاجتماعية بين الناس وتأثير استخدام وسائل وطرق جديدة على علاقاتهم ويترك للادارى امر اتخاذ القرار وباختصار فان الادارى يتاح له ما يمكن أن نسميه الهندسة الانثروبولوجية Anthropological Engineering التى تقوم على أسس علمية وتحقق نتائج عملية وتستخدم المناهج الكمية فى التحليل [2] .

وفى رأينا أن تطبيق الانثروبولوجيا واستخداماتها فى التعرف على حاجات الافراد والجماعات والمجتمعات المحلية تساعد وتتخذ القرار فى الوصول الى قرارات سليمة تفيد فى احداث التغيير الذى يتمشى مع التغييرات التكنولوجيا ويلعب الانثروبولوجى دورا هاما فى هذا المجال ولم يعد دوره مجرد دعوته لابداء الرأى فى بعض المشكلات بعد تفاقمها.

والمجال الثانى للانثروبولوجيا التطبيقية هو التنمية ، وتنمية المجتمع عملية يقصد بها تهيئة عوامل التقدم الاجتماعى والاقتصادى للمجتمع عن طريق مساهمة أفراده وجماعاته واستغلال امكانياته ، وهذه العملية ليست عملية حديثة فى نوعها فمنذ زمن بعيد تعاون افراد المجتمعات المحلية فى مواجهة احتياجات مجتمعاتهم فكثيرا ما تعاون ابناء القرية الواحدة فى بناء السدود لمواجهة الفيضانات أو حفر الابار او الترع او المصاريف او إنشاء دور العبادة والمدارس والامثلة على ذلك كثيرة ومن بلدان شتى فى الهند وباكستان ومصر الاهالى فى أغلب بقاع العالم يساهمون فى تحديد مشاكلهم واحتياجاتهم ويعملون متعاونيين على تنمية مجتمعاتهم .

(1) Ibid., p. 391.
(2) E., "Anthropological Engineering Its use to Adminstration", in Readings in Anthropology, p. 349.

وتعرف الأمم المتحدة تنمية المجتمع بانها تدعم المجهودات الاهلية للمجتمع المحلى وربطها بالمجهودات الحكومية وذلك لتحسين الحالة الاقتصادية والاجتماعية والحضارية لهذا المجتمع على ان تكون خطط الاصلاح بهذه المجتمعات المحلية متمشية ومنسجمة مع خطط الاصلاح العامة للدولة وامداد للمعنى الاساسى لهذا التعريف يعرف الدكتور صلاح العبد التنمية الاجتماعية بأنها :

«عملية تعبئة وتنظيم جهود افراد المجتمع وجماعاته وتوجيهها للعمل المشترك مع الهيئات الحكومية باساليب ديمقراطية لحل مشاكل المجتمع ورفع مستوى ابنائه اجتماعيا واقتصاديا وثقافيا ومقابلة احتياجاتهم بالانتفاع الكامل بكافة الموارد الطبيعية والبشرية والفنية والمالية المتاحة [1] .

والهدف من برامج التنمية الاجتماعية والاقتصادية فى اوسع معانيها هو تحسين الظروف الاقتصادية والاجتماعية والصحية والثقافية للمجتمعات ولا يمكن أن يتم ذلك دون تخطيط شامل متكامل مبني على الحقائق والوقائع وعلى الدراسة العلمية الموضوعة وهنا يظهر الدور الذي يقوم به المتخصص في الانثروبولوجيا سواء القيام بإعداد الدراسات والوصول إلى المناطق وتوضيحها واستشارة الناس أنفسهم لبرامج التنمية ، ومما لا شك فيه أن نجاح برامج التنمية يزداد احتمالاته في تحقيق الأهداف إذا شارك الناس أنفسهم وعلى نطاق واسع في تحديد الأهداف وفي التخطيط لها وفي تنفيذها ، وفي تقديمها بمختلف صور المشاركة وتتعدد المصطلحات التي تستخدم لتأكيد هذه المشاركة وللدلاله على طبيعتها وأشكالها فالنهوض بالمجتمع المحلي يتضمن المشاركة في الجهود الهادفة لتحسين مستوى حياة الناس ، بل قد تكون المبادأة من جانبهم[2] .

---

(١) صلاح العبد «الاتجاه التكاملى للتنمية الريفية بأفريقيا» المركز الدولي للتعليم الوظيفي للكبار والعالم العربي ص ٨٨ - ١٩٧٤ .

(٢) إبراهيم أبو لغد، ولويس كامل مليكة، أثر التدريب في تغيير الاتجاه دراسة تجريبية - مركز التربية الأساسية للعالم العربي ١٩٥٩ -٦١ .

والواقع أن هناك عديداً من التطورات لمفهوم التنمية ولكنها تجمع في النهاية على نتائج عامة واحدة تقريباً فالنتيجة ترتبط بالتحديث الذي يحقق أفضل ظروف إنسانية لأفراد المجتمع وهي تتمثل في إيجاد فرص الحياة وتحقيق المساواة في هذه الفرص ومهما تعددت الزوايا التي ينظر بها البعض إلى قضية التنمية ومفهومها فإنها تعمل على الارتفاع المنظم لإنتاج عمل العاملين وزيادة المنتجات وتوفير رفاهية متزايدة من خلال تغيرات تتناول بالضرورة أوضاع الإنتاج الاجتماعي والتصدي لأحداث إنتاج أرقى واستخدام وسائل أحدث وأكفأ مع السعي الجدي لتحقيق أشباع متزايد للحاجات على مستوى كل من الفرد والمجتمع وعلى أساس الاستفادة من فنون الإنتاج الحديثة والإمكانيات المتاحة للتعاون الدولي وهو مفهوم للتنمية يمكن إيجازه في زيادة إنتاج المجتمع وتوخي العدالة في توزيعه .

وبهذا المفهوم تكون التنمية عملية حضارية متكاملة تعني برفع كفاءة القوى المنتجة بما ينمي الثروة القومية ويولد الفائض الاقتصادي اللازم للتوسع المطرد في الاستثمار ، كما تعني التنمية بتوفير الخدمات الأساسية للأفراد المنتجة لتوفر لهم الشروط الموضوعة للوصول إلى مستوى التطور التكنولوجي المطلوب (١) .

وهناك أمثلة كثيرة توضح أن الأنثروبولوجيا قد لعبت دوراً محدداً وهاماً في برامج التنمية ، فقد ساهم الانثروبولوجيون في مشروعات محلية بتجاربهم وتعاونهم مع المتخصصين في العلوم الأخرى، كما قاموا بدور قيادي في كثير من برامج التنمية التي تناولت الجماعات العرقية المحلية ، وكذا المجتمعات القروية والدور الذي قام به المعهد القومى للمكسيك واضح تماما وقد اشترك الانثروبولوجيون في رسم البرامج وتنفيذها ومواجهة المشكلات الناجمة .

---

(١) صبري عزيز - التجربة الغربية في التنمية والتحديث - مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية ١٩٨٠ ص ٩.

وهناك اعتراف بتطبيق الانثروبولوجيا ومبادئها في عمليات التنمية بوصفها عملية تضم النسق الاجتماعي والنسق الثقافي الكلي وهذا ما يتم مراعاته عند القيام بأن برامج قومية للتنمية وقد أسهم الانثروبولوجيون إسهاماً كبيراً في فهم مشكلات تقبل أو رفض التغيير كما شاركوا في عمليات التخطيط والتنفيذ والتقديم، ولقد تمكن الانثروبولوجيون من التطبيقيين من اشتراكهم في كثير من المشروعات عن طريق تحديدهم للقيادات المحلية وتطويرها وإتاحة فرص التكيف داخل النظم الاجتماعية وتحديد عوامل مقاومة التغير والمساعدة في تنفيذ البرامج واكتشاف أسباب إخفاقها.

وقد شارك المؤلفان في دراسة لتنمية القرية المصرية وهي قرية أبي صير مع وزارة الشئون الاجتماعية ولم يقتصر دورهما على مجرد إبداء النصح في البرامج المعدة وإنما قاما بوضع البرامج بعد دراسة انثروبولوجية تم فيها اكتشاف الحاجات الأساسية والتعرف على التيارات المحلية بل واكتشاف قيادات لم تكن معروفة من قبل.

ويشير رالف بيلز وزملاؤه في كتابهم مقدمه فى الانثروبولوجيا مجموعة من التساؤلات الخاصة بالتنمية وأهميتها وهل التنمية تتمثل ببساطة في إتاحة الفرصة لاستغلال أفضل للموارد حتى يمكن مواجهة احتياجات مزيد من السكان أم يجب أن تركز التنمية على النهوض بنوعية أو طبيعة الحياة بالنسبة لعدد محدود من السكان؟ كيف يحدد الناس ما يعنونه بنوعية الحياة ؟

إن عمليات التنمية تتطلب مزيداً من الاستغلال الواسع والمركز للموارد الطبيعية كيف يمكن إحداث هذا التغير؟ وغيرها من التساؤلات الهامة في مجال الانثروبولوجيا التطبيقية وعلاقتها بالتنمية [1].

---

(1) Belas, R. & Hoijer H. & Beale A. an intruduction to Anthropology, Macmillan Publishing Co. Inc., N.Y . 1987 P. 658 .

والمجال الثالث هو علاقة الانثروبولوجيا التطبيقية بالطب، فقد ساهم الانثروبولوجيون الاجتماعيون وبعض علماء الاجتماع في ميادين جديدة ، فهم يشتركون مع الأطباء في المؤتمرات الخاصة بالطب الاجتماعي ، كما يقومون بالتدريس في المعاهد الطبية ويعملون مع المتخصصين في مجال خدمات الصحة العامة، في بيرو وارسوا البناء الاجتماعي للمستشفي ، كما يقومون بمقابلة المرضى الذين يستعدون لاجراء جراحة ويشتركون أيضاً في العلاج النفسي وكثير من الأعمال التي يشترك فيها الانثروبولوجيون لم تنشر وقد قام Actentnecht (١٩٤٢ - ١٩٤٧) بكتابة أوراق ممتازة عن الطب البدائي كما ناقشت ميد ، وهنري ١٩٤٩ العلاقة بين الانثروبولوجيا والطب السيكوسوماتى وعرض هول Hal لتقدم البحوث الاجتماعية فى مجال الطب ، وتامبه كلوشن Clausen فى دراسة أهم البحوث الاجتماعية التى تساعد فى تحقيق برامج الصحة النفسية كما قامت مؤسسات حكومية وأخرى خاصة بدراسة الجوانب الاجتماعية للصحة والمرض وقد ظهر ذلك واضحا فى البرامج الاجتماعية السنوية للجمعيات الانثروبولوجية والاجتماعية [(١)] .

حقيقة فان المرض يعد بشكل أو بآخر مشكلة اساسية وحيوية تواجه المجتمع وكل مجتمع انسانى معروف قد طور المناهج التى يقاوم بها المرض مما أدى إلى ظهور الطب الحديث وقد اشار معظم الانثروبولوجين فى نهاية القرن التاسع عشر الى الطب او المرض فى كتاباتهم وإلى الممارسات العلاجية المختلفة ومن امثلة

---

(1) Caudill W. :Anthropology in Medicin" in Anthropology today, ed. Krober, A., Chicago; 1953, p. 771.

ذلك دراسة فيلد Field (١٩٣) لمجتمع الجا Ga ، ودراسة ايفانزبريتشارد (١٩٣٧) لمجتمع الازاندى Azande ودراسة هارلى ١٩٤١ لمجتمع المانو Mano الافريقى ودراسة وارنر (١٩٣٧) لدراسة المورنجية الاسترالية ودراسة اوبلر (١٩٣٦ ، ١٩٤١) لمجتمع الاباش ودراسة ردفيلد ١٩٤٠ للمايا فى امريكا الشمالية والامثلة غيرها كثيرة .

وأهمية هذه الدراسات انها تعطى مادة اثنوجرافية تتعلق بالطب البدائى مادة خاصة بالمفاهيم المعينة للمرض والممارسات العلاجية فى الوقت الذى كانت فيه مقصورة على دراسة المرض نفسه ولكنها مادة مفيدة للباحثين فى تطور الطب الحديث كما انها افادت الانثروبولوجيين انفسهم فى وضع بعض المبادىء الاساسية فى دراسة الانثروبولوجيا الطبية ومن هذه المبادىء (١) انه لا يوجد طب بدائي واحد وإنما توجد مجالات عديدة للطب البدائى ، (٢) يتأثر النمط الطبى في مجتمع من المجتمعات بثقافة هذا المجتمع (٣) هناك تكامل بين العوامل المختلفة التى تسبب المرض وبين الانماط الثقافية فى المجتمع [١] .

ويرجع نجاح الطب البدائى الى عوامل موضوعية كثيرة أهمها علاجه لبعض الامراض كالكسر وجراحة وعلاج الكسور واجراء بعض التطعيم ضد الجدرى ، وعلاج لدغة الثعبان ، واستخدام عقاقير كثيرة فى العلاج مثل الافيون والكينا ونباتات مختلفة فى العلاج.

كما وإن استخدام هذه الوسائل والادوات كان يتم فى العادة مصاحب للصلاة والأدعية والشعائر والرقصات الدينية وكلها لها تأثيراتها السيكولوجية والتى اوضحها اوبلر opler فى دراسته للاباش حيث اشار الى ان هناك تأثير نفسى قوى بين رجال الدين المعالجين وبين المرضى لا يرجع فحسب الى العلاقات

---

(1) Ibid., p. 772.

الشخصية بين الطبيب وبين المريض ولكن من المشاركة المتكررة للمجتمع المحلى [1] .

وقد ساعدت هذه الدراسات على ظهور الانثروبولوجيا الطبية Medical Anthropology هذا المجال الجديد للانثروبولوجيا التطبيقية والذي ينمو بسرعة كعلم ويتمتع بجانبيه : الجانب التطبيقى ، والجانب النظرى حيث يلاحظ الانثروبولوجى فى كل وقت مريض يتغلب على المرض ، ويلاحظ عليه تغير اجتماعى فى فترة قصيرة من الزمن ، وهو يشارك فى عملية العلاج، فى العمل داخل العيادة ويشبه البعض الدور الذى يقوم به الانثروبولوجى بدور «الأنا» بالنسبة لعمليات العلاج النفسى لا يمكن الاستغناء عنه معرفتها أو اهمال دورها والا فشلنا فى العلاج [2] .

والانثروبولوجيا الطبية تضع نفسها فى خدمة علاج المرضى وتساعد فى مجالات طبية كثيرة، وقد اوضح سينجر Singer ان الانثروبولوجى المتخصص في الانثروبولوجيا الطبية يعانى فى حرصه على الموضوعية والحيادية معاناة المحلل النفسى داخل العيادة النفسية ، والاثنان يبذلان الجهد من اجل الحصول على المعلومات التى تساعد فى الكشف عن المرض والعلاج [3] .

ولا يمكن انكار ان المشكلات الاجتماعية لها تأثيرها على الانسان واحداث المرض فى سواء أكان جسمانيا او نفسيا فقد اشار احد مراكز الصحة النفسية فى فلادلفيا في الولايات المتحدة الامريكية الى ان العوامل الاجتماعية عوامل رئيسية مترسبه فى النفس [4]. ولا نستطيع ان ننكر قيمة المعرفة الانثروبولوجية المركزة فى معرفة السلوك المرضى والسلوك الصحى والسؤال الذى يطرح نفسه هل

---

(1) Ibid., p. 773
(2) Ibid., p. 1
(3) Singer Ph. The Traditional Healing New Science or New Colonialism, Conch M.L.N.Y, 1977, p. 6.
(4) Ibid., pp. 8 - 9.

المعرفة الثقافية تحدد اتجاهات تحسين الظروف الصحية للانسان ؟ من المؤكد ان تمتع الانسان بصحة طيبة يرجع الى ظروف اجتماعية واقتصادية تهيء الظروف الطبية كالتغذية ، والاسكان والمياه والصرف الصحى ... الخ .

واننا نتفق مع كوبر Kroeber الذى يرى ان التمتع بالصحة الجسمية والنفسية هدف اسمى للانسان يسعى اليه ويحقق تقدمه [1] وعندما نشخص المرض نفسه لابد ان نعتمد على العامل الثقافى ولا يمكن فهم المرض نفسه الا فى ضوء المحتوى الثقافى الذى يخضع لمجموعة الانساق الاجتماعية المختلفة وللوسط الاجتماعى وعلى ذلك فلا يمكن ان تطبق قوائم العلاج المستخدمة فى المجتمعات الغربية على المرضى فى الثقافات الاخرى وهذا يؤكد فكرة الانثروبولوجيين الطبيين ويحقق هدفهم فى تقديم العلاج الملائم ثقافيا [2] .

ونعطى مثالا على ذلك من نجاح وسائل الطب الشعبى فى كثير من. بلدان العالم والتى تعترف دول كثيرة به ، ففى الصين نجد الاطباء والحفاة Barafoot doctorsوهم يعدون جزءا هاما من النسق الطبي الذى يخضع للاشراف والتوجيه الحكومى ويتم فى ضوء فلسفة المحافظة على العلاج الشعبى [3] وفى سيرلانكا يوجد اكثر من عشرة آلاف ممارس للطب الشعبى مسجلة اسمائهم لدى السلطات الصحية وهذا يدل على ان الطب الشعبى يندمج مع نظام للخدمات الصحية ويغطى ما يقرب من ٧٠٪ من احتياجات الناس للخدمات الصحية ، وفى الهند حوالى ٥٠٠ر٠٠٠ ممارسا للطب الشعبى ، ويحصل جميع العاملين فى الحقل

---

(1) Kroeber, A. Anthropology - Haecourt , Brace and Co., N. y., 1988, pp. 296 - 304.
(2) Op.cit., p. 24.
(3) Ibid, p. 254.

الصحى على دراسات مركزه فى مجال الطب الشعبى من خلال ١٠٨ كلية ومركز صحى تهتم بالمطببين الشعبيين وتمنحهم التراخيص الخاصة بمزاولة المهنة [١] .

وقد نبهت الدراسات الانثروبولوجية الطبية على أهمية بعض الأعشاب ومواد العطارة المستخدمة فى العلاج لكثير من الأمراض المستعصية التى يعجز عن شفائها الطب الحديث . نظرا لاحتوائها على مواد غنية بالاملاح والفيتامينات والمواد الغذائية التى تساعد على بناء الخلية فى الجسم الانسانى وتحقق الشفاء وتمنع المرض وقد يبدو للوهلة الأولى ان الاعشاب والعطارة عاجزة عن القضاء على الآلام كما تفعل بعض حبوب الدواء بسرعة، ولكنها لها تأثيرها البعيد في الجسم الإنسانى ، ولها تأثيرها المطهر، كما ان لها استخدامها المختلفة [٢] .

---

(1) World Health Organzation : The Promition and develompent of traditional Medicine Report of a WHO meeting 1978. p. 11.
(2) Lambo J.O. "The impact of Colonialism on African Cultural Heritge with special Refenence to the practice of Herbalicn in Nigeria, In Traditional Healing, p. 133.

صفحة

محتويات الكتاب

